آلان فورنييه

آفاق الصّبا

أو

المولن الكبير

المنشورات العربية

آفاقُ الصّبا

أو

المولن الكبير

آلان فورنييه

آفاق الصبا

أو

المولن الكبير

نقله إلى العربية

ادوار البستاني

ابتكرت الصور للنص العربي خاصة

السيدة غيليه نابولي

المنشورات العربية

١

نزل بنا ذات احدٍ من تشرين الثـــاني سنة ،،، ١٨٩

ما زلت اقول « بنا » مــع ان البيت قـــد خرج من حيازتنا . فها ان خمس عشرة سنة توشك ان تنقضي على مغادرتنا البلاد، ومن الثابت اننا لن نرجع اليها قط .

كنا نسكن ابنية الصف العـالي من معهد « سانت آغات »، وابي، الذي كنت ادعوه السيد « سوريل » شأن سائر التلاميذ، كان يدير الصف العـالي المهيئ لشهادة التعليم، والصف الوسط في وقت معاً . اما والدتي فقد وُكلت اليها مدارس الاحداث .

دار مستطيلة حمراء، ذات ابواب خمسة مبلورة، تقوم تحت كروم عذراء في منتهى القرية. وعرصة رحبة الجنبات ذات سقائف ومغتسل، تنفتح من الامام على القرية من رتاج عظيم، وفي الوجه الشمالي باب صغير مشبك ينفذ الى طريق المحطة، وهي على بعد ثلاثة اميال، وفي الجنوب، من الوراء، حقول وجنائن ومروج تتصل بالدساكر... تلك هي صورة مصغرة عن ذلك المنزل الذي انقضت فيه آلم واعذب ايام حياتي، منزل قد انطلقت منه وعادت اليه تنحطم كأمواج على صخرة جرداء، مغامراتنا.

لا ادري ما الذي ساقنا الى هذا المكان، أهي مصادفة التنقل، ام قرار مفتش ام حاكم. ففي اواخر العطلة، منذ زمن بعيد، حطت بنا امام باب الحديد الصدئ، امي وانا، عربة فلاحين تتقدم حوائج المنزل واثاثه. وكان بعض الصبية يسرقون ثمر الدّراقن فانسلوا هاربين بصمت من ثقوب السياج ودخلت أمي، وكنا ندعوها «ميليا»، وهي ربة البيت التي ما عرفت لها مثيلاً في الترتيب، دخلت في الحال الى الغرف الملأى بالتبن المغبّر، وتبينت فورا وبيأس، شأنها لدى كل انتقال، ان اثاثنا لا يعيه

قط منزل كهذا رديء البنـــاء ، وخرجت لتسرّ اليّ بكربها . وكانت فيما تكلمني، تمر منديلها برفق على وجهي الذي لوّحـــه السفر . ثم دخلت ثانية لترى اي النوافذ يجب ان يقضى عليهـا حتى يصبح المنزل حرياً بالسكن ... اما انا فقد لبثت ، وعـلى رأسي قبعة كبيرة من القش ذات وشاح، انتظر هناك على حصى تلك العرصة الغريبة اجوس على مهل حول البئر وتحت السقيفة .

هذا لعمري ما اتخيله اليوم من امر وصولنا . لانني كلما اردت ان اتلمس الذكرى البعيدة لاولى امسية انتظـــار في ساحتنا بـ « سانت آغات » تبادرت الى خاطري ساعات انتظار اخرى اتذكرها ، وها انا اتمثل نفسي مستلقي اليدين على قضبان الرتاج اترصد بقلق كائناً سينحدر من الشارع الكبير . واذا ما حاولت ان اتخيل الليلة الاولى التي قضيتها في غرفتي وسط الدور الاول ، فانني اتذكر ليالي اخر . وقد اصبحت غير وحيدٍ في هذه الغرفة، فثمة ظل مستطيل، ظل انيس قلق يتمشى طوال الجدران .

هذا المنظر الهادئ جميعه :

— المدرسة ، وحقـــل العم « مرتينوس » بجوزاته الثلاث،

والجنينة التي تجتاحها النساء الزائرات منذ الساعة الرابعة — ما زال ماثلًا ابداً في خاطري، مضطرباً، متبدلاً متحولاً بوجود ذلك الذي بلبل حداثتنا حتى ان فراره من بيننا لم يترك لنا مجالاً للراحة .

كان قد انقضى على وجودنا في البلاد عشر سنوات يوم جاءنا « مولن »، وعمري آنئذٍ خمس عشرة سنة . صادف ذلك نهار احد قارس من تشرين الثاني وهو اول يوم من ايام الخريف يذكرك بالشتاء. وكانت « ميليا » قد انتظرت طوال النهار عربة من المحطة ستحمل اليها قبعة للفصل الرديء فلم تذهب في الصباح الى القداس، وحتى ساعة الموعظة لبثت جالساً في صحن الهيكل وسائر الاولاد، انظر بقلق ناحية الاجراس لاراها تدخل بقبعتها الجديدة .

وبعد الظهر اضطررت للذهاب وحدي الى صلاة العصر، فقالت تهوّن علي وهي تنفض بيدها ردائي الصغير : — هَبْ انني تسلمت القبعة فقد كان من المحتوم، ولا ريب، ان اقضي نهاري في اصلاحها .

اكثر آحادنا في الشتاء كانت تنقضي على هذا النمط . يذهب والدي في منبثق الصباح بعيداً الى شاطئ احدى البحيرات المغطاة

بالضباب ليصطاد السمك في القارب وتعتكف امي في غرفتنا المظلمة حتى الليل لترتق بعض الملابس الوضيعة . فتحبس نفسها هكذا مخافة ان تفجئها على هذه الحال سيدة من صديقاتها قد تكون مثيلتها في العوز وفي الانفة ايضاً، اما انا فحال انقضاء صلاة العصر، كنت انتظر واقرأ في غرفة الطعام الباردة ، ريثما تفتح الباب لتريني كيف تلبق الثياب بها . واستوقفتني ، هذا الاحد، بعد صلاة العصر، حركة امام الكنيسة، فثمة حفلة تنصير تحت قوس المدخل تجمع لها بعض الصبية . وفي الساحة رجال عديدون من القرية قد ارتدوا دراعات الاطفائيين . ركزوا الاسلحة على شكل هرم وراحوا من شدة الصقيع يضربون الارض بالنعال فيما هم يصغون الى رئيس فرقتهم «بوجاردون» يخلط في مباحثه النظرية ...

وتوقفت نواقيس الحفلة فجأة كجرس عيد غلط في اليوم وفي المكان . وتقلد «بوجاردون» ورجاله السلاح وانطلقوا خبباً يجرون المضخة، ورأيتهم يتوارون في اول منعطف، يتبعهم اربعة صبية صامتين ويدوسون بنعالهم الغليظة اعشاب الطريق المكسوة بالجليد . فلم اتجرأ على اللحاق بهم .

لم يبق في الضيعة، مما يشعر بالحياة، الا مقهى «دانيال» حيث كنت اسمع غمغمة تعلو وتنخفض من مجادلات الشاربين. ومشيت في لصيق الحائط الوطيء المحيط بالعرصة الكبرى التي تعزل بيتنا عن القرية، حتى بلغت الباب الصغير على شيء من القلق بسبب تأخري.

وكان نصف مغلق، فتبينت حالاً ان ثمة امراً غير عادي.

فهناك عند باب غرفة الطعام – وهو اقرب الابواب الخمسة المبلورة المشرفة على الساحة – امرأة ذات شعر رمادي، منحنية، تحاول ان تنظر من خلال السُتُر وبدت قصيرة القامة، تتشح بمعطف مخملي اسود ذي طراز قديم. لها وجه مسنون يجتاحه القلق. ولا ادري اي تخوف، عند مرآها، وقفني عند الدرجة الاولى امام الباب.

وسمعتها تقول بصوت منخفض. الى اين مضى؟ يا رباه. كان هنا منذ لحظة، وقد سبق واستدار حول البيت، ولعله هرب...

وكانت تقرع الزجاج ثلاثاً، بين الجملة والجملة، قرعات خفيفة تكاد لا تسمع.

ولم يحضر من يفتح الباب للزائرة المجهولة، ذلك ان «ميليا» تسلمت، ولا ريب، قبعتها من المحطة فلم تسمع. ولعلها في اعماق الغرفة الحمراء، امـــام سرير مزدرع بالاوشحة العتيقة، والريش المملس، تخيط ثم تفتق، عاملة على ترميم قبعتها الرديئة... والواقع انني عندما دخلت غرفـة الطعام، تتبعني الزائرة مباشرة، بدت والدتي تمسك على رأسها بكلتا يديها خيوطاً من النحاس واوشحة وريشا غير معتدلة ولا متساوية بعـد... فابتسمت لي بعينيها الزرقاوين التعبتين لفرط ما اجهدتها في منتهى النهار وصاحت:

– انظر! كنت انتظرك حتى أريك...

لكنها، اذ رأت هذه المرأة جالسة على الكرسي الكبير في آخر الغرفة، انقطعت عن الكلام مرتبكة. وبسرعة نزعت القبعة، وفي خلال المشهد كله الذي عقب ذلك، امسكت بها على صدرها منكفئة كالعش، طاوية عليها ذراعها اليمنى.

اما المرأة ذات المعطف التي كانت تشد بين ركبتيها مظلة وكيساً من الجلد، فقد اخذت بالكلام، يتهزز رأسها قليلًا ويطقطق لسانها، شأن سيدة في زيارة. واستعادت كل طمأنينتها،

حتى انها حين شرعت تتحدث عن ابنها اتسم وجهها بادعاء وغرابة حملانا على التفكير .

جاءت تلك الارملة العظيمة الثروة، على ما قالت لنا، في عربة من « لافرته دانجيون » الواقعة على اربعة عشر ميلاً من « سانت آغات» وكانت قد فجعت بالصغير من ولديها «انطوان» الذي قضى نحبه ذات مساء عند رجوعه من المدرسة بسبب استحمامه واخاه في مستنقع قذر . فعزمت على ان تعهد بولدها البكر « اغوسطين » الى معهدنا حتى يتبع فيه الصف العالي داخلياً .

واخذت للحـــال تطري هذا التلميذ الذي جاءتنا به، حتى تنكرت علي المرأة ذات الشعر الرمادي التي رأيتها، لدقيقة خلت، منحنية امام الباب وعلى محياها من امارات الاستعطاف والذعر ما يبدو في عيني دجاجة فقدت الطائر الشرود من فراخها .

وما روته عن ولدها باعجاب كان مدعاة لعظيم الدهشة . فقد قالت عنـــه انه يحب ارضاءها، وانه كثيراً ما سعى على شاطىء النهر، عاري الساقين، طوال اميال حتى يعود اليها ببيض دجاج الماء او البط البري الضائع في الرتم... وانه كذلك ينصب المصالي

للصيد... وانه ذات ليلة عثر في الغاب على انثى تدرج وقعت عنقها في الشرك...

وانا الذي ما كنت لاجرؤ على دخول البيت اذا ما تبينت لطخاً على قميصي، كنت انظر الى « ميليا » بدهش .

على ان والدتي كانت قد انصرفت عن الاصغاء، بل انها اومأت الى السيدة بأن تصمت . فوضعت « عشها » على الطاولة بعناية ونهضت بسكون كمن يريد ان يفجأ احداً . . . ذلك ان في الطبقة التي تعلونا ، من البيت ، حيث تراكمت بقايا الشعل السوداء من زينة الرابع عشر من تموز الاخير ، وقع خطى مجهولة ، ثابتة ، تروح وتجي فيرجّ لها السقف، وتجتاز سقائف الدور الاول الرحبة المظلمة حتى تنتهي الى الغرف الملاصقة المهجورة ، حيث يوضع الزيزفون حتى يتم جفافه والتفاح حتى يكتمل نضجه .

وهمست امي :

«سمعت منذ لحظة حركة في الغرف السفلى، فحسبت انك انت يا « فرانسوا » عائد الى المنزل . . .

فلم يحر احد منا جواباً . ولبثنا نحن الثلاثة وقوفاً خافقي الصدر . وحين فتح باب السقفية المفضي الى سلم المطبخ انحدر شخص على الدرج واجتاز المطبخ وانتصب عند مدخل غرفة الطعام المظلم .

فقالت السيدة : « اهذا انت يا « اغوسطين » ؟

هو فتى يناهز السابع عشر ربيعاً . لم ارَ فيه باديء ذي بدء، في هبوط الليل، الا قبعة لبد قروية اردفها مؤخر رأسه، وقميصه السوداء التي يستدير حولها نطاق، على نحو ما يلبس التلاميذ . وتميزت أيضاً انه يبتسم...

ابصرني، وقبل ان يتمكن احدنا من ان يستعلمه شيئاً، قال لي :

اتأتي الى الساحة ؟

فترددت هنيهة . ولما رأيت ان « ميليا » لا تستوقفني، امسكت بقبعتي واتجهت اليه . فخرجنا من باب المطبخ وانتحينا الملعب المسقوف وكانت العتمة قد بدأت تنتشر فيه . ورحت على

ضوء النهار المنتهي، اتبين فيما امشي بروز قسماته واستواء انفه وخط الزغب فوق شفته .

قال : «هاك ما وجدت فوق السقيفة . اما تسنى لك ان تبحث فيها يا صاح ؟ »

وكان يمسك في يده اطاراً صغيراً من الخشب مسحه السواد، أثبتت حوله فتائل ممزقة لاسهم نارية : لعلها ما يمثل الشمس او القمر في شعلة الرابع عشر من تموز .

واردف بلهجة المطمئن الآمل ان يجد افضل من هذا فيما بعد :

— هناك شعيلتان غير منطلقتين بعد، وسنلهبهما .

ورمى قبعته ارضاً . فرأيت انه حليق الرأس كالقروي . ودلني على الشعيلتين ورأس فتيلتي الورق فيهما اللتين قطعهما اللهب وسوّدهما وتجاوزهما . ثم اثبت محور الاطار في الرمل واخرج من جيبه ما اصابني منه عظيم الدهشة لانه محظور علينا — علبة ثقاب . وانحنى بحذر واشعل الفتيلة . ثم امسك بيدي وشدني بعنف الى الوراء .

وبدت امي من الباب مع والدة «مولن» بعد ان تداولتا في

امر الراتب المدرسي وتوافقنا عليه . فشاهدت تحت سقف الملعب دفقتين من النجوم الحمراء والبيضاء تتصببان وتفحان فحيح المنفخ. واستطاعت ان تلمحني خلال ثانية، منتصباً في الضياء السحري ، ممسكاً بيد الفتى الكبير ضيفنا الجديد، دون حراك ولم تجرؤ هذه المرة ايضاً ان تقول شيئاً...

وفي المساء، عند العشاء، كان على مائدة الاسرة رفيق صامت، يأكل منحني الرأس ، غير آبه لانظارنا الثلاثة الشاخصة اليه .

٢

لم اكن قط حتى اليوم طفت الشوارع مع صبية القرية . فثمة وراك عانيته حتى حوالي هـذه السنة ،،، ١٨٩ جعلني رعديداً بائساً . وما زلت اراني اتبع التلامـذة الرشقاء في الازقة المحيطة بالمنزل ارقص بمسكنة على ساق واحدة .

لم يكن يسمح لي قط بالخروج، واذكر ان « ميليا » ، وكانت شديدة الاعتزاز بي ، كثيراً ما قسرتني بصفعاتها لاعود الى البيت كلما التقتني أقزل مع رعاع الضيعة .

واتفق ان « اغوسطين مولن» وصل حين تم لي الشفاء، فكانت فاتحة حياة جديدة .

كنت قبـــل مجيئه اذ تنتهي الدروس عند الساعة الرابعة، ادخل في امسية طويلة من العزلة، وينقل ابي نار المدفأة من غرفة الدرس الى مدخنة المائدة، ورويداً رويداً يترك المدرسة الاولاد المتخلفون فيعاودها الصقيع حيث كانت تلتف اعاصير الدخان، وفيما يكون بعض الصبية ما يزالون يتقافزون في الساحة يهبط الليـــل، ويتناول التلميذان اللذان كنسا المدرسة قلنسوتيهما ومعطفيهما تحت سقيفة الملعب، ثم ينصرفان بعجلة وفي مرفق كليهما سلة، ويتركان الرتاج مفتوحاً...

وكنت، ما التمع ضياء النهار، البث في اسفل «المختارية» محتبساً في قاعة الوثائق الملأى بالذباب الميت وبالاعلانات المصطفقة في الهواء، واقرأ مقتعداً قباناً قديماً على مقربة من نافذة تشرف على الروضة.

وحين يعم الظـــلام، وتأخذ كلاب المزرعة المجاورة بالهرير، ويضيء زجاج مطبخنا الصغير، كنت اعتزم العودة الى البيت، وتكون امي قد شرعت في تحضير الطعام. فاصعد درجات ثلاثاً من سلم العلية، واجلس دون ما كلام، مستلقي الرأس عـــلى

قوائم الدرابزين الباردة، وانظر اليها تشعل نارها في المطبخ الضيق حيث يرتعش لعاب شمعة .

على ان كائناً جاء فانتزع مني لذائذ الولد الساكن . كائناً نفخ الشمعة التي تضيء لي وجه الامومة العذب الحاني على طعام المساء . كائناً اطفأ المشعل الذي كنا حوله اسرة سعيدة في الليل، حين يكون والدي قد اوثق علائق النوافذ الخشبية بالابواب المبلورة . وهذا الكائن انما هو «اغوسطين مولن» الذي سمّاه سائر التلاميذ فيما بعد «مولن الكبير» .

فحالما اصبح تلميذاً داخلياً عندنا، اي منذ اوائل كانون الاول، لم تعد المدرسة تقفر مساء بعد الساعة الرابعة، فعلى رغم البرد المتسرب من باب ذات مدفع، وصراخ الكناسين ودلائهم الملأى بالماء كنت تشاهد دائماً، في المدرسة بعد الدرس حوالي عشرين من التلاميذ الكبار من الحقول او القرية يحدقون بـ «مولن» . فتقوم مجادلات طويلة، ومشاحنات لا نهاية لها كنت انزلق فيها بحذر ولذة .

لم يكن «مولن» يتكلم قط . على انهم كانوا يتعاقبون على الكلام، في سبيل ارضائه، فيتوسط الجمع اكثرهم ثرثرة، ويروي

مستشهداً على التوالي بكل رفيق من رفقائه الذين يوافقونــــه بضجيج، احدى القصص الطويلة المستغربة التي يصغي اليها الباقون فاغري الافواه بينما يضحكون بهدوء . هـذا و «مولن» يقتعد الطاولة، تتأرجح ساقاه ويتأمل . وفي الاوقات المناسبة يشاركهم في الضحك لكن بسكون، كانه يحتفظ بقهقهاته لقصة افضل منها لا يعرفها سواه .

وعند هبوط الليل، عندما يقصر الشعاع المنبعث من زجاج المدرسة عن انارة ذلك الجمع المختلط، ينهض «مولن» فجأة ويجتاز الحلقة لجوجاً ويصيح :

— هيا بنا .

فيتبعه الجمع، ويسمع صياحهم في اعالي القرية، حتى يدلهمّ الليل...

قد يتفق لي الآن ان ارافقهم فاذهب بصحبة «مولن» الى ابواب الاسطبلات في الضواحي وقت احتلاب البقر... وندخل الى الحوانيت، فنسمع الحائك من عمق العتمة يقول، بين طرقتين من طرقات نوله :

ها هم الطلاب !

وكنا عادة، في ساعة العشاء، نلبث على مقربة من «الصف»، فنندلف الى مكان عند «دينو» صانع العربات وهو بيطار في وقت معاً. وكان حانوته عبارة عن نزل قديم تقوم فيه ابواب عظيمة ذات مصاريع مفتوحة ابداً. فيسمع من الشارع حريق منفخ الحدادة، وعلى ضياء اللهب، يتراءى في هذا المكان المائج بالعتمة والطنين، تارة بعض اهل الحقول وقد استوقفوا عجالهم لحديث خاطف، وطوراً تلميذ مثلنا يسند ظهره الى الباب وينظر صامتاً.

هنا ابتدأ كل شيء، قبل عيد الميلاد بثمانية ايام.

٣

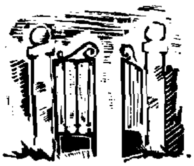

امطرت السماء طوال هذا اليوم وما صحا الجوّ الا في المساء، وانقضى النهار في سأم مميت، ولم يخرج احد في مواقيت التنزه، وكان ابي السيد « سوريل » يصيح في المدرسة كل دقيقة :

لا تضربوا الارض بالقباقيب، يا اولاد .

بعد نزهة النهار الاخيرة، او بعد ربع الساعة الاخير، على ما تعودنا ان نقول، توقف ابي الذي كان منذ هنيهة مستغرقاً في التفكير يذرع الارض طولاً وعرضاً، وضرب الطاولة بالمسطرة ضربة شديدة ليقف الدندنة المختلطة التي تسود ساعة الانصراف حيث يستحكم الضجر . وفي تنبه الصمت راح يسأل :

– من منكم يرافق «فرنسيس» غداً الى المحطة بالعربة لملاقاة السيد والسيدة شاربانتيه؟

وهما جدي وجدتي. جدي «شاربانتيه» صاحب الجبة الصوفية الرمادية الواسعة، ناطور الاحراش العجوز المتقاعد، الذي تعلو رأسه قلنسوة من صوف الارنب يسميها «القلبق»... يعرفه صغار الصبية كل المعرفة، اذ كان ينتشل في كل صباح دلو ماء ليغتسل، فيغمس يديه فيه على طريقة الجنود القدماء، ويفرك لحيته فركاً مبهماً. بينما حلقة من الاولاد المعقودي الايدي خلف ظهورهم يراقبونه بفضول واحتشام. وهم يعرفون جدتي ايضاً، تلك القروية الصغيرة ذات المعطف المسرّد لان والدتي كانت تحضرها في اليوم مرة على الاقل الى مدرسة الصغار.

وكنا في كل سنة قبل حلول الميلاد ببضعة ايام نوافيهما الى المحطة في قطار الساعة الرابعة والدقيقتين. امّا هما فيكونان قبل ان يصلا الينا، قد اجتازا المقاطعة كلها حاملين الينا رزم الكستناء وانواع الزاد للعيد ملفوفة بالفوط. فما هما يلجان عتبة البيت متلفعين باسمين، وعلى شيء من الدهشة، حتى نغلق دونهما جميع الابواب، ويبدأ عندنا اسبوع فرح...

وكان من المفروض ان اصحب معي لقيادة العربة التي تعود بهما رفيقاً يتصف بالرزانة فلا يوقعنا في قناة، وبلين الجانب ايضاً لان الجد « شاربانتيه » لا يتورع عن التجديف بسهولة في حين ان جدتي ثرثارة .

وما القى السيد « سوريل » سؤاله حتى اجابته عشرة اصوات تصيح معاً :

« مولن » الكبير ! « مولن » الكبير !

لكن السيد « سوريل » تظاهر بانه لم يسمع .

فصاحوا عندئذ :

« فروفتان » !

وقال غيرهم :

« جاسمان دلوش » .

اما الصغير « ديروا » وقد اعتاد ان يذهب الى الحقل ممتطيا ظهر خنزيرته المتوثبة، فقد كان يصيح بصوت صارخ « انا ! انا ! ».

واكتفى «دوترامبلي» و« موشبوف » ان يرفعا اصبعيهما بحياء.

كنت اود لو وقع الاختيار على « مولن » اذن لاصبح هـذا السفر القصير في عربة يجرها حمار حدثاً ذا شأن، وتمنى ذلـك هو ايضاً لكنه تكلف الصمت والازدراء ، واقتعد التلامذة الكبار الطاولة مثله، في جلسة مقلوبة، وارسلوا الارجل على المقاعد، على نحو ما كنا نفعل في ساعات الراحة والانبساط . وراح « كوفان» ذو القميص المرقوعة المطوية حول منطقته، يطوق بذراعيه ركيزة الحديد التي تسند روافد سقف المدرسة وشرع يتسلقها لفرط ما هو مبتهج . على ان السيد « سوريل » خفف من حماس الجماعـة اذ قال :

مهلًا ! قد اخترت « موشبوف » .

ورجع كل الى مكانه صامتاً .

وفي الساعة الرابعة كنت و « مولن » وحيدين في الباحـــة الواسعة المجلدة، وقد خدد ارضها المطر، ننظر كلانا دون ان نتكلم، الى القرية اللماعة تجففها الرياح الطالعة . ومـا لبث « كوفان » ان خرج كاسيا قلنسوته وفي يده قطعة من الخـبز . وانسل بمحاذاة الجدران حتى وصل امـام باب صانع العربات وهو يرسل من

شفتيه صفيراً . ففتح « مولن » الرتاج، وناداه . وكنا نحن الثلاثة بعد هنيهة في اعماق الحانوت الدافئ الاحمر ، التي تجتـــازه فجأة عصفات ثلجية من الريح، « كوفان » وانا قرب الكور وارجلنـا الملتطخة بالوحل بين النشارة البيضاء ، و «مولن» صامت، ويداه في جيبيه مستلقي الظهر الى مصراع المدخل . وتمر من حـين الى آخر في الشارع امرأة من القرية ، محنيـة الرأس بسبب الريح ، راجعة من عند الجزار، فنرفع آنافنا لنرى من تكون .

ولا ينبس احد ببنت شفة . والحداد وخادمه، احدهما في نفخ النار والآخر في طرق الحديد يرسلان على الحائط ظلالاً كبيرة مفاجئة ... اني اتذكر هذا المساء على انه من اعظم امسيات حداثتي وما استشعرته فيه خليط من الفرح والقلق ... اذ كنت اخشى ان ينتزع مني رفيقي لذتي الحقيرة في الذهاب الى المحطـة بالعربة، مع اني كنت اتوقع منه، دون ان اتجرأ على الاعتراف بذلك لنفسي، مغامرة غريبة تقلب الامر رأساً على عقب .

كان شغل الحانوت الهادئ الرتيب، ينقطع من وقت الى آخر، بضع ثوان . تسقط يد الحداد بمطرقته عـــلى السندان بضربات صغيرة ثقيلة واضحة الرنة . ثم يدني من وزرته الجلدية قطعة الحديد

التي طرقها، وينظر اليها . ويرفع الرأس، ليقول لنا ، ودأبه ان يتنفس الصعداء :

— كيف حال الشباب ؟

ويبقى الخادم مرفوع اليد، قابضاً على سلسلة المنفخ ، ويضع قبضته اليسرى على وركه وينظر الينا ضاحكاً .

ثم يعود العمل الى سابق ضجيجه الهادر .

ورأينا من خلال الباب ذي المدفع ، « ميليا » تمر في الريح العاصفة متزمّلة بوشاح، مثقلة برزم صغيرة .

وسأل الحداد :

— هل يأتي السيد « شاربنتيه » قريباً ؟

فأجبته :

— سيحضر غداً مع جدتي، وسأذهب لملاقاتهما بالعربة في ميقات قطار الساعة الرابعة والدقيقتين .

— لعلها عربة « فرومنتان » ؟

فاجبت سريعاً :

– كلا بل عربة العم « مرتينوس » .

– آه ! ما احسبكم عائدين .

واخذ في الضحك مع خادمه .

وقال الخادم بتمهل :

– لو تهيأت لكم فرس « فرومنتان » لاستطعتم ان تلاقوهما الى « فيارزون » وهي على مسافة خمسة عشر ميلاً . ولتيسرت لكم العودة قبل ان يشدّ « مرتينوس » وثاق حماره .

وقال الآخر :

– انها في الحقيقة فرس تجري ! ...

– واحسب ان « فرومنتان » يعيرها بسهولة .

وانتهى الحديث عند هذا الحد . وعاد الحانوت كالسابق مكاناً يملأه الشرر والضجيج وانطوى كل على نفسه .

على انه لما حان وقت الانصراف ونهضت لاومئ ل « مولن » الكبير، فانه لم ينتبه لي ولم يفطن . فقد كان مستلقي الظهر الى الباب منحني الرأس، مستغرقاً على ما يبدو بما قيل . واذ رأيته

على هـــذه الصورة تائهاً في تأملاتــه، متطلعاً — وكأنه ينظر خلال اميال من الضباب — الى هؤلاء القوم الساكنين يعملون، ملت بالفكر بغتة الى هذه الصورة التي تمثل «روبنسون كروزوه» حيث يبدو المراهق الانكليزي قبـل رحلته البعيدة، «يتردد الى حانوت سلال» . . . ولشد ما عاودني هــذا الخاطر منذ ذلك الحين .

٤

في الساعة الثانية من نهار الغد، بدت مدرسة الصف العالي في وسط منظر الجليد، ناصعة كأنها القارب الصافي على الاوقيانوس . وما كنت لتشم فيها رائحة الربّ او الزيت المحروق كما هي الحال على مركب صيد، بل رائحة الرنك المشوي في المقلاة والصوف المشيّط من ثياب الذين عند دخولهم، ألحّوا في التقرب من المدفأة .

ووزعت علينا دفاتر المسابقات لاننا اقتربنا من نهاية السنة . وفيما كان السيد «سوريل» يخط على اللوح عملًا حسابياً، استتب سكوت غير مكتمل، تتخلله اصوات احاديث خافتة، وصرخات

صغيرة مختنقة، وجمل مبتورة، لا تلفظ الا كلماتها الاولى يفوه بها احد التلامذة تخويفاً لجاره :

– يا استاذ ! فلان قد...

كان السيد «سوريل» ينقل الارقام ويفكر بشيء آخر . يلتفت حيناً بعد حين، وينظر الى الجميع نظرة قاسية غائبة . فتنقطع تماماً تلك الغمغمة الخفية لحظة، لتعود بعدئذٍ، وتبدأ ناعمة كالمواء .

في غمرة هذه الجلبة اظل صامتاً وحدي، جالساً على طرف احدى طاولات صف الصغار قريباً من زجاج النافذة، فما هو الا ان اتطاول قليلاً حتى ارى الجنينة ، والجدول في الاسفل، ثم الحقول .

واقف من حين الى حين على مقدمة رجلي وانظر باضطراب صوب مزرعة «النجمة الجميلة» اذ كنت تبينت في بدء الدرس ان «مولن» لم يعد بعد نزهة الظهيرة . ولا ريب ان جاره على الطاولة قد تبين ذلك ايضاً . لكنه لم يقل بعد شيئاً لانها كه بالمسابقة . على انه حالما يرفع رأسه سيذيع الخبر في «الصف»

ولن يفوت احد التلامذة، كما هي العادة، ان يصيح بصوت جهوري الكلمات الاولى من الجملة :

– يا استاذ، ان « مولن »...

اعرف ان « مولن » قد ذهب، بل اشتبه بانه فرّ . لا ريب انه، بعد الغداء، قفز فوق الحائط الصغير وانسلّ عبر الحقول، مجتازاً الجدول عند اللوحة القديمة، حتى بلغ «النجمة الجميلة» وطلب الفرس ليذهب الى ملاقاة السيد والسيدة « شاربانتيه » . وهو الآن يشدها الى العربة .

« النجمة الجميلة » هناك، ما وراء الجدول، على منحدر السفح، مزرعة تختبىء صيفاً تحت الدردار والسنديان، واسيجة الاشجار الشائكة، وتقع على درب صغيرة تتصل بطريق المحطة من جهة وباحدى القرى من جهة ثانية . وهذا البناء الاقطاعي الذي تحدق به الجدران العالية المدعومة باعمدة ترسو قواعدها في الزبل، يغرق في شهر حزيران تحت الاوراق، فلا نسمع من المدرسة عند هبوط الليل الا دحرجة العجال وصياح رعاة البقر . لكنني ارى اليوم من الزجاج خلال الاشجار العارية، الحائط الرمادي العالي المحيط بالساحة، وباب المدخل، ثم بين مقاطع السياج، رقعة من الدرب

المكسوة ببياض الجليد، التي تسير بموازاة الجدول وتتصل بطريق المحطة .

ليس ما يتحرك حتى الآن في هذا المنظر الشتوي الصافي، ولم يتبدل فيه شيء قط . وهنا فرغ السيد « سوريل » من نقل العمل الحسابي الثاني . وكان من عادته ان يطرح علينا ثلاثة . لعمري لو شاءت المصادفة ان يكتفي اليوم باثنين... اذن لعاد فوراً الى منضدته وتنبه الى تغيب « مولن » ولأرسل في طلبه الى القرية طالبين سيتمكنان ولا ريب من الوقوع عليه قبل ان تقرن الفرس بالعربة...

ولما انتهى السيد « سرريل » من نقل العمل الثاني، استرخت ذراعه المتعبة هنيهة... ثم، ويا لشد ما انشرحت، عاد الى السطر واستأنف الكتابة قائلًا :

— اما هذا فما هو الا لعب اولاد !

... هناك خطان اسودان يجاوزان حائط « النجمة الجميلة »، وما احسبهما الا ساعدي عربة مرفوعين . وقد تواريا . اني واثق الآن، من انهم يهيئون هناك سفر « مولن » . هاك الفرس، يمر

رأسها وزورها بين ركيزتي المدخل ثم تقف . ذلك انهم يعملون ولا شك، على اثبات مقعد ثانٍ في مؤخرة العربة للمسافرين الذين يزعم «مولن» انه سيأتي بهما . واخيراً خرج الرجل من الساحة بتمهل، وتوارى لحظة وراء السياج، ثم مر بالتمهل نفسه، على طرف الدرب البيضاء البادية بين حاجزين من حواجز السور. وعرفت عندئذ ان هذا الشكل الاسود الممسك بالاعنة المستند باحدى مرفقيه الى جانب العربة، مسترخياً على الطريقة القروية، انما هو رفيقي «اغوسطين مولن» .

ما هي الا ثانية حتى توارى كل شيء وراء السياج . وثمة رجلان عند رتاج «النجمة الجميلة» وقفا ينظران الى العربة ذاهبة . وها هما يتداولان بحماس يتزايد . وصحت عزيمة احدهما على ان يضع يده على فمه بشكل بوق وينادي «مولن» وان يركض بضع خطوات في ناحيته على الدرب ... لكن «مولن» الذي ساق العربة متوئداً حتى وصل الى طريق المحطة المحجوبة عن الدرب الصغيرة، قد تحول فجأة عن تمهله ، فقد اثبت احدى رجليه على المقدمة وانتصب كأنه سائق مركبة رومانية، وراح يهز الاعنة بكلتا يديه ويطلق الفرس في جري عنيف حتى توارى بطرفة

عين في الوجه التالي من الطريق الصاعد . امـــا الرجل الذي كان ينادي على الدرب فقد استأنف الركض ، بينما انطلق الآخر عدواً عبر الحقول، ويبدو انه مقبل علينا .

وفي بضع دقائق وحين كان السيد «سوريل» ينصرف عن اللوح ويفرك يديه ليستبرئهما من بياض الطبشور ، كانت ثلاثة اصوات تصيح معاً من آخر الغرفة :

– يا استاذ ! لقد ذهب « مولن » .

بدا الرجل ذو القميص الزرقاء على الباب وفتحه بغتة على مصراعيه، وراح يسأل من تحت القبة بعد ان رفع قبعته :

– عفواً يا استاذ . هـــل فوضت الى هذا التلميذ ان يطلب العربة ليذهب الى « فيازرون » ويستقدم ابويك؟ لقد حامت بنا شبهات ! . . .

واجاب السيد «سوريل» .

– لعمري لا ! .

سادت المدرسة فوراً بلبلة مخيفة وتواثب الى الباب الثلاثة الجالسون عند المخرج الموجلون عادة بان يطاردوا الماعز والخنازير

التي تأتي لارتمام منابت الزهور الفضية، ويرشقوها بالحجارة . وعلت قرقعة قباقيبهم المصفحة بالحديد على بلاط المعهد ، وعقبها في الخارج، وقع غامض لحطام المتواثبة، تلوك رمل الباحة، وتنزلق عند منعطف الباب الصغير المنفتح على الطريق . وتراكم سائر التلاميذ على نوافذ الجنينة ، ومنهم من تسلق المناضد استزادة في الاستطلاع ...

على ان الاوان قد فات . وهرب « مولن » الكبير .

وقال لي السيد « سوريل » :

ـ لا بد من ذهابك على كل حال ، بصحبة « موشبوف » لان « مولن » يجهل طريق « فيارزون » وسيتوه عند المفارق ، ولن يصل في الوقت المناسب .

وعند عتبة المدرسة الصغيرة، مدت « ميليا » رأسها لتسأل :

ـ ما هذا ؟ ماذا حدث ؟

وشرع الناس يتجمعون في الازقة . على ان القروي لبث هنا، جامداً بادي الاصرار، وقبعته في يده، كرجل يلتمس العدل.

٥

بعد ان قدمت بجدّي من المحطة، وجلسنا بعد العشاء امام الموقد الكبير، وشرعا يسردان دقائق التفاصيل عن كل ما جرى لهما منذ العطلة الماضية، لم البث ان شعرت باني غير مصغٍ الى ما يقولان .

كان باب الساحة الحديدي الصغير شديد القرب من باب غرفة المائدة ويسمع له صرير عند الانفتاح . وكان من عادتي في الهزيع الاول من الليل خلال سهراتنا الريفية ان اترصد سرّاً هـذا الصرير، الذي تعقبه جلبة القباقيب مطقطقة او متمسحة عـلى المدخل، او وشوشة جماعة وكأنهم يتباحثون قبل ان يدخلوا،

ثم يقرع الباب، فهو اما جار، واما المعلمات، واما احد الناس يجيئنا للتسلية في العشايا الطوال .

وما كان لي ان ارتجي اطلالة احد من الخارج هذا المساء لان جميع من احب مجتمعون في منزلنا، على اني ما برحت اجتسّ كل حركات الليل، واتوقع ان يفتح الباب...

فهنا جدي الشيخ، بسيمائه الكثيثة، سيماء الراعي الكبير المهذار، تربض رجلاه الضخمتان امامه، وعصاه بين ساقيه، ويميل بكتفه ليدقّ غليونه عـــلى حذائه . ويوافق بعينيه البليلتين الانيستين على ما تحدث جدتي عن سفرها، وفراخها، وجيرانها، والقرويين الذين لم يدفعوا بعد كراء الارض . لكنني لم اكن حاضراً...

كنت اتخيل دحرجة العربة التي قد تقف امام الباب بغتة، فيقفز منها «مولن» ويدخل كأن شيئاً لم يحدث... بل لعله يذهب اولاً الى «النجمة الجميلة» ليعيد الفرس . ثم لا البث ان اسمع خطاه ترن على الطريق وينفتح الباب .

لكن اين نحن من كل هذا . فجدي يحدق مطرقاً وجفناه

ينطبقان فيما يرفرفان ويقفان طويلاً على عينيه شأنهما عند ما يرنقان للكرى، وجدتي تردد مرتبكة جملتها الاخيرة فلا يصغي اليها احد. الى ان قالت :

– امن اجل هذا الفتى انت قلق ؟

والواقع انني كنت قد سألتها عنه، على غير طائل، في المحطة، فهي لم ترَ عند موقف « فيارزون » من هو شبيه به . فلا ريب ان صاحبي قد تأخر في الطريق وباءت محاولته بالفشل . وفي عودتي بالعربة كنت اتأمل في خيبتي بينما جـــدتي تتحدث الى « موشبوف » . هذا والعصافير، على الطريق المكسوة بالجليــد الابيض، تستدير حلقات حول قوائم الحمار الخابّ . وفي عميق سكون الامسية الباردة، يتصاعد من حين الى حين نداء بعيد، ترسله راعية، او فتى ينادي فتى غيره من غابة سرو الى غابة اخرى. وهذا النداء المستطيل، يهزني كل مرة، كما لو انه صوت « مولن » يدعوني الى اللحاق به بعيداً...

وفيما كنت استعرض كل ذلك في خاطري آذنت ساعة الرقاد . وكان جدي قد دخل الى الردهة الحمراء، ردهة الاستقبال، الملأى بالصقيع والرطوبة من طول ما هي مقفلة في الشتاء الماضي . وقد

أعدت له، فنزعت الطنافس المطرزة عن مقاعدها، ورفعت منها البسط ووضعت في جوانبها الآنية السريعة العطب . اما هو فقد القى عصاه على كرسي، وحذائيه الكبيرين على مقعد كبير، ثم اطفأ الشمعة . وكنا واقفين نتبادل تحية المساء، على اهبة الافتراق، عندما اسكتتنا جلبة عربات .

وتراءى لنا ان هناك موكبين متلاحقين في خبب بطيء . ثم تمهلت الخطى وتوقفت تحت نافذة المائدة المشرفة على الطريق، وكان ابي قد امسك بالقنديل، وفتح الباب وكان قد أُقفل، ثم دفع الباب الحديدي، وتقدم على طرف الادراج . ورفع الضوء فوق رأسه ليتبين ما حدث .

وبدت هنا عربتان واقفتين، قد اوثق حصان احديهما، وراء الاخرى . وقفز رجل وتردد . . .

ثم قال وهو يقترب – هل المختارية هنا ؟ اتدلوني على السيد «فرومنتان» المزارع في «النجمة الجميلة» ؟ لقد وجدت عربته وفرسه جاريتين ولا سائق، على الدرب بالقرب من طريق «سان لوديبوا» . وتمكنت على ضوء فانوسي من ان اتبين اسمه

وعنوانه على اللوحة . وبما اني متجه الى هذه الناحية فقد جئت بهما تجنباً للحوادث، على كون هذا الامر قد عاقني كثيراً .

ولبثنا مشدوهين . فدنا والدي واستضاء بالقنديل ليرى العربة . وتابع الرجل يقول :

– لم اجد اثراً لمسافر، حتى اني لم ارَ اي دثار، اما الفرس فهي جد متعبة وتعرج قليلاً .

وتقدمت حتى الصف الاول، ورحت انظر مع الاخرين الى هذا الشيء التائه، الراجع الينا كالحطام . يقذفه البحر الهائج — ولعله الحطام الاول والاخير من مغامرة « مولن » .

وقال الرجل :

اذا كان بيت « فرومنتان » بعيداً فاني تارك لكم العربة . لقد اضعت كثيراً من الوقت ولا بد ان يكون اهلي على قلق .

فارتضى والدي هذا الحل الذي يسهل علينا معه ارجاع العربة الى «النجمة الجميلة» دون ان نذيع ما حدث، على ان نرى فيما بعد ما يصح ان نقول لاهل الجوار وما يحسن ان نكتب لوالدة « مولن » ...

وساط الرجل فرسه وقد اعرض عن قدح الخمر الذي عرض عليه .

وفيما نحن عائدون صامتين، وابي يقود العربة الى المزرعة ، اشعل جدّي شمعته وصاح من عمق غرفته :

– ماذا ؟ اتراه رجع هذا المسافر ؟

وتبادلت المرأتان النظرات لحظةً ثم اجابتاه :

– نعم رجع بعد ان زار والدته . نم ولا تقلق .

فقال :

– حسن ! هذا ما توقعت ان يكون .

واطمأن الى هذا القول، فاطفأ النور واستدار في سريره لينام . وهو القول نفسه الذي بثثناه في القرية . اما والدة الفارّ، فقـــد رأينا ان نتريث قبل ان نكتب اليها شيئاً . واحتفظنا وحدنا بقلقنا الذي استمر ثلاثـــة ايام طوالاً . وما زلت اتمثل والدي عائداً من المزرعة عند الساعة الحادية عشرة مبتل الشاربين من رطوبة الليل، فيدخل مع « ميليا »، همساً، في جدل مضطرب عنيف . . .

٦

وفي اليوم الرابع بلغ القرّ اشده . وكان المبكرون من التلامذة يتزحلقون حول البئر التماساً للدفء . وينتظرون ان توقد المدفأة في المدرسة ليتواثبوا اليها .

كنا نفراً وراء الرتاج نترصد وصول فتيان الحقول، فيقبلون وما تزال على سيماهم امائر الدهشة مما رأوا في طريقهم من مناظر الجليد والمستنقعات المتجمدة، والادغـــال التي تتنافر منها الارانب... وتنبعث من ثيابهم رائحة التبن والاسطبل، فتثقل جو المدرسة عندما يزدحمون حول المدفأة الحمراء .

كان احدهم يحمل في هذا الصباح سلة فيها سنجاب مجلد عثر

عليه في الطريق، واذكر انه حاول ان يعلق هذا الحيوان المستطيل المتقلص باظافره في احـــد اعمدة السقيفة... ثم يبدأ الدرس مثقلاً بجو الشتاء .

وفاجأتنا قرعة على الزجاج انتصبت لها الرؤوس. فاذا «مولن» الكبير ماثل امام الباب، ينفض ما علق من الثلج على ردائه، شامخ الرأس وكأنه في ذهول !

وتواثب التلميذان القريبان من الباب ليفتحاه . وحدثت عند المدخل مشاورة مبهمة لم نتبينها ثم عزم الفارّ على الدخول .

تلك النفحة الباردة التي انسلت من الباحة المقفرة، والنثار العالق من التبن على ثياب « مولن » الكبير ، ولاسيا ملامـــح المسافر التعب الجائع، على كونه بادي الاعجاب بنفسه ، كل ذلك غمرنا بشعور غريب من اللذة والفضول .

ونزل السيد « سوريل » عن منصته ذات الدرجتين من حيث كان يلقي علينا فرض الاملاء، بينما سعى اليه «مولن» بقدم ثابتة. ولشدّ ما وجدته جميلاً في تلك اللحظة ، ذلك الرفيق الكبير،

على ما في سيمائه من الضنك، وفي عينيه الحمراوين من الاعتكار من جراء الليالي التي قضاها، ولا ريب، في الفلاة .

وتقدم حتى المنصة، وقال بلهجة المطمئن الواثق، بانه ينقل خبراً من الاخبار :

– لقد عدت يا استاذ .

واجابه السيد «سوريل» فيما يتأمله باستغراب :

– ارى ذلك جيداً، اذهب واجلس مكانك .

وانثنى الفتى نحونا، منحني الظهر قليلاً، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، هي ابتسامة التلامذة الكبار المتمردين، ساعة ينزل بهم القصاص. فاستلقى على الطاولة باحدى يديه وانزلق على مقعده .

وقال الاستاذ :

– ستأخذ كتاباً اعينه لك الآن . بينما يتابع رفقاؤك فرض الاملاء .

واستدارت الرؤوس جميعها حول «مولن» .

ثم استؤنف الدرس كمعتاده. وكان «مولن» يتلفت ناحيتي من

حين الى حين ثم يتطلع من خلال النوافذ، المطلة عـــلى الروض الابيض المقطّن الساكن، وعـلى الحقول القفراء، حيث يهبط احياناً غراب اسود . وكانت الحرارة ثقيـلة الوطأة في المدرسة قرب المدفأة المحمرة . والقى رفيقي رأسه بين يديه ومرفقيه على الطاولة ليقرأ . ورأيته مرتين تنطبق اجفانه فخلت انـه يوشك ان ينام .

وما عتم ان رفع ساعده المتثاقلة وقال :

— اود لو اذهب الى الرقاد، يا استاذ، لقد مرت بي ثلاث ليالٍ ولم انم .

فاجابه السيد «سوريل»، وكأنه يرغب في تحاشي الحوادث :

— سِرْ .

واذا بالرؤوس ترتفع جميعاً، وبالاقلام تنتصب في الهـواء جميعاً، وننظر اليه بأسف ذاهباً بسترته المتجعدة عـلى ظهره، وبحذائيه الموحلين .

ولشد ما تباطأ هـذا الصباح ! فلما حانت الظهيرة سمعنا في الغرفة فوق، ما تبيّنا معه ان المسافر يتهيأ للنزول . ورأيته ساعة

الغداء جالساً امام النار قرب جديّ المذهولين ، بينما كانت الساعة تدق دقائقها الاثنتي عشرة وينسل التلامذة المنتشرون في الساحة المثلوجة، عابرين كالاخيلة امام باب المائدة .

ولا اتذكر من هذه الجلسة للطعام غير صمت وارتباك عظيمين. فكل ما هنالك قريركالجليد: المشمع ولا غطاء يستره، والنبيذ البارد في الاقداح، والبلاط الوردي الذي نطأ ... وكنا قد توافقنا على ألا نكاشف الرفيق الفارّ بشيء كيلا يثور . وافاد من هذه الهدنة فلم يفه بكلمة .

وما انتهينا من الطعام حتى وثبنا كلانا الى الباحة . ومـــا ادراك ما باحة المدرسة بعد الظهر وقـــد انتزعت القباقيب ثلجها ... باحة قاتمة ينضح الجليد الذائب من سقف ملعبها ... باحة تضج بالالعاب والصراخ الثاقب الحاد !

ركضت و « مولن » في محاذاة المباني، واذا بنفر من رفقائنا يتركون اللعب ويتهافتون نحونا صائحين فرحين ، والوحول تتناثر تحت نعالهم، ويتقدمون متستري الايدي في الجيوب ، وملافع رؤوسهم منتشرة متطايرة . بيد ان صاحبي وثب الى قاعة الصف

الكبرى فتبعته واقفل الباب في اللحظة الملائمة ليحول دون هجوم المهاجمين . وحدث عندئذٍ قصف عنيف من هزهزة الزجاج وفرقعة القباقيب عند المدخل . ودفع الباب دفعة قد التوى من ضغطها قضيب الحديد المثبت وراء المصراعين . على ان « مولن » لم يبال ان تجرح يده في حلقة المفتاح المنحطمة ، فلواه في قفل الباب .

وكنا نرى في هذا المسلك ازعاجاً كبيراً . لقد كان الاولاد الذين يُتركون عند الباب على هذه الصورة، في الصيف، يجتازون الحديقة عدواً ويتسلقون احدى النوافذ قبل ان تقفل جميعها . لكننا الآن في كانون الاول وكل شيء مقفل. فدُفع الباب دفعات شديدة وانهالت علينا الشتائم . ثم انثنوا واحداً اثر واحد وانصرفوا خافضي الرؤوس وهم يثبتون الملافع التي انزاحت عن الجباه . وفي هذه الغرفة حيث سطعت رائحة الخمر والكستناء ، لم نجد غير كناسين ينقلان المناضد . فدنوت من المدفأة متثاقلا اصطلي ريثما يحين موعد الدخول ، بينما راح « اغوسطين مولن » يبحث في مكتب الاستاذ وفي الادراج . وما لبث ان عثر على مجموعة خرائط جغرافية فانكب على تصفحها بلذة وانعام .

وكان واقفاً علـــى الدكة مستلقياً بمرفقيه على الطاولة ورأسه في كلتا يديه .

وتهيأت لاقترب منه . ولو فعلت لوضعت يدي على كتفه وتتبعنا معاً، على الخارطة، الطريق التي سلكها في سفره . لكن الباب المتصل بالمدرسة الصغيرة فتح فجأة على مصراعيه بفعـــل ضغطة عنيفة . وبدا « جسمان دلوش » فجأة يصيح صيحـة النصر، يتبعه فتى من القرية وثلاثة صبية من المزارع . ولا شك ان نافذة المدرسة الصغيرة لم تكن محكمة الاقفـال فدفعوها وقفزوا من هناك .

ان « جسمان دلوش » هو، على صغر سنه، من اكبر تلامذة الصف العالي، وهو شديد الحسد من « مولن » الكبير ولو تظاهر بصداقته . لقد كان ديك المدرسة قبل وصول هذا . وانك لتراه اصفر الوجه على غير رواء، دهين الشعر بالمعاجين . ولكونه وحيد امه الارملة، وهي صاحبة نزل، فقد جعـل من نفسه رجلاً، يردد بازدهاء وكبر ما يسمع من كلام لاعبي البليار وشاربي الفرموت .

وما دخل حتى رفع « مولن » رأسه وعقد حاجبيه صائحاً بوجـه هؤلاء الفتيان المتواثبين المتدافعين على المدفأة :

ـ الا مجال لدقيقة من السكوت هنا !

فاجابه «جسمان» دون ان يرفع رأسه، بلهجة العارف انه كثير برفقائه :

ـ كان عليك، اذا كنت غير مرتاح الى هذا، ان تبقى حيث كنت .

ما احسب «مولن» الا في هذه الحالة من التعب التي يصعد فيها الغضب ويفجئك ولا حيلة لك في حبسه . فقد اغلق كتابه وانتصب، قليل الشحوب صائحاً :

ـ اما انت فعليك بالخروج من هنا اولاً !

وتهكم الآخر :

ـ امن اجل انك بقيت فارّاً ثلاثة ايام، تحسب انك السيد هنا الآن ؟

واستطرد يُشرك الآخرين في النزاع :

ـ وما انت من يخرجنا من هنا، اعلمت ؟

لكن «مولن» كان قد اصبح فوقه ، بعد ان اصطرعا .

وتفرقعت اكمام القميص وتفتقت. فلم يعترض دونهما الا «مرتينوس» وهو فتى غض من المزارع كان في جملة من دخلوا بصحبة «جسمان» فقد انتفخ منخراه وصاح وهو يهز رأسه كتيس المعز :

ــ اليك عنه !

وبدفعة شديدة طرحه «مولن» فراح متمايحاً، مفتوح الذراعين وانطرح في وسط المدرسة . ثم قبض «مولن» باحدى يديه على رقبة «جسمان» وفتح الباب بالاخرى وحاول ان يطرحه خارجاً . وكان «جسمان» يتشبّث بالطاولات ويجرّ رجليه على البلاط فيصرّ حذاءاه المشدودان بالحديد، في حين كان «مرتينوس»، وقد استعاد توازنه، يعود بخطى ثابتة، ناتئ الرأس هائجاً . وانصرف «مولن» عن «جسمان» ليأخذ هذا الابله بعنقه . وكاد يترجرج موقفه، حين تثاءب الباب قليلاً، وبدا السيد «سوريل» مائل الرأس صوب المطبخ، لينهي حديثاً له مع احد الناس قبل ان يدخل .

وتوقف العراك فوراً . واصطف الذين لم يتحزبوا، حول المدفأة، خافضي الجباه. واستوى «مولن» في مكانه مفتق الاكمام مجعّدها . اما «جسمان» فقد كان منتفخ الاوداج . وفي خلال

الثواني التي سبقت ضربة المسطرة المؤذنة باستئناف الدرس سمعناه يصيح :

— لم يبقَ في مقدوره ان يتحمل شيئاً . وهو يتصنع الدهاء، العله قد خيل له اننا نجهل الى اين ذهب !

فاجاب « مولن » وكان الصمت قد اصبح عميقاً :

— يا لك من ابله ! انني اجهل ذلك ايضاً .

ثم رفع كتفيه، وامسك رأسه بيديه وانكب على درس امثولاته .

٧

كانت غرفتنا ، على مـا سبق وقلت ، مخدعاً كبيراً في اعلى المنزل ، هــذا المنزل الذي تتوافر النوافذ في حجره كافة الا في حجرتنا التي تضيئها – ولا ادري ما السبب – كوّة في اسفل السقف . وكان من المتعذر ان يقفل بابها اقفالاً محكماً لاحتكاكه بالحضيض . . . وكنا عندما نرقى اليها في المساء ، ونقي شمعتنا باليد مما يتهددهــا من مجاري الهواء المنبعثة من هذا البنـاء الرحب ، نحاول في كل مرة ان نغلق هذا الباب ، ونضطر في كل مرة ان نرجع عن هــذه المحاولة . فنستشعر طوال الليل حولنا صمت السقائف الثلاث المحيطة بنا يتخطاها حتى يشتمل علينا .

هنا كان تلاقينا «مولن» وانا عشية هذا اليوم من فصل الشتاء .

وبدورة يد نزعت كل ثيابي وركمتها على كرسي عند مقدمة السرير، بينما شرع رفيقي يتعرى منها ببطء دون ان يفوه بكلمة. وكنت قـــد جلست في سريري الحديدي ذي السترة الكتانية الموشاة برسوم العناقيد . ولبثت اراقبه من هناك . فكان تارة يقتعد سريره الوطيء العاري من الستر، وتارة ينهض ويذرع الارض جيئة وذهاباً وهو ينزع ثيابه . وكانت الشمعة التي وضعها على طاولة صغيرة من الخيزران المجدول ترسل على الحائط ظلها التائه المتمادي .

وعلى خلاف ما فعلت، راح يطوي ويصفّف ثيابه المدرسية بتأنٍ على كونه بادي الذهول والالم . وما زلت اراه يضع زناره الغليظ على كرسي، ويطوي على سند الكرسي مدرعته السوداء الشديدة التجاعيد الكثيرة الوسخ . وينتزع دثاراً ازرق يـــلي مدرعته، فيوليني ظهره منحنياً لينشره عند قدم سريره... عـلى انه عندما استوى وولاني وجهه رأيت انه يرتدي عوضاً عـــن الصدارة الصغيرة ذات الازرار النحاسية، وهي الزي المألوف

تحت الدثار، صدارة غريبة الطراز من الحرير كثيرة الانفتاح، يضمها من الاسفل صف متلازّ من الازرار اللؤلؤية الصغيرة .

انه لملبس ساحر في اناقته، جاء على غرار الملابس التي كان يرتديها الشبان الـــذين راقصوا جداتنا في حلقات السنة الالف والثامنئة والثلاثين .

اني اتذكر في هـــذه اللحظة ذلك التلميذ الكبير القروي الكشيف الرأس . وكان قد وضع قبعته بعناية على سائر ثيابه – ويا للشباب الغضّ على قسوة الملامح – وعاد يمشي في الغرفة ويفك ازرار هذه القطعة السرّية التي هي تتمة ثيابٍ غير ثيابه . وكانت الغرابة في ان تراه بذراعيه العاريتين، وسراويله المفرطة في القصر، وحذائيه الموحلين يضع يده على هذه الصدارة الخليقة بمركيز .

وما أن لمسها، حتى استفاق بغتة من حلمه، وادار رأسه نحوي ينظر اليّ بلحظ قلق . واخذتني رغبة في الضحك . فابتسم في الوقت نفسه واشرق محياه . فتجرأت وقلت بصوت خافت :

– قل لي ما هذا ؟ ومن اين اخذته ؟

على ان ابتسامته انطفأت للحال . وامرّ يده الضخمة مرتين على شعره الحليق . وكرَجُل لا يستطيع دفعاً لرغبة ملحة، عاد فجأة وارتدى قميصه فزرّها زرّاً شديداً ولبس مدرعته المتجعدة. ثم تردد لحظة فيما يجالسني النظرات... وانتهى به الامر الى ان يستلقي على طرف سريره، وينزع حذائيه فيسقطان بضجيج . وكجندي في مركز النذير تمدد على سريره بكامل ملابسه، واطفأ الشمعة .

واستيقظت فجأة عند منتصف الليل . فاذا «مولن» يتوسط الغرفة منتصباً، وقبعته على رأسه يبحث في مشجب الثياب عن شيء — ولعله معطف القاه على ظهره... فالغرفة كانت شديدة الحلك، حتى انها لا تضيئها بارقة مما ينبعث من انعكاس الثلج احياناً . وثمة ريح ثلجية سوداء تنفخ في الروض المائت وفوق السقف .

فاستويت قليلاً وهتفت به هامساً :

— «مولن» ! لعلك تذهب ثانية ؟

فلم يجب . فقلت شديد الذعر :

واذن ! اني ذاهب معك . عليك ان تصحبني .

وقفزت الى الارض .

فدنا مني وامسك بذراعي ليكرهني على الجلوس عند حافة السرير ثم قال :

— لا استطيع ان اصحبك معي يا «فرنسيس» . ولو كنت اعرف طريقي لصحبتك . عليّ اولا ان اتعرف اليها على الخريطة، ولم يتيسر لي ذلك بعد .

— امعنى ذلك انك لا تستطيع ان تذهب انت ايضاً .

فقال مستسلماً :

— الامر كما قلت، ولا فائدة من الذهاب... هيا بنا الى النوم، واني اعدك الا اذهب بمعزل عنك .

ثم راح يذرع الغرفة طولاً وعرضاً . وحاذرت ان اضيف شيئاً الى ما قلت، وهو يمشي فيقف، ثم يسرع، كمن يبحث في رأسه عن تذكارات ويستعرضها، فيقابل بينها ويقارن، ويحسب ويحصي وفجأة يظن انه وجد . ثم يفلت الخيط ويعود الى البحث.

وما كانت هذه الليلة الوحيدة التي استيقظ فيها على وقـــع

خطاه، فاجده حوالي الساعة الواحدة صباحاً، على هذه الحال، يتمشى عبر الغرفة والسقائف - شأن اولئك الملاحين الذين ما استطاعوا سبيلاً الى الانعتاق من عادة النهوض ليلاً للرصد والخفر، فتراهم في اعماق مزارعهم البريتانية، ينهضون ويرتدون ملابسهم في الساعة النظامية ليراقبوا الليل فوق القارة الارضية .

وحدث لي مرتين او ثلاث مرات في خلال شهر كانون الثاني والنصف الاول من شباط ان انتزعت من رقادي على هـــذه الصورة . فاذا «مولن» هناك منتصب كامل العدة، وعلى ظهره معطفه كأنه عـــلى اهبة الرحيل، لكنه يقف ويتردد كلما شارف بالفكر تخوم هذا البلد الغامض الذي سبق له ان فر اليه . وحين يشرع في دفع مزلاج باب السلم لينسلّ من باب المطبخ، الذي يسهل عليه فتحه دون ان يسمعه احد، يتراجع مرة اخرى... ثم يروح في خلال ساعات نصف الليل الطوال يذرع السقائف المهجورة متأملاً محموماً .

وفي احدى الليالي، حوالي منتصف شباط، ايقظني هو نفسه بان وضع يده برفق على كتفي .

وسبق ان كان النهار شديد الهواجس . فانصرف «مولن»

عن كل العاب رفقائه القدماء وجلس على مقعده، في ابان نزهة العصر الاخيرة، مستغرقاً في وضع تصميم صغير خفي، متتبعاً باصبعه خريطة مقاطعة « الشير » . هذا وبين الباحة وغرفة الدرس ذهاب واياب لا ينقطعان وطقطقة قباقيب . وتلامذة يتلاحقون من طاولة الى طاولة مجتازين المقاعد والدكة بقفزة واحدة... وكان من المعروف ان الاقتراب من « مولن » حال انشغاله ليس بالامر المحمود . على ان النزهة تطاولت، فبدا لثلاثة من فتيان القرية ان يقتربوا بخطى وئيدة، على سبيل المزاح، ويتطلعوا من فوق كتفه، واجترأ احدهم فدفع الآخرين علـــى « مولن » ... فاغلق خريطته فجأة وخبأ ورقته، وقبض على المستأخر من الفتيان الثلاثة بينما هرب رفيقاه .

فاذا هو ذلك الشرس « جيرودا » الذي تشاكى وتباكى، وحاولت رجلاه بعض الرفسات، ولكن « مولن » طرحه خارجاً فصاح بوجهه شديد الغضب :

– « يا لك من جبان كبير ! لا عجب ان يكون جميعهم ضدك وان يعلنوك الحرب » !

واردف ذلك بسيل من الشتائم قابلناه بمثلها دون ان ندرك

مغزى كلامه . وكنت اشدهم صياحاً لاني تحزبت لـ « مولن » الكبير . فقد اصبح بين كلينا ميثاق، لانه وعدني بان ارافقه . ولم يقل لي ما طالما سمعته من غيره من «انني لا اقوى على السير». فربطني اليه باواصر لا تنفصم، وما انفككت افكر بهـــذا السفر السري . وايقنت انه لا بد ان يكون قد التقى فتاة هي ولا شك اجمل بنات البلاد، اجمل من « حنينه » التي نلمحها في بستان الراهبات من ثقب الباب . واجمل من « مادلين » ابنة الفران، الشقراء الضفائر، الوردية المحاسر، ومن « جاني » ابنـــة القصر، تلك الفتاة الرائعة الجمال على كونها حمقاء ومحتجبة ابداً. انه ولا ريب يفتكر طوال لياليه بفتاة احلامه كبطل من ابطال الاقاصيص . وكنت قد عزمت على مكاشفته بذلك، بشجاعة، حالما يوقظني اول مرة .

وفي مساء هذه المعركة الجديدة، بعد الساعة الرابعة، كنا منشغلين كلانا في لمّ ادوات البستنة والمعـــاول والمجارف التي استعملت لحفر الارض . واذا بصياح يعلو على الطريق . واذا بعصابة شبان وفتيان قد انتظموا في الصفوف اربعة اربعة، يقبلون بخطى متزنة وكأنهم كتيبة من الكتائب على اتم ترتيب، يقودهم

« دلوش » و « دانيال » و « جيرودا » وشخص آخر ما عرفناه . وكانوا قد رأونا، فتعرضوا لنا بالعياط الساخر . ويبدو ان القرية كلها تناوئنا وان هؤلاء يتهيئون للقيام بلعبة حربية لا نشترك فيها .

لم يفه « مولن » بكلمة ووضع تحت السقيفة معولاً ومحفراً كانا على كتفه .

بيد اني عند منتصف الليل شعرت بيده على ذراعي، فاستيقظت مذعوراً .

قال : « انهض لنذهب » .

— وهل تعرف الطريق حتى النهاية ؟

— اعرف شطراً لا بأس به . وعلينا ان نستدل على شطره الآخر .

قال هذا مشدود الفكين .

فاجبته بينما كنت استوي في الفراش :

— اسمع يا « مولن »، اصغ اليّ، ليس امامنا الا امر واحد،

هو ان نبحث نهـــاراً عن الشطر الذي نجهل، بالاستناد الى خريطتك .

– ولكن هذا الشطر بعيد جداً من هنا .

– واذن سنسير بالعربة، خلال هذا الصيف، عندما يطول النهار .

وساد صمت متمادٍ تبينت منه انه قد ارتاح الى ما اقترحت. ثم قلت :

– بما اننا سنسعى معاً الى العثور على الفتاة التي تحب، فقل لي من هي يا « مولن » . هات حديثاً عنها .

فجلس عند قدم سريري . وكنت ارى في الظل رأسه المنحني، وذراعيه المكتوفتين، وركبتيه . ثم استنشق الهواء بلهفة، كرجل ينطوي صدره على غصة اليمة منذ زمن بعيد، واوشك ان يستودع سره الدفين . . .

صدارة غريبة الطراز من الحرير كثيرة الانفتاح...
ملبس ساحر في اناقته (ص ٥١)

٨

لم يرو لي صديقي ، تلك الليلة ، كل ما حدث له في الطريق، ولما صحت عزيمته واسر الي بكل شيء، في خلال ايام الشدة التي ساتحدث عنها، فقد بقي هذا الامر زمنا طويلا سرّنا الاعظم في مطاوي ذكريات الصبى . اما اليوم وقـــد انقضى كل شيء، والان، اذ لم يبقَ الا الغبار من ذلك الالم كله، ومن ذلك النعيم كله فباستطاعتي ان اروي مغامرته العجيبة .

٭ ٭ ٭

في الساعة الواحدة والنصف ساعة من الظهيرة، كان « مولن » على طريق « فيارزون » يستحث الفرس على الجري السريع، في ذلك الجو الثلجي، مخافة ان يسبقه الوقت . ولم يكن يفكر في

بادئ الامر، تلهيةً لنفسه، الا بما كان يُعدّه من امر مفاجأته لنا، اذ يعود بجدي وجدتي في العربة عند الساعة الرابعة . والواقع انه لم يكن له في هذه الهنيهة مقصد غير هذا المقصد .

وتسرب الصقيع اليه شيئا فشيئا، فلف ساقيه بدثار كان جماعة «النجمة الجميلة» قد وضعوه بالرغم منه في العربة على كونه قد رفضه . واجتاز بلدة « لاموت » في الساعة الثانية . وما سبق له ان مرّ بهذه الاصقاع في ايام الدرس، فسره ان يرى هذه البقعة المقفرة الغافية، ونادرا ما كان يلمح، مسافة بعد مسافة، سجفاً ينزاح ليطلّ من ورائه رأس امرأة فضولية .

وعندما نفذ من « لاموت » تردد بين طريقين، وخيل اليه في ذاكرته انه يجب التحول شمالاً للوصول الى « فيارزون » . ولم يكن هناك من يستعمله . فساق الفرس خبباً في طريق ضيقة محددة وسار برهة بمحاذاة غابة صنوبر حتى التقى سائق عجلة فصاح به، ويده على فمه بشكل بوق – يسأله هل الطريق هذه طريق « فيارزون » . هذا والفرس تجذب الاعنة وتستمر في الجري الخبب . ويبدو ان الرجل لم يتفهم ما سئل، فَسُمِعت منه صرخة واومأ ايماءة مبهمة، وتابع « مولن » سيره على بركة القدر .

وانفرجت امامه الحقول الرحبة المجمدة، لا تعاريج فيها ولا ملهاة، اللهم الا طائر تنفره العربة احيانا فيطير مذعوراً ليقع بعيداً على شجرة دردار . ولف المسافر كتفيه بالدثار العريض . ولا ريب ان النوم رنق في عينيه هنيهات طويلة اذ كان ممدود الساقين، مترفقاً على جانب المركبة .

. . . وعندما لسعه البرد الذي خرق الغطاء، وثاب الى نفسه، تبين تبدلاً في المناظر . اذ غابت تلك الافاق البعيدة، وذلك الرقيع الابيض الرحب الذي تتيه فيه الابصار، وبدت له مروج ضيقة ما برحت خضراء، واسوار عالية . وعن اليمين والشمال مياه تنساب تحت الجليد . فاستشعر انه في جوار نهر، واصبحت الطريق بين الاسيجة دربا ضيقة منخفضة .

وانقطعت الفرس عن الخبب، فساطها ليحثها على الجري، لكنها استمرت على سيرها الوئيد . واستلقى بيديه على مقدمة المركبة وتطلع جانبا فرأى الدابة تعرج من احدى قائمتيها الخلفيتين . فقفز الى الارض شديد القلق وقال بصوت خفيض :

— «لن نصل قط الى «فيارزون» في ميقات القطار» .

وحاذر ان يعترف لنفسه بما يساوره من الهواجس الناشئة عن انه قد يكون ضلّ السبيل وانه على غير طريق « فيارزون » . وتفحص رجل الفرس طويلاً فلم يتبين فيها اثراً لجرح . وكانت تتذمّر كلما حاول ان يلمسها، وترفع ساقها، ثم تحك الارض بحافرها المتثاقلة . فادرك ان في حافرها حصاة وحسب . وكان خبيرا بمعالجة الماشية، فقعد القرفصاء وحاول ان يمسك بقائمتها اليمنى ليضعها بين ركبتيه . ولكن العربة عاقته عن العمل . وتملصت الفرس منه مرتين متواليتين وتقدمته بضع خطوات . فصدمت رأسه مرقاة العجلة وجرح الدولاب ركبته . ولكنه تصلب واصر وانتهى الى التغلب على الفرس الحرون . على ان الحصاة كانت من العمق بحيث انه اضطر الى المداورة عليها بسكينه القروية فاستخرجها .

وما فرغ من عمله ورفع رأسه وهو في شبه دوار، معتكر العينين، حتى رأى بذهول ان الليل قد ارخى سدوله . . .

لو وقع هذا لغير « مولن » ايا كان، لقفل راجعاً للحال، تفاديا من ان يلجّ في تيهانه . لكن النفس حدثته بانه اصبح الان بعيداً عن « لاموت » وان الفرس قد تكون جنحت في الطريق المعترض

اذ هو في اغفاءته، وان هذه الطريق لا بد مؤدية الى دسكرة من الدساكر . . . اضف الى هذه ان الفتى الكبير كان، وهو يرقى درجة العربة، والفرس اللجوج ينازعه الازمّة، يشعر برغبة صاخبة في ان يبلغ غاية من الغايات وان ينتهي الى مكان من الامكنة مهما اعترضته المصاعب !

فساط الفرس، فانحرفت شيئا ثم انطلقت تعدو . وتكاثف الحلك . ولم يبقَ الان في الطريق الضيق الخرب الا مسلك يتسع بالضبط لمرور العربة . وثمة غصن يابس في السياج يعلق في محور الدولاب فينقصف ويسمع له صوت جاف . . . ولما تكاملت عتمة الليل، تحول فكر « مولن » فجأة الى غرفة المائدة في « سانت اغات » حيث تمثّلنا مجتمعين في مثل هذه الساعة، فتصاعدت الى قلبه غصة ثم تملكه الغضب، فالكبرياء والفرح العميق بانه فرّ على هذه الصورة غير قاصد ولا متعمد .

٩

وفجأة تباطأت الفرس، فكأنها تعثرت بشيء في الظلام . ونظر «مولن» الى رأسها يغوص ثم يرتفع مرتين . ثم وقفت، ومنخراها الى اسفل كانها ترتشف . فحول قوائمها ماء هادر . انه جدول يقطع الطريق . ويبدو ان ثمة مجازا يصلح في فصل الصيف . ولكن التيار هو اليوم من العنف بحيث ان الجليد لم يتجمد وان الخطر كل الخطر في محاولة العبور .

فشدّ الاعنة برفق ليتراجع بضع خطوات . وانتصب في العربة قلقا . وتراءى له نور بين الغصون . فليس يفصله عن الطريق اذن، الا بعض المروج .

وترجـــل التلميذ وارجع الفرس الى الوراء فيما كان يكلمها تهدئة لروعها ولنطحاتها العنيفة المتذعرة :

– مهلا يا جميلتي مهلا . لم يبق امامنا الا اليسير . وسنعرف عما قريب اين نحن من المسير .

ودفع حاجزا نصف مغلق، وادخـــل العربة الى مرج صغير ينتهي الى الطريق . وغرقت رجلاه في الكلإ الناعم . وسارت المركبة تتهزز بصمت . وكان رأسه لصيق رأس الفرس فاستشعر حرارتهـا ونخير انفاسها العنيف . . . وقادها حتى آخر المرج ثم القى الغطاء على صهوتها وازاح اغصان السياج فبدا له النور مرة اخرى ينبثق من بيت معزول .

واقتضته الحال ان يجتـاز ثلاثة مروج ويجوز جدولا غادرا اوشك ان يغوص فيه بكلتا رجليه معا . . . ثم قفز قفزة اخيرة من اعلى منحدر فوجد نفسه في باحة بيت قروي فاذا خنزير يهمهم وينخر . وتنبه كلب لوقع الخطى على الارض المجمدة فراح ينبح نباحاً صاخباً .

وكان مصراع الباب مفتوحاً . اما الضياء الذي كان قد لمحه

« مولن » فانه منبعث من وقيد في المدخنة . ولم يكن هناك نور غير هـذا . ونهضت من البيت امرأة طيبة واقتربت من البـاب دون ما وجل . ودقت الساعة في هذه اللمحة دقة النصف بعد السابعة .

فبادرها الفتى الكبير :

— عفوا يا سيدتي اظن اني دست زهور الاقحوان .

وكانت واقفة تنظر الى القادم وفي يدها كأس فقالت :

— لا شك ان الظلام حالك في الباحة حتى لا يتبين المرء طريقه .

وساد الصمت كان « مولن » خلاله يجيل النظر في جدران الغرفة الموشاة بالجرائد المصورة على ما هو الحال في الفنادق، وفي طاولة رأى عليها قبعة رجل فقال اذ كان يهم بالجلوس :

— اما صاحب البيت هنا ؟

فاجابت وقد اطمأنت نفسها :

— بل سيعود قريبا . لقد ذهب ليأتينا بحزمة حطب .

وتابع فيما كان يدني كرسيه من النار :

– ليس اني بحاجة اليه . بل نحن هنـــا عدة صيادين نترصد الطرائد . وقد اتيتك التمس شيئا من الخبز .

وكان « مولن » يدرك ان عليه، في الريف، ولاسيما في مزرعة منعزلة، ان يعتمد الفطنة حتى والسياسة ايضا في حديثه او لا يظهر على الاخص انه غريب الديار .

فقالت له :

– الخبز؟ ولكننا لا نستطيع قط ان نجيبك الى طلبك . لان الخباز الذي يمر بنا كل ثلثاء لم يأتنا اليوم .

فارتعب « مولن » لانه كان يظن انه عـــلى مقربة احدى القرى . وسألها :

– وخباز اي بلد هو ؟

واجابته بدهشة :

– لعمري انه خباز « فيونانساي » .

– لا اعرف المسافة اليها على الطريق العام . وهي ثلاثـــة اميال ونصف الميل في اقرب المسالك .

وشرعت تروي ان ابنتها مستخدمة هناك، وتأتيها مشياً على الاقدام لتراها في الاحد الاول من كل شهر وان معلميها...

على ان « مولن » وقد ضعضعته الخيبة، قاطع المرأة ليقول :

— هل ان « فيونانساي » « اقرب الدساكر الى هنا » ?

— كلا بل اقربها الينا « ليلاند » وهي على مسافة خمسة اميال ولكن لا باعة فيها ولا فران . وجل ما هناك ان الناس يتوافدون اليها جماعات صغيرة مرة في السنة في عيد القديس « مرتينوس » .

لم يكن « مولن » قد سمع من قبل عن « ليلاند » واستشعر نفسه تائها الى حد انه كاد يجد في الامر تسلية وملهاة. على ان المرأة التي كانت مشغولة بغسل كاسها تلفتت وقد تملكها الفضول وقالت له بتمهل مركزة نظراتها عليه :

— العلك غريب الديار ?

وظهر، في هذه اللحظة، عند الباب قروي عجوز يتأبط حزمة الحطب القى بها على الارض وراحت المرأة تشرح له مطلب الشاب بصوت مرتفع كانها تتحدث الى اصم . فاجابها غير متصنع :

– ان الامر ليسير، اقترب يا سيدي، اراك لا تستدفئ .

وجلس الاثنان بعـــد هنيهة عند الموقد . فالشيخ يقصف الاعواد ويلقيها في النار، و« مولن » يأكل اللبن والخبز في صحفة قدمت له . وكان مسافرنا مأخوذاً بنشوة وجوده في هذا البيت الوضيع بعـــد ان عانى ما عانى من ضروب القلق . وحسب ان مغامرته الغريبة قد انتهت، فذهب بالفكر الى اليوم الـــذي سيعود فيه مصحوبا برفاقه الى هـذا المكان ليزور هؤلاء القوم الطيبين . ولم يكن يدري انها وقفة ليس الا وانه سيستأنف المسير عما قريب .

وما لبث ان طلب الى مضيفيه ان يوجهاه في طريق « لاموت » ورأى ان يرجع الى قول الحقيقة شيئا فشيئا، فروى لهما انه افترق بعربته عن سائر الصيادين . وانه الآن تائه ضال .

والحّ الرجل وزوجته ليستبقياه هذه الليلة على ان ينصرف عند مطلع الفجر، وطال الحاحهما فرضي وخرج ليقود فرسه الى الاصطبل .

وقال له الرجل :

– احذر اخاديد الدرب .

ولم يجرؤ « مولن » على الاعتراف بأنه لم يسلك في مجيئه سبيل الدرب واوشك ان يطلب الى الرجل الطيب ان يرافقه . فتردد لحظة عند المدخل، واستولت عليه الحيرة فكاد ان يترنح ثم خرج الى الباحة المظلمة .

١٠

ولكي يهتدي الى طريقه، تسلق المنحـــدر الذي كان قد قفز منه .

وسار، شأنه عند المجيء، بتمهل وصعوبة ، بين الاعشاب والمياه، من خلال اسيجة الصفصاف حتى انتهى الى آخر المرج ليعود بمركبته التي تركها هناك . ولكنه لم يجد للمركبة اثرا . . . فوقف بلا حراك متهزز الرأس، ينصت الى مختلف حركات الليل . حاسبا عند كل خفقة انه يسمع قريبا منه رنين قلادة الفرس ، ولكن لا شيء ... فدار حول المرج . فرأى الحاجز نصف مغلق ونصف منقلب كأن دولاب عربة قد مرّ فوقه . ولا ريب اذن ان الفرس قد فر من هنا وحده .

وصعد في الطريق، ولم يخط بضع خطوات حتى تعثر بجـلّ الفرس الذي انزلق ولا شك عن صهوته. فخلص الى الاعتقاد ان الدابة فرت في هذه الناحية، فطفق يركض.

واستحوذت عليه ارادة عنيدة جنونية في ان يدرك عجلته. فكنت تراه ودمه قد استجمع في وجهه فريسة لرغبة هائجة تشبه الخوف، ولبث يركض . . . وكانت رجله تصطدم احيانا بالاخاديد. ويرتمي عند المنعطفات، والظلام على اشده، على جدر الاسوار، اذ يحول فرط العيـــاء دون توقفه في الوقت الملائم، فينطرح على الاشواك مبسوط الساعدين ليقي وجهه فتتمزق يداه. وخال، لحظة، انه يسمع صوت عربة. ولكن ان هي الا عجلة صغيرة تتهزز بعيدا على طريقٍ صوب الشمال.

وحدث ان ركبته المجروحة آلمته الما شديدا فاضطرته الى التوقف متصلب الساق. ثم خطر له ان الفرس لو لم تكن قـــد انطلقت في عدو حثيث لادركها من زمن، وان العجلة لا بد ان يقع عليها احد الناس. فرجع على اعقابه واهي القوى حنقا، يتجرر بجهد وعناء.

وخيل اليه، بتمادي الوقت، انه اصبح في النواحي التي انطلق منها . ثم ابصر ضوء المنزل الذي يبحث عنه، فثمة درب عميقة تنفتح في الممر

وقال في نفسه :

ــ ها هي الدرب التي كلمتني عنها العجوز .

وانخرط في هـــذا الممر مرتاحا الى انه لن يجتاز الاسيجة والمنحدرات . على ان الدرب انحرف بعد حـــين الى الشمال ولاح الضوء منزلقا نحو اليمين . واذ وصل « مولن » الى مفترق طرق، وكان ملحاح الشوق الى بلوغ الكوخ الحقير ، سلك دون ما تبصر دربا بدا له انه منته مباشرة الى ذلك الكوخ . لكنه ما كاد يخطو عشر خطوات في هذه الناحية حتى اختفى الضوء ، إما لانحجابه وراء سياج ، او لان القرويين ، وقـــد سئما الانتظار، قـــد اغلقا نوافذ الدار . بيد ان التلميذ تذرع بالشجاعة وقفز خلال الحقل ومشى في الاتجاه الذي ائتلق منه النور منـــذ هنيهة . ثم اجتاز تصوينة اخرى واذا به امام درب جديد . . .

وهكذا اشتبكت المسالك امامه شيئا فشيئا وانحطمت الصلة التي تربطه بمن ترك .

ووهنت عزيمته وكادت تخونه قواه . فاعتزم في يأسه ان يتقصى هذا الدرب حتى النهاية . ونفذ بعد مائة خطوة الى حقل واسع اغبر، تراءت له فيه من بعيد اشباح لعلها شجيرات عرعر، وبناء مظلم في ثنية من الارض . فاقترب منه، واذا هو زريبة واسعة، او حظيرة مهجورة ودفع الباب فانفتح ناحبا . وكان ضياء القمر كلما طردت الريح السحب يمر من خلال صدوع الحواجز . وثمة رائحة عفن تملأ المكان .

وامسك « مولن » عن السعي والبحث واستلقى على التبن الرطب بمرفقه واسند رأسه الى يده . ثم نزع منطقته وانطوى على نفسه وتجمع في سترته وركبتاه بلصيق بطنه . وفكر عندئذ بجل ّ الفرس الذي تركه في الطريق . وشعر بفرط شقائه وبغضبه على نفسه فتملكته رغبة ملحة في البكاء .

بيد انه حاول ان يصرف فكره الى امر آخر . وكان مقروراً حتى مخ ّ عظامه . ثم تذكر حلما من احلامه، — بل رؤيا من رؤى

قصر مهجور او برج حمام مقفر (ص ٧٧)

طفولته لم يحدّث بها احدا قبل اليوم : فذات صباح عوضا عن ان يستفيق في غرفته حيث عُلقت سراويله وجلابيبه وجد نفسه في ردهة طويلة خضراء تتدلى فيها بسط كاوراق الشجر . وينساب فيها ضياء هو من العذوبة بحيث يخيل انه ممكن المذاق . وعند النافذة الاولى فتاة تخيط وقد ادارت ظهرها . كانها تنتظر ان يستفيق . . . ولم يكن يملك القوة لينزلق من سريره ويسير في ذلــــك المنزل المسحور . فعاد الى الاغفاء . . . لكنه اقسم ان ينهض في المرة القادمة . ولعله يفعل غدا . . .

١١

وعند انبثاق النهار استأنف المسير . ولكن ركبته المتورمة كانت تؤلمه . واضطر ان يتوقف ويستريح وقتا بعد آخر، لفرط ما به من الالم . والمكان الذي هو فيه اوحش بقعة في مقاطعة « سولونيا » فلم تقع عينه على احـد، طوال الصباح، باستثناء راعية بدت في الافق عائـــدة بقطيعها . وعبثا ناداها وحاول ان يركض، فتوارت دون ان تسمعه .

بيد انه تابع السير في ناحيتها ببطء ممض . . . وما في هـذه الاصقاع أنسيّ ولا كوخ، حتى ولا زقزقة عصفور في مقاصب المستنقعات . وعلى هذه العزلة التامة تضيء شمس كانون، صافية باردة .

وكانت الساعة تناهز الثالثة بعد الظهيرة، حينما لاحت له نبلة برج اغبر على مشارف الغاب .

وقال في نفسه :

– لعله قصر مهجور او برج حمام مقفر .

وتابع المسير غير مجدّ . وعند ركن الغاب نفـذ بين عمودين ابيضين الى ممر فسلكه . ومشى بضـــع خطوات ووقف شديد الذهول يعروه اضطراب غريب . لكنه استمر يمشي بالخطوة الوئيدة نفسها . تشقق الريح القارة شفتيه واحيانا تكاد تخنقه . بيد انه كان يستشعر هزة سرور لا تدركه، وطمأنينة تامة تكاد تكون مسكرة، ويقينا بانه انتهى الى غايته، ولم يبقَ في مرمى آماله غير السعادة . وهكذا كان يشعر بمثل هذا الخمود في امسيات الاعياد الكبيرة، حين كانوا ينصبون الصنوبر في شوارع القرية، عند هبوط الليل وتحجب الاغصان نافذة غرفته .

وقال في نفسه :

– اهذا الفيض من الفرح، لاني وصلت الى هذا البرج القديم الذي تتناوح فيه البوم والرياح !

ثم غضب من نفسه ووقف؛ وسأل نفسه ألا يحسن به ان يرجع على اعقابه ويتابع طريقه حتى القرية التاليـة . وفيما كان يتأمل، حاني الرأس، رأى ان الممر مكنوس دوائر منتظمة على غرار ما هو مألوف في بلده ابان الاعياد . واذا هو في طريق كأنها شارع «لافرتيه» الكبير، صباح عيد انتقال العذراء!.. بنوع انه لو رأى عند منعطف الممر حفلاً من المعيّدين يثيرون حولهم الغبار في شهر حزيران، لما زاد ذلك في دهشته .

وسأل نفسه :

– هل في هذه العزلة عيد من الاعياد ؟

وتقدم حتى اول منعطف، فسمع اصواتاً تقترب . فانتحى جانب الطريق وارتمى بين نصوب الصنوبر الكثيفة وجثا هناك ممسكا انفاسه . ولم تكُ الا اصوات ولدان . ومرت امامه جماعة صبية . وكان احدهم، ولعلها فتاة صغيرة، تتكلم بترصن وفهم، فلم يتمالك من الابتسام، وان لم يكن قد فهم معنى الحديث .

وكانت تقول :

– ان مسألة واحدة تقلقني، وهي مسألة الخيل . فما باستطاعة

احد، مثلاً، ان يمنع «دانيال» من ركوب فرس السبق الاصفر.

فاجابها فتى بلهجة اهزء:

– لن يمنعوني قط! اما رُخّص لنا بأن نصنع كل شيء؟.. وان نؤذي انفسنا، اذا راق لنا ذلك...

وتباعدت الاصوات في حين كانت تقترب جماعة اخرى من الفتيان.

وثمة فتاة تقول:

اذا ذاب الجليد، صباح الغد، سنسير في المركب.

وقالت اخرى:

– ولكن هل يؤذن لنا في ذلك؟

– انت تعلمين اننا نهيّء العيد على هوانا.

– واذا عاد «فرانز» هذا المساء مع خطيبته؟

– انه لعمري سيعمل بما نريد!..

وقال «مولن» في نفسه لا ريب انـــه عرس. ولكن هل الاولاد اصحاب النهي والامر هنا؟.. انها لمزرعة غريبة!..

وشاء ان يظهر من خبائه ليستعلمهم اين يمكن ان يجد الماء والزاد. وانتصب فرأى الجماعة الاخيرة تتوارى. وهن ثلاث فتيات يرتدين فساتين مستقيمة سوية تقف عند الركبتين. وعلى رؤوسهن قبعات جميلة ذات زمام. وعلى عنق كل منهن توفل ريشة بيضاء. وكانت احداهن تصغي الى رفيقتها نصف ملتفتة وقليلة الانحناء، فيما تستفيض هذه بالشرح واصبعها مرتفعة.

وخاطب «مولن» نفسه اذ نظر الى صداره القروي الممزق، وحميلته الغريبة التي يحملها تلامذة «سانت اغات»: اني لاخيفهن بهذا الزي!...

وخشي ان يلتقيه الصبية عند رجوعهم في السبيل، فتابع سيره من خلال الصنوبر باتجاه البرج دون ان يفتكر بما يصح ان يطلبه هناك. وما لبث ان استوقفه عند تخم الغاب حائط صغير معشوشب ورأى من الناحية الثانية، بين الحائط وملحقات المزرعة، ساحة طويلة ضيقة تعج بالعربات، كأنها ساحة نزل في يوم سوق ومعرض، عربات مختلفة الانواع والاشكال؛ فمنها الدقيقة الصغيرة ذات الاربعة كراسي، وهي مرتفعة القوائم في الهواء. ومنها المركبات ذات المقاعد المستطيلة. ومنها العجال البوربونية العتيقة السمت،

والمنقوشة الاروقة. ومنها ما يشبه الهوادج القديمة وقد نزع زجاجها.

وكان «مولن» مختبئاً ، مخافة ان يُرى ، وراء الصنوبر يتفحص فوضى المكان . فأبصر في الناحية الثانية من الساحة ، بالضبط فوق اريكة عجلة عالية ذات مقاعد ، نافذةً نصف مغلقة . ولا ريب ان عارضتي حديد ، على نحو ما نشاهد في شبابيك المزارع المقفلة ابداً ، كانتا مثبتتين في هذه النافذة من قبل ، ولكنهما انتُزعتا منهـــا بتقادم الزمن .

وقال التلميذ :

— سأدخل الى هذا المكان وانام في التبن ، ثم انصرف عند مطلع الفجر فلا أُلقي الذعر في قلوب تلك الصغيرات الجميلات .

فاجتاز الحائط بصعوبة بسبب جرح ركبته ، ثم قفز من عربة الى اخرى وصعد من اريكة عجلة ذات مقاعد الى ظهر عجلة مجاورة فاصبح في مستوى النافذة ، فدفع الشباك دون ان يحدث صوتاً ، كما يدفع الباب .

ووجد نفسه ، لا في اهراء تبن ، بل في حجرة واسعة ذات سقف منخفض ، ولعلّها غرفة منامة . ولاح له في هـذا الظلام الشاحب

من امسيات الشتاء، ان المنضدة والمدفأة والمقاعد نفسها مثقلة بالآنية الكبيرة والاشياء الثمينة والاسلحة القديمة. وفي آخر الحجرة سجف مدلاة تحجب مخدع النوم.

واقفل «مولن» الشباك اتقاء للبرد وللانظار في وقت معا. ثم رفع الستار في اعماق الغرفة واكتشف سريراً واسعاً وطيئاً عليه خليط من الكتب القديمة المذهبة وعيدان الطرب المتحطمة الاوتار والشماعد، فدفع هذه الاشياء جميعها الى اعمق المخدع واستلقى على الفراش ليستريح ويتأمل قليلاً في هذه المغامرة التي انساق اليها.

وكان صمت عميق يسود هذا المقام، لولا نواح ريح كانون العاصفة حيناً بعد حين. وفيما كان «مولن» مستلقياً هكذا، راح يسأل نفسه هل ان هذا المكان، على رغم ما سمع في اروقته من اصوات الاولاد، وما تجمع فيه من عجلات، الا بناء قديم العهد مهجوراً في عزلة الشتاء، على ما ذهبت اليه مظانه في بادئ الامر.

ثم بدا له ان الريح تنقل اليه صوت موسيقى تائهة. فعاودته ذكرى مفعمة بالعذوبة والحسرة، اذ تذكر عهداً بعيداً، عهد كانت امه، وما برحت في ريّق العمر، تجلس الى البيانو في امسية

النهار ، فيما كان يقبع وراء باب البهو المطل على الروض ، صامتا ، يصغي اليها حتى الليل . . . وقال في نفسه :

— ترى هل من يعزف على البيانو هنا ؟

لكنه ترك سؤاله بدون جواب لفرط ما به من عياء . وما لبث ان استسلم للكرى . . .

١٢

كان الليل ما برح منسدلاً ساعة استفاق. فتململ وتقلب في فراشه مرتعد الفرائص من شدة البرد. فانطوت تحته صدرته السوداء وتجعدت. وكان الضياء الشاحب ينساب على سجوف المخدع.

فاستوى في سريره ودسّ رأسه بين السجوف. فاذا الشباك قد فُتح وعُلِّق في كوته مصباحان اخضران.

وما كاد يستقر نظره حتى استشعر وقع خطى وهمسا في اعلى السلم. فانكفأ الى المخدع فارتطم حذاءاه المصفحان بالحديد باحدى القطع النحاسية التى كان قد دفعها نحو الحائط، فسُمع لها رنين. وفى خلال لحظة قلق قلقاً شديداً فأمسك انفاسه. واقتربت الخطى

وانزلق في الغرفة ظلّان . وقال احدهما :

ـ اياك والضجيج .

فاجاب الاخر :

ـ لعمري ، لقد آن له ان يستفيق .

ـ وهل فرشت غرفته ؟

ـ اجل ، كالغرف الاخرى .

واغلقت الريح الشباك المفتوح ، فقال الاول :

ـ ويحك ، فاتك ان تقفل الشباك . وها هي الريح اطفأت احد المصباحين . وأصبح علينا الآن ان نضيئه مرة اخرى .

وفترت عزيمة الآخر فجأة واجاب :

ـ ما الفائدة من المشاعل ناحية الحقل ، والحقل كالصحراء سواء بسواء . وليس من يرى الانوار من هناك .

ـ كيف لا يراها احد ؟ الا تعلم ان بعض الناس سُيقبل من هنا خلال سحابة من الليل . وهناك ، على الطريق سيبتهجون اذ ينظرون من عرباتهم الى اشعة انوارنا !

وسمع « مولن » فرقعة عود ثقاب . اما المتكلم الاخير ويبدو انه الرئيس ، فقد استطرد يقول بصوت مستطيل النبرات، كأنه صوت الحفّار في تمثيليات « شكسبير » :

ـ انك تضع مصابيح خضراء في غرفة « ولنغتون » وكان من الممكن ان تضعها حمراء . . . . وما انت اكثر مني معرفة وإلماما .

وساد صمت .

وتابع : هل ان « ولنغتون » كان اميركياً ؟ واذن ، هل الاخضر لون اميركي ؟ يجب ان تعرف ذلك ، انت الممثل الذي ركب الاسفار .

فاجاب « الممثل » :

ـ هيهات ! لقد سافرت لكني لم ارَ شيئاً . وماذا عساك ان ترى وانت داخل مركبة ؟

ونظر « مولن » بحذر من خلال السجوف .

فاذا الرجل الذي يدير المناورة ضخم الجثة ، كاشف الراس غارق في رداء عظيم ، يمسك بيده عصا طويلة تدلت منها مصابيح متعددة الالوان ، وقد جلس ساقاً على ساق ينظر بهدوء الى رفيقه يعمل ويسعى .

اما الممثل فهيكل لا ينتهي التصور الى دمامته ، قامة طويلة هزيلة مرتجفة ، وعينان فيهما اعتكار وحوَل ، وشاربان يقعان على فم ادرد . كل ذلك يصوّر امامك وجه غريق ينضح منه الماء على بلاط . وكان في حركاته وكلامه ما يدل على انه شديد الاحتقار لذاته بالغ الاستخفاف بنفسه .

واستغرق هنيهة في تأمل مؤلم مضحك معاً ثم تقدم من رفيقه مكتوف اليدين وأسرّ اليه :

— اتريد ان اكاشفك بامر ؟ ... انا لا افهم كيف جاؤوا بقذِرَيْن مثلنا ليستخدموهما في عيد كهذا ! هذا رأيي والسلام يا صاحبي !

على ان الرجل الضخم لم يتأثر بهذا الاندفاع العاطفي واستمر على مراقبة عمله معقود الساقين . فتثاءب وشخر ونخر بطمأنينة وراحة بال ثم ادار ظهره والقى العصا على كتفه قائلا :

— هيا بنا ! لقد آن لنا ان نرتدي ثيابنا للعشاء .

فتبعه البوهيمي ، لكنه مر امام المخدع ، فانحنى مراراً وقال بصوت يموج بالسخرية :

— يا سيدي النائم ، لم يبقَ عليك الا ان تنهض وتتزيا بزي

المركيز ولو انك بمثل حقارتي ، فستنزل الى العيد حسن الهندام نزولًا عند مشيئة هؤلاء الاسياد الصغار والآنسات الصغيرات .

واضاف بلهجة المتهكم ، وهو ينحني انحناءة اخيرة :

— ان رفيقنا « مـــالويو » الملحق بالمطابخ سيقوم بدور « ارلكان » بينما يقوم عبدك هذا بدور « بييرو » الكبير .

١٣

وما تواريا حتى خرج التلميذ من مخبئه ، وكان متجمد الرجلين متقلص المفـاصل . لكنه كان قد اخذ قسطه من الراحة وشفيت ركبته.

وجال في رأسه هذا الخاطر :

-- لأن انزل الى العشاء ، فأمر لا بد انا فاعله . وسأكون كالمضيف الذي لا يتذكر اسمه احد . وما انا ، على كل حال ، بالدخيل هنا . فما لا ريب فيه ان السيد « مالويو » ورفيقه ينتظراني .

وعند خروجه من عتمة المخدع الحالكة ، استطاع ان يتميز الاشياء في الغرفة المضاءة بالمصابيح الخضراء .

وكان البوهيمي قد كساها بالاضواء ؛ فثمة برانس مدلاة

في العلائق . وعلى منضدة ضخمة ، محطومة الرخام ، ادوات للزينة هي من التنوع والكثرة بحيث يستطيع معها هذا الفتى الذي قضى الليلة الفائتة في زريبة مهجورة ، ان يتحول الى شاب انيق معطّر . وعلى المدخنة عيدان ثقاب قرب مسرجة كبيرة . غير ان ارض الغرفة لم تكن قد مسحت . فشعر « مولن » بحبات الرمل والحصى تنسحق تحت حذائه ، وعاوده الشعور بانه في منزل خال من بعيد العهد ... وسعى نحو المدخنة يتعثر بانضاد من صفائح الورق المقوى والعلب الصغيرة ، فمد يده واضاء شمعة . ثم رفع الاغطية وانحنى لينظر ، فرأى ملابس شبان قديمة الزي ، تعلوها عند العنق قلائد مخملية ، وسترات ناعمة كثيرة الانفتاح ، وعدداً لا يحصى من ربائط العنق البيضاء واحذية لماعة من الطراز الشائع في مطلع هذا العصر . فلم يجرؤ ان يمس شيئاً من هذا بطرف اصبعه . الا انه بعد ان نفض ثيابه مقشعراً ، تسربل فوق صدرته المدرسية بمعطف واسع رفع طوقه المغبون ، واستعاض عن حذاءيه المصفحين بالحديد ، بخفين لماعين ناعمين وتهيأ للنزول كاشف الرأس .

وبلغ ، دون ان يلتقي احداً ، اسفل السلم الخشبية عند زاوية مظلمة من الساحة ، فجاء نَفَس الليل القارس يعبث بوجهه ويرفع

طرفا من ردائه . فخطا بعض خطوات واستطاع ، على ضوء السماء الضئيل ، ان يترسم الدار ، فاذا هو في باحة ضيقة تحيط بها ابنية قديمة العهد خربة . وثمة في اسفل الادراج ، فوهات واسعة لان الابواب كانت قد نزعت منذ زمن بعيد، ونوافذ لا زجاج فيها تبدو كالثقوب السوداء في الجدار. بيد ان جميع هذه الابنية كانت تتّسم بمسحة عيد غريبة . فالانعكاسات الملونة تطفو في الغرف السفلى ، حيث اضيئت المصابيح صوب الحقول . وقد كُنست الارض ونُزعت الاعشاب الهائجة. ولاح لـ «مولن» انه يسمع شيئاً كالغناء، كأصوات فتيان وفتيات في ناحية الابنية المتخالطة ، حيث تهزهز الريح الغصون امام النوافذ المتماوجة فوهاتها بالوان وردية خضراء زرقاء .

كان هنا ، بمعطفه الواسع كأنه الصياد، منحنياً قليلاً ، يسترق السمع . واذا بشاب صغير غريب السمت يخرج من البناية المجاورة التي يخيل الى الرائي انها مقفرة .

كان يرتدي قبعة مستطيلة ذات اطار تلمع في الليل كانها من فضة ، وثوباً ينفذ طوقه حتى شعر الرأس ، وسترة كثيرة الانفتاح ، وسراويل تنطوي تحت القدم . . . ومشى هذا الانيق ، ويبدو أنه

في الخامسة عشر ربيعاً ، على رأس قدميه كأنّ مطاط سرواله يرفعه عن الحضيض ، لكنه مر بسرعة غريبة ، فحيا « مولن » آلياً وبانحناء وتوارى في الظلام ، في ناحية البناية الوسطى ، ومن يدري أهي قصر ام دير ، تلك البناية التي اهتدى « مولن » ببرجها في مطلع الظهيرة .

وتردد بطلنا لحظة ثم اقتفى اثر الشاب الصغير الغريب . فاجتازا ساحة مبستنة ومرّا بين ارصفة ، ودارا حول حوض ماء تسيّجه دائرة اوتاد ، وحول بئر ، حتى انتهيا الى عتبة البناية الوسطى .

وهناك باب عظيم نصف مغلق ، مستدير من الاعلى ومسمّر كباب دير . فغار فيه الفتى الانيق وتبعه « مولن » وما خطا في الرواق خطواته الاولى حتى وجد نفسه ، دون ان يرى احدا ، محاطا بالضحك والغناء ، وبقوم يتنادون ويتلاحقون .

وفي اخر الرواق ممشى معترض . فتردد « مولن » بين ان يلج في السير حتى النهاية ، او ان يفتح احد الابواب وقد سمع وراءه جلبة اصوات . واذا به يبصر فتاتين تتلاصقان ، فركض ليراهما ويدركهما بخفة قدم . وقرقعت ابواب وانفتحت . وأشرق وجها فتاتين في الخامسة عشر ربيعاً ، ورديان من برودة المساء والركض ،

تحت قبعتين معقودتين تحت الذقن . ثم توارى كل شيء في سنىً مفاجىء من الاضواء .

ودارتا على نفسيهما في حلقة لعب . فارتفع فستاناهما الخفيفان وانتفخا، وبدت تخاريم ما يلي الجسد من لباسيهما الطويلين، اللطيفين ثم قفزتا بعد هذه الجولة في غرفة واغلقتا الباب .

وبقي « مولن » حينا ، يترنّح مذهولاً، في هذا الرواق الاسود . فهو يخشى الآن ان يفجأه احد ، لان في تردده وارتباكه ما قد يحمل على الظن بانه سارق . فاعتزم ان ينصرف ، لكنه سمع وقع خطى في آخر الرواق واصوات صبية فاذا بغلامين يقتربان متحدثين :

فسألهما « مولن » برباطة جأش : اما آن وقت العشاء ؟

فاجابه اكبر الاثنين : « سر وايانا نذهب معا » .

وامسك كلاهما احدى يديه ، بتلك الثقة وتلك الحاجة الى المصادقة اللتين يستشعرهما الاولاد في امسيات الاعياد الكبيرة . انهما على الارجح قرويان البسهما ذووهما اجمل ثيابهما : سراويل صغيرة تنتهي عند نصف الساق ، تبدو من تحتها الجوارب الصوفية الغليظة وحذاء المطاط ، ومعطف ضيق من المخمل الاخضر وقبعة من لونه ، وعقدة بيضاء حول العنق .

وسأل احدهما :

ـ اتعرفها انت ؟

فاجاب الاصغر ، ذو الرأس المستدير والعينين البريئتين :

ـ قالت امي عنها انهـــا تلبس رداء اسود يعلوه طوق وانها جميلة كالدمية .

وسأل « مولن » .

ـ ومن هذه يا ترى ؟

ـ انها خطيبة « فرانز » وقد ذهب ليأتي بها . . . .

وقبل ان يتمكن « مولن » من التفوه بكلمة ، وصل الثلاثة امـام باب حجرة واسعة تضيئها نار ساطعة . وثُبتت فيها الالواح فوق مرافع خشبية على شكل موائد ، وبسطت عليها الاسمطة البيضاء وجلس حولها للطعام اناس من جميع الطبقات .

١٤

ففي تلك الغرفة الرحبة المنخفضة السقف ، مأدبة كتلك التي تقام في أمس الاعراس القروية لذوي العروس القادمين من مكان قصي .

كان الغلامان قد افلتا يد التلميذ وتواثبا الى غرفة ملاصقة تتصاعد منها اصوات صبيانية وطقطقة الملاعق في القصاع .

اما « مولن » فقد خطا فوق احد المقاعد بجرأة ودون ما اضطراب ووجد نفسه جالساً الى جنب قرويتين عجوزين وشرع يأكل بنهم وضراوة . ولم يرفع رأسه الا بعد هنيهة ليجيل نظره بالمدعوين ويصغي الى احاديثهم .

بيد ان هؤلاء كانوا مقلين من الكلام . ويبدو انهم غير

متعارفين او يكادون . وان بعضهم حضر من المزارع وبعضهم الآخر من المدن النائية . وهنا وهناك على الموائد بعض شيوخ من ذوي اللحى وآخرون حليقو الذقون ولعلهم من النوتيين القدماء . وبالقرب منهم شيوخ آخرون يماثلونهم في السمت والهيئة ، ولهم نفس الوجوه المدبوغة ونفس العيون النارية تحت الحواجب الكثيفة ، ونفس ربائط العنق الرفيعة وكانها فتائل الاحذية . . . على انه من اليسير ان تدرك انهم لم يبحروا الى ابعد من حدود الاقليم . ولئن كانوا قد تهزهزت بهم السفن وتمـــايدت في ركوبهم الاسفار بين الزوابع والامطار ، فما اشبه سفرهم الشاق البعيد عن الاخطار ، برحلة الفلاح يفتح الثلم حتى نهاية حقله ثم يعود بمحراثه . . . ولم يكن هناك من النساء الا قلائل ، وهنّ بعض القرويات العجائز ، البادية وجوههن مستديرة متجعدة كالتفاح تحت قلانس كالانابيب .

ولم يكن بين الضيوف من لا يرتاح اليه « مولن » او يثق به . وقد فسر فيما بعد تأثيراته هذه بقوله : عندما يأثم المرء اثماً لا يُغتفر يقول في نفسه بغصة : « ان في الناس ولا بد من يغتفر لي » . ويتمثل في خاطرك المتقدمون في السن او جدودك ذوو الحلم المستفيض الذين يوقنون مقدما بان كل ما تصنعه حسن . اجل ان ضيوف هذه

الغرفة قد اختيروا من هؤلاء الناس السليمي الطوية. اما الباقون فمراهقون وولدان . . . .

على ان العجوزين ، قرب « مولن » ، كانتا تتحادثان :

قالت الكبرى بصوت حاد مضحك عبثاً حاولت تلطيف نبراته :

— لن يصل العروسان غداً قبل الساعة الثالثة ، مهما تفاءلنا .

فأجابت الثانية بلهجة ساكنة :

— اصمتي والا غضبت .

وكانت هذه تعتمر قلنسوة مخرّزة .

واستطردت الاولى دون ما انزعاج :

— لنحسب ان هناك من «بورج» الى « فيارزون» ساعة ونصف الساعة بالقطار، وسبعة اميـــال بالعربة من « فيارزون » الى هنا . . .

واستمر الجدل ، ولم تفت « مولن » منـــه كلمة . فاستطاع ان يستجلي هذا اليسير من المسألة وهو : ان «فرانز دي غاليه» ابن القصر – وهو إما طالب واّما بحريّ واما مرشح للبحرية اوغير

ذلك .... – قد ذهب الى « بورج » ليصطحب فتاة ويتزوجها . والغريب في الامر ان هذا الفتى الحديث السن الغريب الاطوار ينظّم كل شيء على هواه في المزرعة . فقد شاء ان يكون المنزل الذي ستدخله خطيبته شبيها بقصر في مهرجان . ولكي يحتفل بقدوم الفتاة دعا هو نفسه هؤلاء الفتيان وهؤلاء الهرمى الطيبين . تلك هي النقاط التي وضحت لـ « مولن » من مناقشة العجوزين اللتين تركتنا سائر التفاصيل في سرّ دفين وطفقتا تعالجان باستمرار مسألة عودة الخطيبين . فاصرت احداهما على انهما سيصلان في صباح الغد بينما أصرّت الاخرى على استحالة ذلك قبل بدء الظهيرة .

وقالت صغرى الاثنتين بهدوء :

– انكِ دائماً يا عزيزتي «موانيل» على ما عرفت بكِ من رعونة .

فاجابت الاخرى بصوتها الساكن وقد هزت كتفيها :

– وانت، يا عزيزتي «اديل»، ما برحت عنيدة، وها قد انقضت اربع سنوات على مشاهدتي لك ، ولم تتبدلي .

ولبثتا هكذا تتشاكسان دون ما حدة مزاج . فتدخل « مولن » على امل ان يستعلمهما المزيد وقال :

— هل ان خطيبة « فرانز » جميلة كما يقولون ؟

فنظرتا اليه مرتبكتين ، اذ لم يشاهد الفتاة احد الا « فرانز » فقد التقاها ذات مساء في عودته من « طولون » حزينة في غيضة من غياض « بورج » المسماة بالمستنقعات ؛ لان اباها ، وهو حائك ، كان قد طردها من عنده . وكانت رائعة الجمال فعزم « فرانز » للحال على ان يتزوجها . انها لقصة غريبة . لكن والد « فرانز » السيد « دي غاليه » وشقيقته « ايفون » قد عوداه ألّا يردّا له مطلباً .

كان « مولن » على وشك ان يلقي اسئلة اخرى بحذر ، عندما ظهر في الباب فتى وفتاة وسيمان . فهي في السادسة عشرة من العمر يشدّها عند الصدر ثوب من المخمل ، يتماوج في الاسفل بتخاريم واسعة الاطراف . وهو يرتدي قباء عالي الطوق وسراويل مثبتة بمطاط . فاجتازا القاعة بخطى متّزنة ، وتبعهما آخرون . ثم مرّ غيرهم يعدون صائحين ، يطاردهم شخص مقنع كأنه مطلي بالدقيق يرفل في اكمام طويلة بافراط ، وعلى رأسه قلنسوة سوداء ويضحك عن فم ادرد . وكان يركض بخطى واسعة ، كأنه ، عند كل خطوة يتحفّز للقفز ، ويلوّح باكمامه الطويلة الفارغة . وخافته الفتيات خوفاً يسيراً . اما الشبان فقد كانوا يشدّون يده بينما كان الاولاد فرحين مرحين

يلحقون به ويصرخون صراخاً حاداً . ومرّ بـ « مولن » فنظر اليه بعينيه الزجاجيتين . وبدا للتلميذ انه عرف فيه رفيق السيد « مالويو » الحليق الذقن ، وهو البوهيمي الذي كان منذ برهة يعلّق المصابيح .

وانتهت الوليمة ، فنهض الضيوف .

وانتظمت في الاروقة حلقات الرقص . وعزفت الموسيقى في مكان ما ، نغمات ايقاعية . . . اما « مولن » الذي احتجب بعض رأسه في تلابيب معطفه ، وكأنه ثمرة « فريز » فقد احس انه تحوّل الى شخص غير شخصه . فقد هزّه الطرب هو ايضاً ، وراح يلاحق الرجل المقنع خلال الاروقة كأنه في معابر مسرح يدور فيه التمثيل مشاهد ايماء . واختلط حتى منتصف الليل ، ببهجة المبتهجين المتزيين بأغرب الازياء . فتارة يفتح احد الابواب ويجد نفسه في غرفة يُعرض فيها الفانوس السحري فيصفّق الأولاد بضجيج . وتارة ينتحي زاوية من البهو حيث تدور حلقات الرقص ، ويطارح الحديث احد المتنوّقين ليسأله ، بعجل ، اي الملابس سيلبس القوم في الايام التالية . . .

وقلق بعض القلق من طول ما لقي من اللذة . فقد كان يخشى ، في كل لحظة ، ان ينفرج معطفه عن صدرته المدرسية فيفتضح امره .

فلجا هنيهة الى أهدإ اقسام هـذا المكان واشدها ظلاماً ، حيث لا تسمع إلا اصداء مبهمة من عزف البيانو .

ودخل غرفة يسودها الصمت ، هي عبارة عـن مائدة يضيئها مصباح معلق . وفي هذا المكان ايضاً عيد لكنه عيد الصغار . فمنهم من اقتعد وطاءً مستديراً وعـلى ركبتيه محفظة تصاوير يتصفحها . ومنهم مـن قعد القرفصى امام كرسي وراح يبسط فوقها بزانة ، معرضاً من الصور . وغيرهم من جلسوا قرب النار لا يتكلمون ولا يعملون ، بل يصغون مـن بعيد ، في المنزل الرحب ، الى ضوضاء المهرجان . وكان احد ابواب هذه المائدة مفتوحاً على مصراعيه . وفي الغرفة المجاورة عزف على البيانو . فأطلّ « مولن » بفضول ، فرأى امرأة ، او هي فتاة ، ينسدل عن كتفيها رداء كستنائي ، تعزف انغاماً عذبة من موسيقى الرقص والترانيم . وبالقرب منها ستة غلمان أو هم سبعة ، وفتيات مصطفون ومصطفات على المقعد كأنهم رسوم في صورة ، هادئون كما يهدأ الاولاد إمّا تقدّم الليل ، وهم مصغون من وقت الى آخر يتصلب احدهم على معصميه وينشال ثم ينزلق على الارض وينسلّ الى غرفة الطعام ، فيحل محله احد الذين انتهوا من مشاهدة الصور .

وفي نهاية هذا العيد، حيث ساد الفتون بـل الحمى والجنون،

حيث راح هو نفسه يلاحق الرجـل المقنع بهوس شديد. وجد «مولن» نفسه مستغرقاً في سعادة لا يضاهي نعيمها شيء.

وفيما كانت الفتاة مستمرة في العزف، عاد بهدوء الى غرفـــة المائدة فجلس وتناول احد الكتب الضخمة الحمراء المبعثرة على الطاولة وشرع يقرأ ساهي البال.

وما كاد يفعل حتى اقترب منه احد الصغار وتعلق في ذراعه وتعرّش ركبته لينظر في الكتاب معه. وحذا حذوه صغير اخر على الركبة الثانية. فتسنى له ان يذهب في تصوره الى انـــه في منزله، في امسية جميلة، وقد تزوج، وان هذا الكائن المجهول الفاتن الذي يعزف على البيان، بالقرب منه، انما هي زوجته...

١٥

وفي صباح الغد كان « مولن » في طليعة المتأهبين . فقد ارتدى ثوباً اسود قديم الطراز كما اشاروا عليه وسترة مشدودة على قوامه ، ذات كمين منتفختين عند الكتفين، وصدرة مشبوكة، وسراويل تتسع من الاسفل حتى يختفي دونها الخف الدقيق، فقبعة عالية القالب .

وكانت الساحة ما برحت خالية حين انحدر اليها، فخطا بعض خطوات واستشعر انه اختُطف الى يوم ربيع ، اذ كان الصباح اعذب ، في هذا الشتاء . وكانت شمسه شمس طلائع نيسان . فالجليد يذوب . والعشب الرطب يلتمع كأنَّ الندى قد بلله .

والعصافير تزقزق في الشجر . وتنساب من حين الى حين نسمة فاترة على محيا السائر .

واقتدى بالضيوف الذين نهضوا من النوم قبل صاحب الدار . فخرج الى باحة المنزل متوقعاً في كل لحظة ، ان يصعد من ورائه صوت انيس بهج ويقول له :

– هل آن لك ان تستفيق يا اغوسطين ؟

لكنه سار وحده طويلًا خلال الروض والباحة . وهناك في البناية الرئيسية ليس ما يتحرك إنْ في النوافذ ام على البرج . على ان مصراعي الباب الخشبي المستدير كانا قد فتحا . وفي احدى النوافذ العليا أنصبّ شعاع شمس كأنما هو الصيف عند منبثق الصباح .

ولاول مرة، تهيأ لـ « مولن » ان يشاهد المزرعة من الداخل في وضح النهار . فهناك معالم حائط تفصل بين الساحة والبستان الخرب، وقد أُهيل عندها الرمل ، منذ قريب ،وظهر اثر مشط الزارع . وفي اقصى الابنية الملحقة تقوم الاصطبلات وقد اختلّت خطوطها على وجه تعددت معه الزوايا المكسوّة بالشجيرات الهائجة والكروم البكر . وكانت غابات الصنوبر تتهاوى حتى المزرعة نفسها فتحجب

عنها سائر البقاع الا الناحية الشرقية حيث ينطلق النظر الى الآكام الزرقاء المزدرعة بالصخور وبالصنوبر ايضاً .

وفي الروض ، انحنى « مولن » لحظة على حاجز البركة الخشبي المترجرج . وكانت بقايا الجليد على حوافيها رقيقة متغضّنة كالزَبَد . فرأى نفسه منعكساً في الماء وكأنه منحن على السماء بلبسه المدرسي الرومانطيقي . فخيل اليه انه يرى « مولن » آخر ، ليس هو التلميذ الذي هرب على عجلة قروي ، بل كائناً فتاناً من ابطال القصص الذين تظهر رسومهم في كتاب مزخرف من كتب الجوائز .

وجاع فأسرع نحو البناية الرئيسية . واذا في غرفة الطعام قروية تبسط السفرة على الخوان . وحالما جلس « مولن » تجاه احد الاكواب المصفوفة على الغطاء ، سكبت له القهوة قائلة :

ـ انك الاول يا سيدي .

فلم يشأ أن يجب لشدة ما خشي ان يعرف امره . وقصر كلامه على ان يستعلم المرأة موعد ذهاب السفينة في النزهة الصباحية التي اعلنوا عنها .

فكان جوابها :

– لن يكون ذلك قبل نصف ساعة ، يا سيدي ، فلم ينزل احد بعد .

وراح يبحث عن المرسى ويجوس حول المنزل المستطيل الجنبات المتفاوت الاجنحة وكأنه المعبد . ولما طاف بالجناح الجنوبي بدت له المقاصب فجأة تملأ هذا المدى جميعه . فمياه الغدران ، في هذه الناحية ، تغسل اقدام الاسوار ، وامامها ابواب وشرفات خشبية حانية على الامواج الهادرة .

واذ كان لا عمل له ، فقد تاه زمنا غير يسير على الشاطىء الرملي ، يتفحص بفضول تلك الابواب المغبرة الزجاج ، المطلة على غرف خربة مهجورة ، وركام من انقاض العجلات والادوات الصدئة وآنية الزهور المحطمة ، واذا به يسمع فجأة ، في الطرف الاخر من الابنية ، جَرْس خطى على الرمل .

فهناك امرأتان . احداهما هرمة متقوّسة ، والاخرى فتاة شقراء فارعة القوام ، بدا ثوبها الفاتن غريباً في نظر « مولن » للوهلة الاولى ، بعد ان شهد ما شهد ليلة امس من تنكر الناس في ملابسهم .

ووقفتا لحظة لتسرحا الابصار في المناظر ، بينما كان « مولن » يقول في نفسه بدهشة بدت له في الايام التالية مستهجنة :

– هذه ولا ريب فتاة غريبة الاطوار، ولعلها ممثلة قد استقدموها للمهرجان . .

ومرّتا به، فنظر الى الفتاة ساكناً. وكثيراً ما حدث له بعد ذلك، عند استسلامه للنوم، ان حاول يائساً تذكر الوجه الجميل وقد امّحى من عينيه. كان اذا ما اغفى يرى في الحلم صفوفاً من الصبايا يمررن شبيهات بتلك. فاحداهن مثلها تلبس القبعة ولكل منهن على التوالي سيماؤها الحانية شيئاً، او نظرها الصافي، او قوامها الرقيق، او عيناها الزرقاوان. لكن لم يكن بين تلك النساء من هي الفتاة الجميلة نفسها.

وتسنّى لـ «مولن» ان يتبين تحت شعرها الكثيف قسمات وجهها، وهي وان تكن قصيرة الخطوط، الا انها مرسومة بدقة تكاد تكون موجعة، وكانت قد مرت امامه فنظر الى زينتها فاذا هي غاية في البساطة والترصن . . .

وساءل نفسه مرتبكاً هل له ان يرافقها. واذا بالفتاة تلتفت اليه خطفاً وتقول لرفيقتها :

اظن ان السفينة لن تتأخر .

وتبعهما «مولن» وكانت العجوز المتهدمة المتهزرة لا تنفك عن الكلام الطرب والضحك . فتجيبها الفتاة بسكون . ولما نزلتا الى الرصيف حانت منها نفس الالتفاتة البريئة الرصينة وكأنها تعني :

– من انت ؟ وما تفعل هنا ؟ لست اعرفك ويبدو لي مع ذلك اني اعرفك .

وكان قد حضر رهط من المـــدعوين فتفرقوا بين الاشجار منتظرين . ثم وصلت ثلاث سفن من سفن التنزه فحاذت الشاطىء على اهبة الإقلاع بالمتنزهين . ومر الشبان واحدا واحدا تجاه السيدتين، وقد بدا انهما صاحبة القصر وابنتها ، وحيوهما باحترام اما الفتيات فكن ينحنين. يا للصباح الغريب والنزهة الغريبة ! كان الطقس بارداً على رغم الشمس الشتائية . وكانت النساء تلففن الاجياد باوشحة من الريش على اشكال الثعابين . . .

بقيت العجوز على الشاطىء . اما «مولن» فما شعر الا وقد اصبح في اليخت نفسه الذي نزلته فتاة القصر فاستلقى بمرفقه على سطح المركب فيما امسك بيده قبعته وقد عنّفتها الرياح وامكنه ان يستمتع على مهل بمشاهدة الفتاة ، وقد لطت في منخفض . وكانت

تنظر اليه ايضا فتجيب رفيقاتها وتبتسم ، ثم تلقي عليـــه عينيها الزرقاوين برفق ، فيما تعض شفتيها عضا خفيفاً

كان الصمت عميقا على الضفاف القريبة ، والمركب ينساب فيسمع لآلته وللمياه صوت خافت . وخيّل الى القوم انهم في إبان الصيف . وكان المتوقع ان ينتهي بهم المطاف الى روضة احد المنازل الريفية ، فتنزل الفتاة لتتنزه هناك تحت مظلة بيضاء ، ويستمعون حتى المساء الى نواح اليمام . . . بيد ان عصفة ريح ثلجية جاءت تذكر ضيوف هذا المهرجان الغريب بانهم في شهر كانون .

ورسا المركب امام غابة صنوبر . وتوقف عند رصيف المرسى فلبث الركاب مزدحمين متلازّين ريثما يفتح احـــد الملاحين قفل الحاجز . . . ويا للغصة التي انتابت « مولن » فيما بعد من تذكر هذه الهنيهة ، اذ كان محياه قريباً جداً ، على شاطىء البحيرة ، من محيا الفتاة الذي غاب عنه بعدئذ وتوارى ! وكان قد نظر الى هذه الملامح الصافية بملء عينيه ، حتى كادتا تمتلئان بالدموع . وتذكر انه رأى شيئاً من رشاش المساحيق بقي عـــلى وجهه ، كسرّ لطف قد ائتمنته عليه .

وسارت الامور على اليابسة ، سيرها في حلم . فبينما كان الصبية

يتراكضون ويتصايحون بفرح والحلقات تنعقد هنا وهناك في الغب ، تقدم « مولن » في ممر كانت تسير فيه الفتاة على عشر خطوات امامه . ووجد نفسه بالقرب منها قبل ان ينفسح له مجال التفكير فاقتصر على القول :

– انت جميلة !

لكنها اسرعت الخطى وانتحت سبيلا معترضاً ، دون ان تجيب. هذا والمتنزهون يركضون ويلعبون خلال الدروب ، كل على هواه . ولام الفتى نفسه ملامة شديدة على ما اسماه بلاهة وفظاظة وحمقاً . وسار دون ما هدف ، موقنا انه لن يرى قط هذه المخلوقة الساحرة، واذا به يلمحها فجأة مقبلة عليه ، مكرَهة على ان تمرّ به في المدخل الضيق ، تنحّي معطفها الواسع بكلتا يديها العاريتين ، وتنتعل حذاءين اسودين جد منكشفين ، وكعباها من الدقة بحيث كانتا تنثنيان حيناً بعد حين ، فيخشى الناظر أنْ يراهما ينفصمان .

وحياها الشاب بصوت خفيض :

– هل لك إن تغفري .

واجابته بترصن :

– اني غفرت لك . لكن عليّ الآن ان الحق بالاحداث فهم اليوم اصحاب الحل والربط ، الوداع .

فتوسل اليها ليستوقفها لحظة بعد . وكان يكلمها بارتباك ، وبلهجة فيها من الاضطراب والاختلاط ما جعلها تتمهل وتصغي اليه . ثم قالت له آخر الامر :

– اني لا اعرف عنك حتى من انت .

وكانت تلفظ هذه الكلمات بنبرات متشابهة وتلحّ على كل منهـا بالاسلوب نفسه الا الكلمة الاخيرة فقد ارسلتها رقيقة هادئة . . . . ثم عاد الجمود الى محياها وارسلت في الافق عينيها الزرقاوين فيما كانت ثناياها تدغدغ شفتيها :

واجاب « مولن » :

– وانا ايضا اجهل اسمك .

وسلكا في طريق منكشفة . وكان المدعوون ، على مسافة منهم ، يزدحمون حول منزل منعزل في الريف .

فقالت :

– هذه دار « فرانز » . . . فيجب ان اتركك .

وترددت ثم نظرت اليه باسمة وقالت :

ــ اتريد اسمي ؟ . . . انني الانسة « ايفون دي غاليه » وولت هاربة .

كانت دارة « فرانز » غير مأهولة عندئذ ، علـــى ان « مولن » وجدها غاصة حتى السقائف ، بجماعات المدعوين . ولم يتسنَّ له ان يتفحص المكان ، فقد تناول القوم على عجل طعاما باردا قـــد استقدموه في المراكب . ولم يكن الفصل موآتيا لمثل هذا بيد انها ارادة الاولاد ، على ما يبدو . وحان وقت الانصراف ، فدنا « مولن » من الانسة « دي غاليه » حالما رآها خارجة وشاء ان يجيبها عما قالته منذ هنيهة فقال :

ــ ان الاسم الذي سميتك به لأجمل .

فاجابت بنفس الترصن :

ــ ماذا ؟ واي اسم هو هذا ؟

وخشي ان يكون قد اتى حماقة ولم يجب . ثم استدرك :

ــ أما اسمي ف « اغوسطين مولن » وانني طالب علم .

ــ انك تدرس ؟

وتحادثا هنيهة اخرى . تحدثا بتؤدة وابتهاج ، بل وبصداقة . وإذا بسيماء الفتاة تتبدّل فجأة . فهي ولئن بدت اقلّ تشامخاً ووقاراً ، الا انها اصبحت اشد اضطراباً كأنها خشيت ما سيقوله « مولن » وتذعرت منه مقدماً . وكانت في قربه مرتعشة كالسنونو التي ما حطّت على الارض لحظة حتى ارتجفت حنيناً الى الانطلاق .

وكان « مولن » يبسط لها خططه ومقاصده ، فتجيبه بترفق :

— وما يجدي ؟ وما يجدي ؟

بيد انه عندما استأذنها ان يعود يوماً الى هذا المزار الجميل ، اجابته باقتضاب : سانتظرك .

وكانا قد بلغا رصيف المرسى . فوقفت فجأة وقالت ساهمة :

— نحن طفلان ، وقد اتينا عملاً جنونياً . فيجب ألاّ نصعد معاً في المركب نفسه ، الوداع ، ولا تتبعني .

وبقي « مولن » هنيهة مذهولاً ، ينظر اليها ذاهبة . ثم استأنف السير . وعندئذ حين اوشكت الفتاة ان تغيب بين الجماعة ، وقفت ،

وتلفتت اليه ، للمرة الأولى ، ونظرت اليه طويلاً . أكان ذلك لتمنعه عن اللحاق بها ؟ او لعل لديها بعد ما تقول له ؟ . . . .

وحين رجع القوم الى المزرعة ، تهيأوا لحلبات السبق في حقل رحب منحدر . وكان هذا آخر مشاهد المهرجان . وتوقّعوا ان يحضر الخطيبان في الوقت المناسب ليتولى « فرانز » بنفسه مهام التوجيه ، فاضطروا ان يشرعوا في اللعب دونه .

وارتدى الغلمان اثواب « الجوكية » والفتيات ازياء الفرسان ومشوا يقود بعضهم امهاراً عتية موشحة ، والآخرون عتاقاً ذلولة . وفي غمرة الصياح ، والضحكات الصبيانية ، والمراهنات ، ودقات الاجراس ، خُيل الى القوم انهم انتقلوا الى ميدان سبق مصغّر تنبسط فيه الخضرة منتظمة التقاطيع .

وعرف « مولن » « دانيال » والفتيات المعتمرات بقبعات الريش ، اللائي كان قد سمع حديثهن ، امس ، في معبر الغاب . . . وغاب عنه سائر المشهد لفرط ما تململ ليشاهد بين الحشد ، تلك القبعة الوردية والرداء الكستنائي . بيد ان الآنسة « دي غاليه » لم تظهر . وكان ما زال يبحث عنها حينما تواترت دقات الجرس ، وصيحات الفرح ، مؤذنة بنهاية الحلبات . وجلّت في السبق فتاة

صغيرة تمتطي فرساً بيضاء ، ومرّت علـى صهوة مطيتها ظافرة فيما استرسلت روابط قبعتها في الهواء .

وفجأة سكت كل شيء ، فقد انتهى اللعب ولم يحضر « فرانز » فتردد القوم هنيهة ثم راحوا يتداولون بارتباك . واخيراً قفلوا راجعين الى المساكن ، حلقات حلقات ، لينتظروا في الصمت والقلق ، عودة الخطيبين .

١٦

لقد انتهى السبق قبل اوانه ، وكانت الساعة قد بلغت الرابعة ونصف الساعة والنهار ما يزال ساطعاً ، عندما انكفأ « مولن » الى غرفته مفعم الرأس بحوادث يومـــه العجيب . فجلس الى الطاولة، عاطلاً عن العمل، بانتظار ميقات الطعام والحفلة التي ستليه . وعصفت الريح من جديد، وكان يُسمع لها زمجرة السواقي، او فحيح يرافقه انحدار شلال فتخفق لها صفائح المدفأة حيناً بعد حين .

ولاول مرة شعر « مولن » بذلك الغم الذي يستولي على النفس في نهاية يوم فائق السعادة والجمال . وبدا له ان يوقد ناراً لكنه عبثاً حاول ان يرفع صحيفة المدفأة الصدئة ؛ فطفق يرتب الغرفة . فعلق

اثوابه الجميلة بالمناشب . وصف الكراسي المنقلبة بلصيق الحائط ، كأنه يهيء لنفسه مقاماً طويلاً .

لكنه رأى ان يكون متأهباً للذهاب ابداً ، فطوى بعناية سترته وسائر ملابسه المدرسية على ظهر الكرسي ، كما تطوى ثياب السفر ، والقى حذاءيه المصفحين بالحديد تحتهما وما زالا مثقلين بالتراب .

ثم عاد فجلس ينظر حوله بسكون الى مثواه الذي أحل فيه الترتيب والنظام .

وكانت قطرات المطر ترسم حينا بعد حين خطوطاً على زجاج النافذة المطلة على ساحة العربات وغابة الصنوبر . وبدا هادىء الروع بادي السعادة في مستقرّه . فهو هنا ، ذلك الكائن السري الغريب في وسط هذا العالم المجهول ، ضمن هذه الغرفة التي اختصها بنفسه . فان الذي حظي به قد جاوز حدود آماله . وحسبه الآن من هزّة النفس ان يتذكر ، في مهب الريح العاصفة ، وجه تلك الفتاة يتلفت اليه . . .

وفيما هو سابح في هذا الخيال ، هبط الليل دون ان يفطن

للمصابيح فلم يضئها وهبّت عصفة ريح فمـــاج باب الغرفة الخلفية المتصلة بغرفته والمشرفة نافذتها على ساحة العجال ، فذهب « مولن » ليوصده ، فلاح له وميض على طاولة كأنه التماع شمعة مضاءة . فدسّ رأسه في الباب المتثائب . فإذا مـن يذرع الحجرة طولاً وعرضاً بخطوات خرساء ، ولعله دخل مـن النافذة . وبدا في ضآلة النور ، فتى طري العود ، كاشف الرأس ، على كتفيه رداء سفر عريض . وكان يمشي دون ما توقف كمن امضّه ألم لا يطيقه ، والريح الهابة من النافذة ، وقد تركها مفتوحة عـلى مصراعيها ، تموّج رداءه . وكلما مرّ قرب النور برقت الازرار الذهبية في ثوبه الرقيق الانيق.

وكان يدندن صافراً بين ثناياه لحناً بحرياً كذاك الذي يغنيه الملاحون والنسوة في خمارات المقاهي ، لتفريج الكروب . . .

وتوقف فجأة ، عن مشيته المضطربة ، فانحنى عـــلى الطاولة وامسك بحُقّ اخرج منه بعض اوراق . ونظر « مولن » جانب محيّاه ، فرأى على ضوء الشمعة وجهاً رقيق القسمات امرد ، تحت شعر كثيف مفروق من الجنب . وكان قد انقطع عن الصفير ، وبدا شديد الشحوب منفرج الشفتين قليلاً ، واهي العزيمة كأنه صدم في قلبه صدمة عنيفة .

وتردد « مولن » بين ان ينصرف بفطنة او ان يتقدم منه ويضع يده برفق على كتفه ، ويكلمه مكالمة الصديق . بيد ان الفتى رفع رأسه ورآه . فتأمله لحظة وتقدم منه دون ان يدهش لوجوده وقال له بصوت ثابت .

– انا لا اعرفك يا سيدي . ولكنني مسرور بان اراك . وبما انك هنا الان فسافضي اليك انت بالامر . . . واليك الخبر ! . .

وكان يبدو شديد الذهول . فحين قال لـ « مولن » « اليك الخبر » امسك بطيّة ردائه ليسترعي انتباهه ، ثم ادار رأسه نحو النافذة ليتأمل فيما سيقول . فرفرفت عيناه – وادرك « مولن » ان به حاجة ملحة للبكاء .

ثم استطرد ، ولم يتحول نظره عن النافذة :

اذن ، اليك الخبر : لقد انتهى كل شيء ، وانتهى العيد ، فبإمكانك ان تنزل وتقول لهم ذلك . ان خطيبتى لن تأتي . ولا ادري أهو وسواس ، ام خشية ، ام نكث للعهد . . . وفي كل حال سأشرح لك الامر . . .

لكنه لم يقوَ على الاستمرار في الكلام ، بل تغضن وجهه ولم

يقل شيئا ، ثم انثنى فجأة وذهب الى العتمة يفتح ويغلق ادراجا ملأى بالملابس والكتب ، وقال :

— انني مزمع على الرحيل ، فلا يزعجني احد .

ووضع على الطاولة بعض الحوائج ،وآنية الزينة ومسدساً . . .

فخرج « مولن » شديد الهواجس ، دون ان يتجرأ على مكالمته او مصافحته .

وكان الناس ، في الاسفل ، قد استشعروا شيئاً من الاشياء فمعظم الفتيات قد ابدلن ثيابهن . وكانت مائدة الطعام قد مدت للعشاء في البناية الرئيسية ، فاقبل عليها الضيوف عجلين ، في فوضى ، شأنهم ساعة الانصراف .

وثمة ذهاب ومجيء مستمران بين المائدة والغرف العليا والاصطبلات، وحلقات تعقد بعد انتهاء الطعام، وجماعات يودع بعضها بعضاً .

ورأى « مولن » غلاماً يأكل عَجِلاً وعلى رأسه قبعة لبد وفوق صدره فوطة يتقي بها الطعام ، فسأله « ماذا يجري هنا ؟ » فاجاب :

— اننا ذاهبون ، وقد تقرر ذلك فوراً . لاننا نحن الضيوف

قد وُجدنا مجتمعين وحدنا عند الساعة الخامسة ، وانتظرنا عبثاً ، ولم يبقَ من يتوقع حضور الخطيبين بعد هذا الوقت ، فقال بعضهم : لعمري لو انصرفنا . . . وتهيأ الجميع للانصراف .

ولم يجب « مولن » بكلمة . فلا فرق عنده الآن ان يذهب ، ألم يبلغ نهاية مغامرته؟ . . . ألم يحصل هذه المرة على كل ما يبتغيه؟ وما تسنى له ان يستعرض في خـــاطره ، متمهلاً ، حديث الصباح الجميل . فليس من شاغل له الآن الا الذهاب . لكنه لن يلبث ان يعود – غير متنكر في المرة القادمة . . .

واستطرد الفتى يقول – وكان له عمر « مولن » :

– اذا شئت ان تصحبنا فعليك ان تتهيأ بعجل . لان الخيول ستقرن الى العجلات حالاً .

وانطلق « مولن » عدوا معرضاً عن الطعام الذي بدأ يأكله ، دون ان يفاتح الضيوف بما قد عرف . وكان الظلام يشتمل على الحديقة والساحة . ولم يكُ في النوافذ مصابيح ، هذه الليلة . هذا والمستأخرون من الضيوف ، ما برحوا جالسين الى المأدبة ، وهي اشبه ما تكون بمأدبة العرس في نهايته . وقد اخذ بعضهم ، ولعله

ثمل ، يرسل الاناشيد والاغاني . فيصغي « مولن » الى تلك الالحان ، الحان الخمارات تتعالى في هـــذه الحديقة التي شهدت ليومين خلوا فيضا من النعيم ، والغرائب الرائعة . وكان ذلك ايذاناً بحـلول التشويش والاختلاط . ومرّ « مولن » بالبركة التي تراءى فيها صبيحة هذا اليوم ، ولشد ما تغير كل شيء على صدى تلك الاغنية التي كان ينشدها المنشدون معاً ، فتصل الى الاذان موجات متقطعة :

من اين انت قادمة ، ايتها الفاجرة الصغيرة ؟
ان قبعتك ممزقة .
وشعرك مبعثر .
وهذه الاغنية الاخرى :
احذيتي حمراء .
وداعا يا غرامي .
احذيتي حمراء .
وداعاً بلا رجوع .

وما ان وصل عند قدم السلم المؤدية الى غرفته المنعزلة ، حتى التقى احد الناس منحدراً منها ، فاصطدم به في الظلام وقال له المجهول :

— الوداع يا سيدي !

وتلفع بردائه كمن لسعه القر وتوارى . فإذا هو «فرانز دي غاليه» .

وكانت الشمعة التى تركها فرانز في غرفته ما برحت تحترق وكل ما سوى ذلك باقياً على سابق ترتيبه . بيد ان هناك ورقة رسائل تحمل هذه الكلمات :

لقد توارت خطيبتي وانفذت اليَّ من يبلغني انها لا تستطيع ان تكون زوجتي ، وانها خيَّاطة لا اميرة . لا اعلم ما سيكون مصيري . اني لذاهب ، ولم تبقَ لي رغبة في الحياة . فلتغفر لي « ايقون » اذا لم اودعها ولكنها لن تستطيع شيئاً من اجلي .....

وذابت الشمعة واختلج لعابها ثم زحفت لحظةً وانطفأت . ودخل « مولن » الى غرفته واغلق الباب ، وعلى رغم الظلام تبين الاشياء جميعها التي كان قد رتبها لساعات مضت ، في ملء النهار وملء السعادة . وجدها قطعة قطعة ، من حذاءَيه الضخمين حتى نطاقه الغليظ ذي الابزيم النحاسي . فنزع ثيابه بسرعة وذهول والقى على كرسيّ ملابسه المستعارة لكنه غلط بالصدارة .

وسادت الفوضى ساحة العربات تحت النوافذ . فثمة جرّ ، وتدافع ، ونداءات . وكلٌ يحاول ان يسحب مركبته من الزحمة

المستحكمة، فهذا يتسلق اريكة عجلة وذاك يصعد ظهر اخرى ويدير فانوسه فيرتمي ضوءه على النافذة، فتلمع حول «مولن» تلك الغرفة التي الفها واصبح كل ما فيها يؤنسه، وتختلج لحظة وتعاودها الحياة... وهكذا غادر بعد ان اقفل الباب، هذا المقام المكتنف بالأسرار الذي لن يتسنى له ان يراه قط.

١٧

ها هو صف العربات يتدحرج نحو الباب الخشبي . وفي رأس القافلة رجل يعتمر جلد ماعز وفي يده مصباح ، يقود بالعنان فرس المركبة الاولى .

كان « مولن » يتململ ليجد من يهتم بأمره . فقد كان ينزع للرحيل السريع ، ويخشى لو هو بقي وحده في المزرعة ، ان تنكشف حيلته .

ولما وصل امام البناية الرئيسية كان السائقون يوازنون حمولة المركبات الاخيرة ويقيمون المسافرين من مواضعهم ، ليقربوا بين المقاعد او يؤخروها ، فتنهض الفتيات المؤتزرات مرتبكات وتسقط

الاغطية علـــى اقدامهن . فيلمح القلق مرتسما على وجوه اللواتي منهن يحنين الرؤوس في جهـــة الفوانيس . وعرف « مولن » بين الحوذيين الفتى القروي الذي كان قد دعاه الى مرافقته — فصاح به :

أأصعد ؟

فأجابه وقد تنكر عليه « مولن » :

— اين وجهتك يا صاح ؟

— ناحية « سانت اغات » .

عليك اذن ان تلتمس محلاً في عربة « ماريتان » .

وراح التلميذ الكبير يسعى ويبحث عن هذا المجهول ، «ماريتان» فدلوه عليه بين الشاربين وما برحوا يعربدون في المطبخ .

وقالوا له عنه :

— انه من أهل اللهو . ولن يبرح المكان قبل الثالثة صباحا .

وفكّر « مولن » لحظة بالفتاة القلقة . وتمثل ما بها مـن كآبة وحمى ، من سماعها اناشيد هؤلاء القرويين السكارى ، تعلو في جو المزرعة حتى منتصف الليل .

ففي أي غرفة هي ؟ واين نافذتها في هذه الابنية السريّة ؟ لكن

لا يجدي التلميذ شيئاً في ان يتأخر بعد، وعليه ان ينصرف . وعند رجوعه الى « سانت اغات » سينجلي امامه كل شيء . فلن يكون عندئذ تلميذاً هارباً ويمكنه من جديد ان يفكر بفتاة القصر .

وكانت العربات تذهب واحدة واحدة ، فتصرّ دواليبها على الرمل في الممر الكبير . فتراهـــا في هذا الليل تدور وتتوارى محملة بالنسوة المتلفعات الوجوه والاولاد المتلثمين ، وقد اغفوا . وهذه عربة كبيرة ، وهذه ايضاً مركبة ذات مقاعد ، جلست فيها النساء متلازّات كتفاً الى كتف ، وقد مرّت تاركة « مولن » مذهولاً امـــام باب المنزل . ولم يبقَ غير عجلة متهدمة يقودها قروي ذو سترة فاجاب حالما استعلمه « مولن » :

– بامكانك ان تصعد ، فنحن ذاهبون في هذه الناحية .

ففتح «مولن» باب العجلة بعناء فارتجّ زجاجه وصاتت الرزّات . وكان في زاوية المركبة على مقعد ولدان صغيران ، وفتى وفتاة وكلهم نيام . فاستفاقوا من الرجّة والبرد وتمطّوا ونظروا نظرات تائهة ، ثم تقلصوا في زاويتهم مرتعشين وعادوا الى الاغفاء .

كانت العربة الهرمة قد انطلقت فأغلق « مولن » بابها بهدوء

واستوى باحتراس في الزاوية الاخرى ، وراح يتميّز بنَهَمٍ من خلال الزجاج ، الامكنة التي يغادرها والطريق التي كان قد اقبل منها : فحزر برغم الليل ان العربة تجتاز الساحة والحديقة ، وتمر امام سلم غرفته وتُجاوز الباب الخشبي ثم تخرج من المزرعة لتدخل في الغاب ، وكانت جذوع الصنوبر ترى مبهمة الاشكال هاربة .

وقال « مولن » في نفسه ، خافق الصدر :

— لعلنا نلتقي « فرانز دي غاليه » .

وتحوّلت العربة فجأة عن عائقة قد اعترضتها في هذا الطريق الضيق . فإذا هي ، بمقدار ما سمح الليل من تميز اشكالها الضخمة ، مركبة عظيمة وقفت هنا في وسط الطريق، على مقربة من المهرجان خلال هذه الايام الاخيرة .

وانطلقت الخيل خبباً بعد اجتياز هذه العقبة . وكان « مولن » قد تعب من النظر عبر الزجاج لكثرة ما حاول عبثاً ان يخترق بابصاره الظلام المحدق . واذا بريق يلتمع في اعمق الغاب ويعقبه انفجار . فعدت الخيل، ولم يدر « مولن » في بادىء الامر ، هل ان الحوذي ذا السترة يجهد في شدّ اعنّتها ام انه على العكس يحثّها على الجري والانطلاق . وشاء ان يفتح الباب ، فلم يفلح لأن

مقبضته من الخارج . وحاول عبثاً ان ينزل الزجاج ، ثم هزهزه . فاستفاق الاولاد واخذتهم الرعدة ثم تدانوا وتلاصقوا دون ان يتكلموا . وفيما كان يهزهز الزجاج ملتصق الوجه به ابصر بفضل منعطف الطريق ، شبحاً ابيض راكضاً. فاذا هو رجل المهرجان المقنع ، يسير وحشيّ اللفتات متذعراً ويحمل بين ذراعيه جسداً بشرياً يشدّه الى صدره . ثم توارى كل شيء .

واغفى الولدان ثانية في المركبة الهاربة . ولم يك قط من يتكلّم بالاحداث الغريبة التي حصلت في اليومين المنقضيين . وبعد ان استعرض « مولن » في خاطره طويلاً كل ما سمع ورأى ، استسلم بادىء العناء ، مفعم القلب للرقاد كطفل كئيب .

. . . ولم يكن النهار قد انبثق ساعة وقفت المركبة على الطريق، واستفاق « مولن » على من يقرع الزجاج وفتح الحوذي الباب بعناء وصاح فيما كانت ريح الليل الباردة تقرّس تلميذنا حتى عظامه .

— يجب ان تنزل هنا فقد طلع النهار . سنسير نحن في المقربة ، وانت قد اصبحت في ضاحية « سانت آغات » .

وانطوى على نفسه واذعن . وراح يتلمس بحركة لاشعورية قبعته المتدحرجة عند اقـدام الولدين النائمين في اظلم زاوية من العربة . ثم خرج منحني الرأس .

وقال له الرجل وقد صعد الى اريكته :

– هيا والى الملتقى . لم يبقَ امامك الا ستة اميال وهاك المَعْلم هنا على حافة الطريق .

ولم يكن «مولن» قد انتزع بعد من نومه فمشى متمايحاً وبخطى ثقيلة حتى مَعْلم الطريق ، فاقتعده مكتوف اليدين مائل الرأس كأنه يعود الى الرقاد . وصاح الحوذي :

– لا ! لا يجوز ان تنام هنا، فالليل بارد . هيا قف وامش قليلاً .

وترنح كالسكران وسلك متمهلاً طريق « سانت آغات » مخبوء اليدين في جيبيه ، مقوّس الكتفين، بينما كانت العجلة وهي آخر أثر من آثار المهرجان العجيب، تجتاز الطريق وتبتعد خابّة بصمت فوق اعشاب المقربة . ولم يبقَ مـا يُرى ، إلا قبعة الحوذي تتراقص فوق الحواجز . . .

١٨

الرياح العاصفة والقرّ، والمطر والثلج، وتعذُّر قيامنا بالبحث والاستقصاء الطويلين، كل هذا حال دون ان نتحدث، «مولن» وانا، عن البلد الضائع قبل نهاية الشتاء. فلم يكن بالاستطاعة ان نشرع في امر جدّي خلال تلك النهارات القصيرة من شباط، او من ايام الخميس المعتكرة بالعواصف التي تنقضي بانتظام عند الساعة الخامسة وتختم بمطر قارس كالح. فلا شيء يذكرنا بمغامرة «مولن» الا غرابة ما اصبحنا فيه من الافتقار الى الاصدقاء منذ بعد الظهيرة من يوم رجوعه. فالالعاب في ساعات الاستراحة هي هي، لكن «جسمان» انقطع عن مكالمة «مولن»

الكبير . وفي الامسيات تقفر الساحة شأنها يوم كنت وحيداً، فأرى رفيقي يجول بين الحديقة والسقيفة وبين الساحة وغرفة المائدة .

وكنا صباح كل خميس نجلس كلانا على مكتب احدى غرفتي التدريس ونطالع «روسو» و «بول لويس كوريه» وقد وقعنا على هذه المؤلفات في الخزائن بين «اصول اللغة الانكليزية» ودفاتر في الفن الموسيقي منقولة بخط منمق . ونذهب بعد الظهر في زيارة، ثم نعود الى المدرسة وكان يحدث ان نسمع احياناً جماعـــات من التلاميذ الكبار يقفون لحظة امام الرتاج، كأنهم وجدوا هنا مصادفة ويقرعونه اذ يقومون بالعاب عسكرية لا نفهمها ثم ينصرفون ... واستمرت هذه الحياة الكئيبة حتى نهاية شباط . وكنت قد بدأت أحسب ان «مولن» نسي كل شيء حين طلعت علينا مغامرة اشد غرابة من الاخرى وجاءت تدلل على خطإي وعلى ان ازمة عنيفة تتمخض تحت الستار الكالح من هذه الحياة الشتائية .

في مساء يوم خميس من اواخر الشهر ترامى الينا النبأ الاول عن الدارة العجيبة بل الموجة الاولى من تلك المغـامرة . وكنا في ابان السهرة ومعنا ابي وامي ولم يكونا يعرفان شيئاً عن النفار الخفي الذي جعل من التلامذة كافة حزبين متخاصمين .

وفي الساعة الخامسة فتحت « ميليا » الباب لترمي فتات الطعام وقالت : آه ! بصوت جهير جعلنا نقترب لننظر . واذا بطبقة من الثلج على المدخل . وكان الظلام حالكاً ، فتقدمت لأرى هل الطبقة كثيفة واستشعرت ندائف خفيفة تنزلق على خدي وتذوب للحال . فردوني الى الداخل بسرعة واغلقت « ميليا » الباب مقرورة .

وفي الساعة التاسعة تهيأنا للنوم وكان في يد والدتي مصباح ، واذا بنا نسمع رجة ضربتين شديدتين على الرتاج في الطرف الآخر من الساحة .

فألقت المصباح على الطاولة ولبثنا وقوفاً ، مترصدين ، مرهفي الاسماع . وما كان بالمستطاع ان نذهب لنستطلع الامر . ذلك اننا سوف لا نجتاز نصف الساحة حتى ينطفئ المصباح وتنحطم الزجاجة . وساد صمت قصير المدى . وما شرع والدي يقول « لا ريب ان هذا . . . » حتى دوت صفارة حادة الصوت مستطيلته تحت نافذة المائدة التي تشرف ، كما قلت سابقاً ، على طريق المحطة وسُمع صفيرها بلا شك في شارع الكنيسة . وللحال تفجرت وراء النافذة الزجاجية صيحات وزعقات : « جيئوا به ! جيئوا به ! ولعلهم جماعة تطالـوا على الافريز بقوة السواعد .

وجاوبتهم اصوات مثلها في الطرف الآخر من البناية. اما هؤلاء فقد يكونون اجتازوا حقل العم «مرتينوس» وتسلقوا الحائط الوطيء الذي يفصل بين الحقل وساحتنا.

وتعالت الاصوات الصاخبة متنكرة: «جيئوا به» والصائحون مجهولون، ولعلهم ثمانية او عشرة. وهم في كل مكان — على سطح مخزن المؤونة وقد رقوا اليه على حزم الحطب الملقاة جانب الحائط — وعلى حائط صغير يصل بين السقيفة والرتاج ويستدير سطحه على شكل يسهل معه الركوب فوقه — وعلى الحائط المشبك المحاذي طريق المحطة حيث يتيسّر الصعود... ثم طلعت زمرة مستأخرة من الوراء، في الحديقة، تصيح بلغة القرصنة:

— الى الهجوم!

وتجاوبت صيحاتهم في غرف التدريس المقفرة؛ وقد فتحوا نوافذها. وكنا، «مولن» وانا، نعرف تعاريج المنزل الرحب ومعابره بحيث كانت جميع النقاط التي سدد هؤلاء المجهولون هجومهم منها واضحة امامنا كأننا نتتبَّعها على خريطة.

والواقع اننا استشعرنا الخوف، في اللحظة الاولى فحسب.

فصوت الصفارة حملنا على الظن أن ثمة هجوماً تقوم به عصابة من الرعاع او البوهيميين . ذلك ان احد كبار اللصوص شوهد منذ خمسة عشر يوماً في الساحة ما وراء الكنيسة، ومعه فتى صغير مطوق الرأس بالعصائب . وثمة ، عند الحـــدادين والبياطرة، عمَلة غرباء عن البلاد .

الاّ اننا حالما سمعنا صياح المهاجمين ، ايقنّا اننا تجاه قوم — والارجح انهم شبان — من الدسكرة . ومن الراهن ان في تلك العصابة التي اندفعت لمهاجمة منزلنا كمهاجمتها احدى السفن ، بعض الصبية الذين تبيّنّا اصواتهم الحادة .

وصاح والدي :

هذا لعمري . . .

وامي بصوت خفيض :

— لكن ، ما معنى هذا ؟

ثم انقطعت على التوالي الاصوات المتصاعدة من الرتاج، فالحائط المشبك ، فالنافذة وانطلقت صفرة عقبتها اخرى ما وراء الكوة، ثم تخافتت شيئاً فشيئاً اصوات الذين تسلقوا سطح حجرة المؤونة ،

فاصوات الذين هاجموا من الحديقة ، ثم تلاشت . وسمعنا طوال حائط المائدة حفيف هذه العصابة المرتحلة بخفقة قدم ، وقد تخافت وقع الخطى في الثلوج .

ولا ريب ان هناك من نفّرهم . ففي هذه الساعة التي يرقد فيها كل شيء حسبوا ان باستطاعتهم مهاجمة هذا المقام المنعزل بطمأنينة لكن هناك من افسد عليهم خطة الاعتداء .

ما كدنا نستعيد رباطة الجأش — فالهجوم كان مفاجئاً وكأنه تطويق سفينة محكم القيادة — ونتهيأ للخروج حتى سمعنا صوتاً لا نجهله ، ينادي من الباب الصغير المشبك :

— السيد «سوريل» ! السيد «سوريل» !

وكان المنادي السيد « باسكيه » الجزار . وحك هذا الرجل القصير القامة الضخم الجثة قبقابيه على اسكفة الباب ، وهزهز عن سترته القصيرة جوالح الثلج المذرورة عليها ودخل . وتكلف سيماء الرجل الداهية المذعور الذي نفذ الى سريرة قضية خطيرة غريبة الاطوار . قال :

— كنت في باحة داري المطلة على ساحة «الطرق الاربعة»

وذهبت لأقفل زريبة الجديان ، واذا بشبحين منتصبين على الثلج . وماذا أرى ؟ رأيت فتيين كبيرين بدا لي انهما في وقفة حرس يترصدان شيئاً وكانا في ناحية الصليب فتقدمت وخطوت خطوتين واذا بهما ينطلقان عدواً في ناحية منزلكم . ولعمري لم اتردد بل حملت مصباحي وقلت :

سأذهب لاخبر السيد « سوريل » بهذا .

وعاد يكرر ويراجع قصته :

« كنت في الباحة وراء البيت . . . »

وقدمنا له قدح خمر قبلها . . . وسألناه بعض التفاصيل فعجز عن ادائها .

فهو لم يشاهد احداً عند وصوله الى البيت . والجماعات التي نبهها الحارسان الى وجوده توارت للحال . واستطرد يقول :

– يجوز ان يكونوا من البوهيميين . فهؤلاء يحتلون ساحة القرية منذ شهر وينتظرون صحو الطقس ليقوموا بالعابهم ، ولا بد ان يكونوا قد دبروا مؤامرة سوء .

بيد ان كل ذلك لم يفضِ بنا الى نتيجة ، فلبثنا وقوفا في قلق بال شديد فيما كان الرجل يتمزز خمرته ويعود الى سرد قصته . وكان « مولن » قد اصغى حتى الساعة بانتباه عظيم الى الحديث، فتناول مصباح الجزار عن الارض وقال جازماً :

— يجب ان نذهب لنرى .

وفتح الباب فتبعناه السيد « سوريل » والسيد « باسكيه » وانا.

اما « ميليا » ، وقد اطمأنت الى انصراف المهاجمين، فقد سكن روعها . وكمثيلاتها من الرتيبات المتنوقات (وهي بطبيعتها قليلة الفضول) لم يعنها من امرنا الا ان تقول :

— اذهبوا اذا شئتم لكن اقفلوا الباب وخذوا المفتاح واني ذاهبة الى النوم وسأترك المصباح مضاء .

١٩

سرنا على الثلج في صمت عميق . ومشى « مولن » في الطليعة يدير كالمروحة ضياء مصباحه المشبك. وما خرجنا من الرتاج الكبير حتى انطلق من وراء القبان البلدي المسند الى حائط الملعب ، شخصان ملثمان ، دفعة واحدة كفراخ الحجال المنفرة . وتلفظا في هربهما بكلمتين او ثلاث تقطعها الضحكات . وما ادري اهزء بنا هذا ، ام تلذذ منهما بلعبتهما الغريبة ام تهيج اعصاب ام خوف من ان يدركهما احد .

وترك « مولن » مصباحه يقع في الثلج وصاح بي :

— اتبعني يا « فرنسيس » ! . . .

لم يكُ باستطاعة رفيقينا المسنّين ان يكابدا مشقة الركض ، فتركناهما وشأنهما وانقضضنا في اثر الظلين اللذين بعد ان استدارا حول اسفل القرية ، متتبعين طريق « لافياي بلانش » قفلا صاعدين نحو الكنيسة متعمدين . وكانا يركضان بانتظام دون ما افراط في السرعة، ولم يكن يصعب علينا ان ندركهما ؛ واجتازا شارع الكنيسة حيث يخيم الصمت ويغفو كل شيء، واندفعنا وراء المقبرة في متاهة من الأزقة والمضايق .

ههنا حي ينزله العملة والخياطات والحاكة ويطلق عليه اسم « الزاوية الصغيرة » وكانت معرفتنا به ضئيلة . فلم نكُ قط قد اتيناه ليلاً . والمكان قفر في النهار عادة بسبب تغيب العملة وانزواء الحاكة في محالهم المقفلة . وبدا ، في هذه الليلة الواسعة الصمت والسكون ، اكثر هجراناً واعمق رقاداً من سائر احياء الدسكرة. واذن فليس ثمة امل في ان يطالعنا مساعد او ناجد .

وما كنت اعرف بين تلك المنازل المزدرعة ، كيفما اتفق ، كعلب من الورق المقوّى ، الا طريقا واحداً يؤدي الى الخياطة الملقبة « بالخرساء » . وهو ذو وعورة وحدور ، مبلط مكاناً بعد آخر ، يدور السالك فيه ثلاث مرات حول ساحات الحاكة الضيقة،

والاصطبلات المهجورة ، ثم ينتهي الى زقاق واسع تسده مزرعة مقفرة كالطلل الخالي .

وفي منزل « الخرساء » ، فيما مضى ، حينما كانت هذه تجاذب امي ، مرتجفة الاصابع ، حديثاً صامتاً ، يقطعه نقيقها السقيم ، كنت ارى من الكوة حائط المزرعة الكبير ، تلك المزرعة التي هي البناية الاخيرة ، في هذه الناحية من القرية ، وارى حاجز الساحة الجافة المقفل ابداً ، ولا اثر للتبن فيها ، او لعابر سبيل يمرّ . . .

هذا هو الطريق ذاته الذي سلكه المجهولان . وكنا نخشى ، عند كل منعطف ، ان نضل عنهما . بيد اننا ، وهذا ما دهشنا له ، كنا دائماً نصل الى ثني الزقاق التالي قبل ان يتركاه . قلت ان هذا ما دهشت له ، والواقع ان الامر لم يكن ممكناً بسبب قصر الازقة ، لو لم يكونا يتمهلان ويتوأدان كلما تواريا عن الابصار .

ثم انخرطا ، دون ما تردد ، في الشارع المنتهي الى منزل «الخرساء» فصحت بمولن :

– لقد وقعا في يدنا ، فهذا زقاق لا منفذ له .

والواقع اننا نحن اللذين وقعنا . فلقد قادانا الى حيث ارادا .

وعندما بلغا الحائط انثنيا نحونا بصدق عزيمة ، واطلق احدهما صفيراً وهو نفس ما سبق ان سمعناه ، مرتين ، هذا المساء . وانبرى للحال من ساحة المزرعة المهجورة ، عشرة فتيان متلفعي الوجوه باللُّثم ، كانوا يترصدون قدومنا . . .

اما من عساهم يكونون ، فقد كنا نعرف ذلك من قبل لكننا اعتزمنا الا نشي بهم الى السيد « سوريل » الذي لا تعنيه قضايانا . فهم « دلوش » و « دنيس » و « جيرودا » وسائر الطغمة . وعرفناهم اثناء العراك من طريقتهم في المضاربة ومن اصواتهم المتقطعة . بيد ان هناك نقطة مقلقة يبدو ان « مولن » كاد يخافها :

فقد كان فيهم واحد لم نعرفه ، ويبدو انه الزعيم . . .

لم يكن ليمسّ « مولن » قط ، بل كان يراقب حركات جنوده ، وقد اقتضاهم الموقف جهداً عظيماً . فقد مُرغوا في الثلوج باخلاقهم الرثة البالية من الاعلى حتى الاسفل ، وتشرّسوا على الفتى الكبير اللاهث ، وتولى امري اثنان منهم . فاستطاعا ان يثبتاني بعد جهد ، لانني اهتجت كالشيطان . ولبثت على الارض ، مطوي الركبتين ، مقتعدا مؤخر قدميّ . وقد امسكا ذراعيّ مضمومتين من الوراء ، فيما كنت اراقب المشهد بلهفة شديدة يخالطها الذعر .

وتفلت « مولن » من اربعة فتيان من الصف كانوا قد تشبوا في صدرته ، اذ دار على نفسه بعنف ثم طرحهم بعيداً في الثلج . . . وكان الفتى المجهول منتصباً على ساقيه، في وقفة جدّ مستقيمة يتتبع المعركة باهتمام لكن بهدوء كثير . ويردد من وقت الى آخر بصوت واضح :

هيا ! تشجعوا . . . اعيدوا الكرة . . .

ولا ريب انه الآمر . فمن اين اتى ؟ اين وكيف دربهم على المعركة ؟ هذا ما بقي سراً اغلق علينا فهمه . لقد كان كسائر رفقائه ، متلفع الوجه بلثام . ولما تفلتت « مولن » من خصومه وتقدم نحوه مهدداً ، تحرك ليستخفي ويجبه الموقف ، فبدت قطعة من النسيج الابيض ملفوفة حول رأسه على شكل عصابة .

وصحت بمولن في هذه اللحظة :

— احذر ما وراءك ! فهناك آخر . . .

وما تسنى له ان يلتفت حتى انبرى له من الحاجز وراءه شيطان كبير أمرّ لثامه بمهارة حول عنق صديقي وقلبه على مؤخرته . واذا بأخصام « مولن » الاربعة الذين كانت قد اغتوزت آنافهم في

الثلج ، يعيدون الكرة ويجمّدون ساعديه وساقيه ، فيقيّدون ساعديه بحبل وساقيه بلثام ، بينما راح الفتى ذو الرأس المعصوب يفتش جيوبه . . . اما صاحب الاحبولة الذي طوّق عنق « مولن » فقد اضاء شمعة صغيرة وقاها بيده . وكان الزعيم كلما عثر في جيوب « مولن » علـــى ورقة جديدة يذهب الى قرب هذا النور الضئيل ليتفحص ما تنطوي عليه . ثم نشر تلك الخـارطة المحشاة بالخطوط التي كان «مولن» مابرح يعمل على استكمالها منذ رجوعه وصاح بفرح :

– واخيراً فزنا به . هـا هو التصميم ! وها هو الدليل ! وسنرى اذا كان هذا السيد قد ذهب الى حيث اتصور . . .

وأطفأ شريكه الشمعة . ثم لمّ كلٌ من هؤلاء هذا قبعته وذاك منطقته ، وتواروا جميعاً بصمت مثلما جاءوا وتركوني حرًّا في ان احل قيد رفيقي .

وقال « مولن » بينما كان ينهض :

– لن يذهب بعيداً بهذا التصميم .

وانصرفنـــا متوئدين ، لأنه كان يعرج قليلاً . والتقينا السيد « سوريل » والعم «باسكيه» في طريق الكنيسة وقالا :

ـ ألم تريا احداً ؟ . . . ونحن كذلك .

ولم يتبيّنا شيئاً مما بنا بفضل الظلام الحالك . وغادرنا الجزار، وهرول السيد « سوريل » الى النوم مسرعاً .

امـــا نحن الاثنين ، فقد لبثنا برهة طويلة في غرفتنا ، فوق ، نرقع صدرتينا المفتقتين على ضوء المصباح الذي تركته لنا « ميليا » ونتحدث بصوت خفيض في ما حدث لنـــا ، كرفيقي سلاح مساء الهزيمة . . .

٢٠

وصحونا صباح الغد بجهد . ففي الساعة الثامنة ونصف الساعة ، حين اوشك السيد « سوريل » ان يعطي اشارة الدخول ، وصلنا لاهثين لننتظم في الصفوف . وجئنا متأخرين ، فانزلقنا حيثما وكيفما اتفق . وكان « مولن » يحلّ عادةً في المرتبة الاولى من الصف المستطيل ، ويسير التلامذة ، المرفق علـــى المرفق ، مثقلين بالكتب والدفاتر والاقلام ، فيراقبها السيد « سوريل » .

ودهشت لما تبينت من غيرة صامتة في التخلي لنا عن محال عند منتصف الصفوف ، وفيما كان السيد « سوريل » ، وقد أخر الدخول بضع ثوان ، يتفحص « مولن » الكبير ، مددت رأسي بفضول متلفتاً

يمنة ويساراً لأتبين وجوه أعداء الليلة الفائتة .

كان اول من رأيت ، ذلك الذي ما برحت افتكر به، لكنه آخر من كنت اتوقع وجوده في هذا المكان . ووقف في محل « مولن » المعتاد اي في الطليعة ملقياً رجله على درجة الحجر ومسنداً احدى كتفيه وطرف الجراب الذي على ظهره الى اطار الباب . وكان وجهه المسنون ، الشديد الشحوب ، المشوب بمسحة من كلف ، مائلاً متلفتاً نحونا بشيء من الفضول الساخر المزدري . اما رأسه وأحد خديه فمعصوبان بالنسيج الابيض . فعرفت فيه رئيس العصابة البوهيمي الفتى الذي سرقنا ليلة امس .

وها نحن قد دخلنا الى المدرسة واستوى كل في مكانه ، فجلس التلميذ الجديد قرب العمود ، عن شمال المقعد الطويل الذي كان « مولن » يحتل عن اليمين المقام الاول فيه . واماَّ « جيرودا » و « دلوش » والثلاثة الاخرون الجالسون على المقعد الاول فقد التزّ الواحد منهم بالاخر ليهيئوا له مكاناً . وكأنهم على سابق اتفاق...

وكثيراً ما كان يمر بنا في الشتاء ، تلامذة مصادفة ، من الملاحين الذين استوقفهم جليد الترعة ، او من خدم الصناعة والمسافرين الذين عاقتهم الثلوج . فيخالطوننا في الصفوف يومين او شهراً وقلما

لبثوا مدة اطول . . . وهم عندئذ ، اداة فضولنا في الساعة الاولى ، ثم يهمل امرهم للحال ، ويتوارون بسرعة في غمر التلامذة العاديين .

غير ان هذا التلميذ لم يكن ممّن يسهل نسيانهم . فاني ما زلت اذكر هـــذا الكائن النادر وجميع الذخائر العجيبة المحمولة في ذلك الجراب المعلق في ظهره . فثمة مسكات ريش ذات نظارات قد استخرجها ليكتب الاملاء ، وفي مقابضها ثقوب زجاجية ، ترى من خلالها اذا اطبقت احـــدى عينيك مشهداً معتكراً مضخماً لمعبد « لورد » او لاثر آخر مجهول . واختار احداها ثم مرّت الأخر للحال من يد الى يد . وهناك علبة ملأى بالبركارات وادوات التلهي التي سيقت الى مقعد الشمال وراحت تنزلق بصمت وخفاء من يـد الى اخرى ، تحت الدفاتر ، حتى لا يرى السيد « سوريل » شيئاً .

ومرت على هذه الصورة كتب جدد ، كنت قد قرأت عناوينها في ظاهر الغلافات ، بين الكتب القليلة الموجودة في مكتبتنا :

« غابة الشحارير » « وصخرة طيور البحر » « وصديقي بنوا » . . .

فمن التلاميذ من كان يتصفح على ركبتيه وباحدى يديه هـذه الكتب المجهولة المصادر . ولعلها سرقت ، فيما كان يكتب الاملاء

باليد الاخرى . ومنهم من كان يدير البركار تحت اطباق المناضد . وبينما كان السيد «سوريل» يتابع نص الاملاء، مولياً ظهره، متمشياً بين المكتب والنافذة، كان آخرون، يغمضون احدى العينين، ويلصقون بالاخرى مشهد «نوتردام دي باري» فيبدو اغبر مثقوباً .

هذا، والتلميذ الغريب قابض على القلم، وجانب خده الدقيق على العمود الرمادي، يغمز بعينيه مسروراً بهذا اللعب الخفي القائم حوله .

على ان المدرسة سادها القلق، شيئا فشيئاً، فالادوات العابرة على التوالي، كانت تصل الى يدي «مولن» الكبير الواحدة بعد الاخرى، فيطرحها جانباً قربه باستخفاف دون ان ينظر فيها . وتجمعت منها كومة منضدة مختلفة الالوان، مما يُرى تحت قدمي المرأة التي تمثل المعرفة في التصاوير الرمزية . وكان من المحتوم الاّ يفوت السيد «سوريل» هذا المعرض الغريب فتنكشف له الالعوبة . ويقوم عند ذلك بتحقيق عن حوادث الليل وهي مهمة يسهل معالجتها وجود البوهيمي .

والواقع انه ما عتم ان وقف متحيراً امام «مولن» الكبير وسأله:

– لمن كل هذا ؟

مشيراً الى «كل هذا» بقفا كتابه المغلق على سبابته .

واجاب «مولن» بفظاظة دون ان يرفع رأسه :

– لست ادري .

وتدخل الطالب المجهول فقال :

– انه لي .

واستطرد للحـــال يقول ، بايماءة عريضة انيقة ، ايماءة المولى الخطير التي لم يستطع المعلم الشيخ امامها مقاومة :

– لكنني اضعها تحت تصرفك، يا سيدي، اذا شئت ان ترى.

وفي بضع ثوان، دونما ضجيج يعكر هذا الوضع الجديد الناشىء، استجمع الصف كله حـــول المعلم المنحني على هذا الكنز برأس تساوى فيه الصلع وتقبّض الشعر، وحول الفتى الشاحب المسترسل في الشرح ، بسيمائه الظافرة الهادئة .

هذا و«مولن» صامت على مقعده ، متروك وشأنه يفتح دفتر المسودّات ويستغرق، مقطب الحاجبين، في حل قضية حسابية عسيرة.

وفجأنا «ربع ساعة» الاستراحة اذ نحن في هذه المشاغل. فلم نكن قد انتهينا من الاملاء، والمدرسة فوضى. والحقيقة ان «التنزيهة» مستمرة منذ الصباح.

واذن، عندما اجتاح التلامذة الساحة القائمة الموحلة عند الساعة العاشرة والنصف، بدا للحال ان سيداً جديداً يتسلط على الالعاب. وما اذكر من المباهج الجديدة التي ادخلها البوهيمي عندنا منذ هذا الصباح، الا اشدها تدمية وايلاما: وهو ضرب من المباراة يكون فيها التلاميذ الكبار خيولاً يتعرش الصغار على اكتافها. وينقسمون فرقتين تنطلقان من طرفي الساحة. فينقضون بعضهم على بعض سعياً لجندلة الخصم بعنف الصدمة، فيما يستعمل الفرسان كوفياتهم كالاحابيل، واذرعتهم كالرماح جاهدين ان يطرحوا المنافسين عن مطاياهم. فهناك من تجنّبت صدماتهم ففقدوا توازنهم وراحوا يتمرغون في الوحول بينما تدحرج الفارس. وهناك تلامذة كادوا ينقلبون فامسكت خيولهم بارجلهم، فتعرشوا عليها من جديد: وعادوا ينصبّون في المعركة بشراسة. وكان الفتى الرشيق ذو الرأس المعصوب، على كتفي «دلاج» الكبير صاحب الاعضاء المستطيلة، والشعر الاصهب، والاذنين الممسوحتين، يستحثّ

الفرقتين المتناوئتين ويقود مطيته بمكر فيما يقهقه قهقهات عالية.

وكان «اغوسطين» بادىء الامر على باب المدرسة ينظر هذه الالعاب بسأم وكنت بالقرب منه متردداً ثم قال مغمغماً ويداه في جيبيه :

انه لماكر . فمجيئه الى هنا منذ الصباح كان الوسيلة الوحيدة لرفع الشبهات عنه . وقد انطلت الحيلة على السيد «سوريل» .

ولبث هنا برهة ، معرضاً رأسه الحليقة للريح يجدف على هذا الممثل الذي يستهدف هؤلاء الفتيان للتقتيل ، وقد كان هو ، لفترة مضت قائدهم الاوحد . وما كان بوسعي انا الولد الساكن الا ان اوافقه . واستمرّ العراك في غيبة الاستاذ في كل مكان وزاوية . وكان الصغار قد اصبحوا يتعرّشون بعضهم على بعض ثم يركضون وينقلبون قبل ان يتلقوا صدمة من الخصم . . . وما لبثت الساحة ان خلت ، الا من نفر متشرس يدور افراده كالاعصار ويطلع من بينهم ، حيناً بعد حين ، عصابة بيضاء هي عصابة الزعيم الجديد .

لم يبق عندئذ في استطاعة «مولن» ان يكبح من جماح نفسه فخفض رأسه ووضع يديه على فخذيه وصاح بي :

هيا بنا يا «فرنسيس» !

وفجأني هذا العزم البديهي . بيد انني لم اتردد وقفزت على كتفيه وكنا بعد لحظة في صميم الوقيعة بينما هام معظم المتعاركين على وجوههم صائحين :

– هوذا « مولن » . هوذا « مولن » الكبير ! ! !

وشرع يجول دائراً على نفسه في وسط من بقي ويقول لي :

– امدد ذراعك . امسك بهم كما فعلت انا في الليلة الفائتة .

وسكرت بالعراك موقناً بالنصر ، فصرت اختطف من صادفت من الفتيان فيتخبطون ثم يتمايدون لحظة على اكتاف الكبار ثم يسقطون في الوحل . وفي اقل من ثوانٍ لم يبق منتصبا الا الزائر الجديد ، مرتكباً كتفي « دلاج » . بيد ان هـذا لم يكن شديد الرغبة في ان يشتبك و« مولن » فاعتدل الى الوراء بعنف وانزل فارسه الابيض .

وكالقائد الذي يمسك لجام فرسه القى الفتى الحدث يده على كتف مطيته فيما كان واقفاً على الحضيض ينظر الى « مولن » الكبير بشيء من التأثر وباعجاب عظيم وقال :

– نعماً ، نعماً !

بيد ان الجرس قرع للحال. وتفرق التلامذة الذين تألبوا علينا بانتظار مشهد طريف. وساء «مولن» الاّ يكون قد اسعفه المجال ليطرح خصمه ارضا فولاه ظهره قائلًا بحنق :

– موعدنا المرة القادمة !

واستمر «الصف» حتى الظهيرة تتخلله – كأننا على موعد بالعطلة المدرسية – فترات من التلهي والاحاديث كان محورها التلميذ المهرج. وكان يشرح كيف ان البرد حصرهم في الساحة ؛ فانصرفوا عن التفكير باقامة تمثيليات ليلية لن يحضر اليها احد، وعزموا على ان يذهب هو الى الصف نهاراً للتلهي، فيما يعنى رفيقه بطيور الجزر وبالعنزة المدربة. ثم يروي ما قاموا به من الاسفار في البقاع المجاورة والامطار تتساقط على سقف التوتيا الرديء الذي يعلو مركبتهم، فيرغمون على النزول الى جوانبها ودفعها بالدواليب. وكان تلامذة المؤخرة يتركون منضدتهم للاصغاء اليه عن كثب فيفيد اقلهم كلفا بالاقاصيص، من هذه المناسبة، ليستدفئوا حول الموقد. ثم لا يلبث الفضول ان يمتد اليهم فيقتربون من الحلقة الثرثارة مرهفي الآذان، بينما يتركون احدى اليدين ملقاة على صفيحة المدفأة ليحتفظوا بامكنتهم حولها.

رأى الحاجز نصف مغلق ونصف منقلب (ص ٧١)

وكان السيد « سوريل » يتتبع كل هـــذا بشيء من الفضول الصبياني، فضول معلم المدرسة، ويعطره من الاسئلة الى ان قال له : ومِمَّ تتعيّشون ؟

فتردد الغلام لحظة وكأنـــه لم يضق صدره يوما بهذا الامر ثم اجاب :

– لعمري اننا نعيش مما اصبنا في الخريف السالف ، على ما اظن . و« غناش » هو الذي يتولى امر الحسابات .

ولم يسأله احد من يكون « غناش » هذا . لكنني فكرت بالشيطان الكبير الذي هاجم « مولن » غدراً من الوراء، ليلة امس وقلبه . . .

٢١

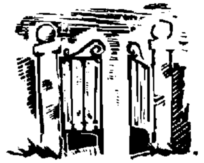

وجاء العصر فعادت المباهج والفوضى والخداع طوال ميقات الدرس . فقد جاء البوهيمي باشيـــاء طريفة ، كالاصداف ، والألاعيب ، والاناشيد ، حتى وبقرد صغير كان في داخل خرجه يخمشه باظافره خمشاً أصمّ . . . وكان على السيد « سوريل » ان ينقطع عن الالقاء ، كل لحظة ، ليرى ما قد اخرج الفتى الماكر من كيسه . . . وآذنت الساعة الرابعة ، ولم يكن من قد انهى فرض الحساب الا « مولن » .

وخرج الجميع دون ما عجل وتهافت اذ لم يبقَ ، على ما يبدو ، بين ساعات الدرس والاستراحة ، ذلك الحد الصارم الذي يجعل

الحياة المدرسية بسيطة ومنتظمة على نحو ما يتعاقب الليل والنهار. حتى لقد فاتنا ان نعين للسيد «سوريل»، على ما جرت عليه عادتنا حوالي الساعة الرابعة الا عشر دقائق، من هما التلميذان اللذان يجب ان يبقيا لكنس المدرسة. وهذا امر لم نكن لنتنكب عنه قطّ، لانه كان الوسيلة لاعلان وتعجيل ساعة الانصراف من الصف.

وشاءت المصادفة ان يكون دور «مولن» في هذا النهار. وكنت منذ الصباح، قد اعلمت البوهيمي في حديثي معه، ان القادم الجديد من التلامذة هو ابدا وحتما الكانس الثاني في يوم قدومه.

ورجع «مولن» الى المدرسة حالما تناول رغيف العصر. اما البوهيمي فقد ابطأ ثم وصل راكضا عندما اخذ الليل بالهبوط.

وكان قد سبق لرفيقي ان قال لي:

– ستبقى في المدرسة. وبينما اكون قابضاً عليه ستسترجع انت الخريطة التي سرقها مني.

واقتعدت طاولة صغيرة بقرب النافذة، أقرأ على آخر اضواء النهار. وانظر اليهما ينقلان مقـــاعد المدرسة صامتين – في وجه «مولن» الكبير عبوس وقسوة ملامح، يرتدي قميصـــاً اسود

تشده من الوراء ثلاثة ازرار وفي الوسط حزام . اما الآخر فهو دقيق عصبي المزاج ومعصوب الرأس كالجريح ، يلبس معطفاً رديئاً تتخلله ثقوب وخروق لم ارها قط في النهار . ويملأه نشاط يكاد يكون وحشياً فيرفع الطاولات ويدفعها بسرعة جنونية فيما يبتسم ابتساماً ضئيلاً . حتى ليخيّل اليك انه يلعب لعبة خارقة يفوتك سرّها .

وانتهيا الى اكثر الزوايا عتمة في الغرفة ليزيحا الطاولة الاخيرة. وكان باستطاعة « مولن » في هذا المكان ان يطرح خصمه بدورة واحدة من يده ، دون ان يراهما احد من الخارج او يسمعهما من خلال النوافذ. وما ادركت السبب في ان تفلت منه فرصة كهذه. وكان الآخر قد اصبح على مقربة من الباب على وشك ان يهرب لو شاء بحجة الفراغ من العمل ، وسوف لا نراه قط فيما بعد . فتضيع منا تلك الخريطة والمعلومات التي قضى « مولن » ردحاً من الزمن في البحث عنها والتوفيق بينها وجمعها . . .

وكنت في كل لحظة انتظر من رفيقي اشارة او إيماء تؤذن ببدء المعركة . بيد ان الفتى الكبير لم يتحرك . لكنه كان حيناً بعد حين ينظر نظرات ثابتة غريبة ، فيها تساؤل واستفهام ،

الى عصابة البوهيمي التي كانت تبدو ، في تلاشي الضياء ، ملطخة ببقعة سوداء عريضة .

وازيحت الطاولة الاخيرة دون ما حادث .

بيد انهما عندما اتجها الى اعلى الغرفة ليسوقا المكنسة في آخر جرّة عند العتبة قال « مولن » منحني الرأس وبصوت خافت دون ان يلتفت الى خصمنا :

ـ ان عصابتك حمراء من الدم واثوابك ممزقة .

فنظر اليه الآخر ، لحظة ، لا متعجباً مما يقول ، بل عميق التأثر بأن يسمع ذلك القول منه ، واجاب :

ـ «لقد شاءوا ان ينزعوا مني خريطتك، الآن، عند الساحة . لانهم اذ علموا انني آت لكنس المدرسة ادركوا اني سأعقد الصلح معك ، فثاروا عليَّ ». واضاف بأنفة، فيما كان يناول « مولن » القرطاس الثمين مطوياً :

ـ ولكنني انقذته .

وتلفت « مولن » اليَّ وقال :

— أسمعت ؟ لقد تضارب وجرح في سبيلنا ، بينما كنا ننصب له الفخ .

ثم انقطع عن مخـــاطبته بصيغة الجمع ، وهي غير مألوفة عند تلامذة « سانت آغات » وقال له :

— انك لنعم الرفيق .

وبسط له يده . فامسك بها الممثّل المهرّج ، وبقي لحظة صامتاً ، شديد الاضطراب مرتجاً عليه . . . ثم ما لبث ان تابع كثير الرغبة في الاطلاع :

— اذن كنتم تنصبون لي فخا ! ما اضحك هذا ! لقد حزرت ذلك وقلت في نفسي : سيدهشون كل الدهشة عندما يستردون مني هذه الخريطة ويتبين لهم انني استكملتها . . .

— استكملتها ؟

— مهلًا ! لم استكملها تماماً . . .

وانقطع عن لهجته المازحة ، ثم اقترب منا واضاف بتمهل ورزانة :

— آن لي يا « مولن » ان اقول لك هذا : انني انا ايضاً ذهبت الى حيث ذهبت انت . وقد حضرت هذا المهرجان العجيب . ولما

حدثني فتيان الصف عن مغامرتك الخفية فهمت انهـا ذات علاقة بالقصر القديم المفقود ، ولكي اتأكد من ذلك سرقت خريطتك ولكني مثلك ، اجهل اسم هذا القصر ، ولا اعرف سبيل الرجوع اليه . ولا اعرف الطريق كلها التي تقودك في ناحيته .

بأيّ اندفاع وبأيّ فضول متزايد ، وبأية الفة تراصصنا حوله! وراح «مولن» يطرح الاسئلة بنهم... وبدا لنا، نحن الاثنين، اننا بالحاحنا عليه ، سنستنطقه هذا الذي يزعم انه جاهله .

وكان يجيبنا بشيء من الضجر والارتباك :

– سترون، سترون . لقد وضعت على الخريطة بعض الدلالات التي كنتم تجهلونها . . . وهذا كل ما استطعته .

واذ رأى فينا هذا الاعجاب وهذا الحماس، قال بكآبة وازدهاء:

– آه اودّ لو احذركم . فما انا فتى كالفتيان . وقد شئت منذ ثلاثة شهور ان اطلق رصاصة في صدغي ، وهذا ما يفسر لكم وجود هذه العصابة حول جبيني كانني من مجنّدي القوى السيارة سنة ١٨٧٠ .

وقال له « مولن » مترفقاً :

– وهذا المساء انفتح الجرح اثناء العراك . . .

بيد ان الاخر لم ينتبه له وتابع بشيء من العجب :

– كنت عزمت على الموت ، وبما انني لم افلح فلن اعيش الا للتلهي، شأن ولد او شأن بوهيمي . لقد تركت كل شيء . ولم يبقَ لي اب او اخت ، ولا منزل او حب ، . . . لا شيء الا رفاق اللعب .

فقلت :

– وهؤلاء الرفاق ، لقد خانوك الآن .

– اجل، اجاب بحرارة، والمدعو «دلوش» كان السبب في ذلك، فهو مذ ادرك انني سأنضم اليكم ، افسد جماعتي التي كانت تنصاع لي انصياعاً . لقد رأيتم ذلك الهجوم ليلة امس ، بأي إحكام وحسن قيادة قمنا به ! فانني منذ طفولتي ، لم افلح بتنظيم امر مثلما افلحت بهذا . . .

ثم تأمل لحظة واضاف :

– لئن اتيت نحوكما ، هـــذا المساء . فذلك لانني – وشعرت بذلك هذا الصباح – اجدني مرتاحاً اليكما ، اكثر من ارتياحي الى عصبة الآخرين. والذي يغيظني بالدرجة الاولى انما هو «دلوش». ما أشدّ غروره في ان يظهر بمظهر الرجل . وهو في السابعة عشر من

عمره ! ليس ما اشمئز منه كهذا ... الا تحسبون ان باستطاعتنا ان ننال منه مأربا ؟

فقال « مولن » :

— ولم لا ، لكن هل انت باقٍ معنا مدة طويلة ؟

— لست ادري . اتمنى ذلك كثيراً . انني في وحدة مريعة . وليس لي الا « غناش » . . .

وتلاشت بغتة حمياه كلها وبشاشته كلها ، واستغرق لحظة في نفس القنوط الذي خامرته فيه يوماً فكرة الانتحار . ثم قال لفوره :

— كونا صديقيّ . اني اعرف سرّكما وقـــد حصنته عن الجميع . وباستطاعتي ان أسدد خطاكما على الاثر الذي اضعتماه . . .

ثم اضاف بما يشبه التعظيم :

— كونا صديقيّ حتى اليوم الذي اصبح فيه على قيد اصبعين من الجحيم . كما حدث لي ذلك مرة . . . اقسما لي انكما ستجيبانني عندما اناديكما ، عندما اناديكما هكذا . . . (وصاح صيحة غريبة : هُوْ ! هُوْ ! . .) انت يا « مولن » اقسم اولاً !

واقسم كلانا ، لاننا ، ونحن الاولاد عهدئذ ، كنا نفتتن بكل ما يفوق معتاد الامور تعظيما ووقاراً .

وقال :

– ومقابل ذلك ، استمعا الآن الى ما استطيع ان اقول لكما : سادلكما على المنزل الذي اعتادت فتاة القصر ان تقضي فيه ، في باريس ، عيدي الفصح والعنصرة وشهر حزيران ، وبعض الاحيان ، شطراً من الشتاء . وسمعنا في هذه الآونة صوتاً مجهولا يكرر النداء في ذلك الليل صوب الرتاج . وقدرنا انه صوت « غناش » البوهيمي الذي لا يتجاسر على اجتياز الساحة او هو لا يعرف كيف يجتازها . وكان ينادي بصوت لاجٍّ قلق ، مرتفع تارة وخافت اخرى :

– هُوْ – هُوْ ! – هُوْ – هُوْ !

وارتعش الفتى البوهيمي للصوت وشرع يصلح هندامه لينصرف فصاح به « مولن » :

– تكلم تكلم واسرع !

فذكر لنا بعجلة عنواناً في باريس رحنا نردده بصوت خفيض ، ثم توارى في الظل ، ليلتقي رفيقه عند الباب المشبك . تاركاً ايانا في حالة اضطراب لا توصف .

٢٢

في ذلك الليل ، عند الساعة الثالثة صباحا ، نهضت الارملة « دلوش » صاحبة النزل القائم في وسط القرية ، لتوقد نارها . فصهرها « دوماس » القاطن عندها سيذهب الى عمله في الساعة الرابعة . وكان على المرأة الكئيبة الطيبة ذات اليد اليمنى المتقلصة بسبب حرق قديم ان تسرع في المطبخ المظلم لتهيئ القهوة . فاتشحت بمنديل رديء ، وامسكت باحدى يديها شمعة مضاءة ورفعت باليد الاخرى – السقيمة – مئزرها لتتقي به النور ؛ واجتازت الباحة الملأى بركام القوارير الفارغة وصناديق الصابون ، وفتحت باب مستودع الحطب الذي هو في الوقت نفسه مأوى للدجاج لتأخذ

بعض العيدان اليابسة . . . وما ان دفعت الباب حتى طلع عليها شبح من الظلمة الحالكة ، ورماها بقبعته رمية هي من العنف بحيث هرّت في الهواء هريراً فأطفأت الشمعة وطرحت المرأة المسكينة ارضاً ، وهرب الرجل مهرولاً بينما قامت قيامة جهنمية بين الدجاجات والديكة المتذعرة .

وكان يحمل في كيس — على ما تبينته الارملة « دلوش » حالما ملكت روعها بعد لحظة — عشر فراخ من اجمل فراخها .

وركض « دوماس » على صراخ المرأة . فتبين له ان اللص فتح باب الساحة الصغرى بمفتاح مصطنع وانه هرب بالطريق نفسه دون ان يقفل الباب . واسرع ؛ وهو الذي اعتاد اهل اللصوصية ، واضاء مصباح العجلة ، فامسكه باحدى يديه وقبض بالاخرى على بندقيته المحشوة ، وحاول ان يتتبع اثر السارق ، وهو اثر قليل الوضوح — ولعل السارق كان ينتعل خفين — فاهتدى بمعالمه حتى طريق المحطة ثم اضمحل الاثر عند حاجز مرج . واضطر ان يتوقف عن البحث . فرفع رأسه ووقف . . . وسمع في البعد ، على الطريق نفسه ، جلبة عجلة تنطلق عدواً في هربها .

اما « جسمان دلوش » ابن الارملة ، فقد نهض وارتدى قلنسوته

على كتفيه وانطلق بحذاءيه المصنوعين من النسيج يبحث خلال القرية. وكانت الاشياء والكائنات مستغرقة جميعها في الرقاد، غائصة في الظلام والصمت العميق اللذين يسبقان تباشير الصباح الاولى. واذ وصل الى محلة «السبل الاربعة» سمع — كما سمع عمه — بعيداً على تل «دي ريود» جلبة عربة لا شك ان فرسها يعدو مرتفع القوائم الاربع. فقال في نفسه، وهو الفتى الداهية المدّعي، ما كرره على مسامعنا بعدئذ، بتلك اللثغة السمجة التي يتميز بها اهل «مونتلوسون»:

— لقد ذهب هؤلاء في ناحية المحطة لكن هذا لا يعني اني لن ألسع غيرهم في الجهة الثانية من القرية.

وقفل راجعاً صوب الكنيسة في سكون الليل.

وكان ضوء يلوح في مركبة البوهيميين الجاثمة في ساحة القرية. ولعل هناك مريضاً. فتهيأ ليدنو مستوضحاً. واذا بظل صامت، ظل ينتعل خفين، يطلع من «الزوايا الصغيرة» ويعدو، دون ان يرى شيئاً، نحو درجة المركبة...

فعرف «جسمان» مشية «غناش» فتقدم لفوره صوب النور وسأل بصوت خافت:

– واذن ! ماذا يجري هنا ؟

فوقف الآخر – وحشيّ النظرات ، اشعث الرأس ، ادرد ، ونظر الى « جسمان » مشنج الشفتين من الخوف والاختناق واجابه بصوته المتهدج :

– ان الرفيق مريض . . . لقد دخل في عراك ليلة امس وانفتح جرحه . . . وقد ذهبت لاستقدم الراهبة .

والواقع ان جسمان « دلوش » فيما كان راجعاً شديد الهواجس الى منزله ليعود للرقاد التي في وسط القرية ، راهبة تجد مسرعة .

وعند الصباح كانت جمهرة من سكان « سانت اغنـــات » عند عتبات البيوت بنفس الاعين المرضوضة المتورمة من سهر الليل ، تعلو من اوساطهم صيحات سخط ما لبثت ان عمت القرية كلها كسحابة بارود .

وكان اهـــل « جيرودا » قد سمعوا عند الساعة الثانية صباحاً صوت عجلة صغيرة تقف ، وتوسق فيها رزم تسقط وكأنها ناعمة الملامس . ولم يكُ في البيت الا امرأتان فلم تتجرأا على الحراك . ولما طلع النهار ادركتا ، عند فتح القن ، ان الرزم الموسوقة انما

هي ارانب وطيور . . ورأت « ميليا » في اثناء الجولة الاولى عند باب المغتسل عدداً من عيدان الثقاب نصف محرقة . فكان في هذا دليل على ان اللصوص اعوزتهم المعلومات الصادقة عن بيتنا فلم يستطيعوا الدخول اليه . . . وحسب سكان منازل « بيرو » « وبوجاردون » ، « وكليانت » لأول وهلة ان الخنازير قد سرقت ايضاً لكنهم وجدوها في الصباح تنبش الخس في حدائق مختلفة ، وكانت فرصة للقطيع كله ان يخرج من الباب المفتوح في نزهة ليلية . وعمت سرقة الدجاج كل مكان او كادت . ولكن اللصوص اقتصروا عليها . والسيدة « بينيو » الخبازة التي لم تكن تعنى بتربية الدواجن ما انفكت تصيح طوال النهار انهم سرقوا لها المدقة وبعض اقراص النيلج . بيد انه لم يقم اي دليل على هذه الواقعة ولم تدوّن في محضر التحقيق . . . واستمر هذا الذعر وهذا الخوف وتلك الثرثرة طوال الصباح . وفي المدرسة روى « جسمان » مغامرة الليل فقال :

— لعمري انهم من اهل الدهاء . لكن عمي لو التقى احدهم . . . اجل لقد قال ذلك : « لكنت صرعته كأرنب » !

واضاف فيما كان ينظر الينا :

– ومن حسن الطـــالع ان عمي لم يصادف « غناش » اذ كان بوسعه ان يطلق عليه النار ويقول : انهم من طينة واحدة جميعاً . « وديساني » يشاطره هذا الرأي .

بيد انه لم يخطر لأحد ان يزعج صديقينا الجديدين . وانتظر « جسمان » مساء اليوم التالي حتى لفت نظر عمه الى ان « غناش » كان ينتعل خفين كاللص الذي سطا على بيتهم وتوافقا على ان في هذه القرينة ما يكفي لإعلام الدرك . وعزما ، في هذا السر العميق ، ان يذهبا حين يتسنى لهما ذلك الى قصبة المنطقة لانذار قائد الفصيلة .

وفي الايام التي تلت لم يظهر اثر للبوهيمي الفتى . فقد كان مريضاً بسبب جرحه المنكوء .

وكنا ، كل مساء ، نطوف في ساحة الكنيسة ولا غرض لنـا الا ان نرى مصباحه وراء سجف المركبة الاحمر . فنقف هناك ، مفعمين بالغم والملل ، دون ان نتجرأ على الاقتراب من هذا الكوخ الحقير ، الذي كان في نظرنا المجاز الخفي الى البلد الذي تهنا عن معالم طريقه .

القائم بدور « بييرو » الكبير (ص ٨٨)

٢٣

ان ما ساورنا من القلق والاضطراب في الايام الاخيرة ، حال دون ان نتنبه الى ان آذار قد وافى وان الرياح الهوجاء قد وهنت .

الآ انني في اليوم الثالث من الحادثة ، ادركت في نزولي الى الساحة صباحاً ، اننا في ريّق الربيع . فثمة نسيم عذب ، كالماء الفاتر ، ينساب من فوق الجدار ، ومطر صامت بلّل في الليل الورق . وسطعت من ارض البستان المقلوبة رائحة شديدة ، بينما كنت اسمع في شجرة قرب النافذة ، عصفوراً يحاول تعلم الالحان . . .

وفي النزهة الاولى تحدث « مولن » في ان يقوم للحال ، برحلة

اختبار وتجربة على ضوء المعالم التي حددهـــا التلميذ البوهيمي . وتمكنت بعـــد لأيٍ من اقناعه بأن ينتظر ، ريثما نرى صديقنا . ويستقر الطقس الجميل ، وتزهر جميع اشجـار الخوخ في حدائق « سانت اغات »، وكنا متكئين على الحائط الوطيء المحاذي للزقاق الصغير ، كاشفي الرأس ، نتحدث وأيدينا في الجيوب ، فتهبّ الريح تارةً باردة فنقشعر ، وتارةً نفحات ٍ فاترة ، فتوقظ فينا لا ادري اي هيام عميق . آه يا اخي ، يا رفيقي ايها المسافر ، لكم حسبنا كلانا ، ان السعادة كانت قريبة المنال وانه كان حسبنا ان نشرع في المسير حتى ندركها دانية القطوف . . .

وعند الظهيرة بينا كنا نتناول الطعام ، سمعنا قرع طبل على ساحة « الطرق الاربعة » . وبلمحة بصر ، كنا عند المدخل المشبك والفوط في ايدينا . . . فإذا هو « غناش » يعلن ان تمثيلية كبرى ستقام في ساحة الكنيسة الساعة الثامنة بالنظر الى صحو الطقس وان خيمة ستنصب تحوّطاً للمطر ، وهناك برنامج طويل للملاهي ، حال الهواء دون ان يبلغ آذاننا عنه شيء . بيد اننا تميزنا بصورة مبهمة كلمات « تشخيص بالايماء . . . اناشيد — العاب فروسية » وقرع طبل يدوي بين اعلان واعلان .

وفي المساء، عند العشاء، ارعد الطبل تحت نوافذنا ايذانا بالحفلة، فتحرك الزجاج وارتجف. وما لبثنا ان سمعنا دندنة احاديث اهل الضواحي، يقبلون جماعات صغيرة على ساحة الكنيسة. وكنا نحن الاثنين، هناك مرغمين على المكوث عند المائده. نتململ بنافد الصبر!

وسمعنا، حوالي الساعة التاسعة، احتكاك اقدام وضحكات مختنقة عند الباب الصغير المشبك: فها هنّ المعلمات يأتين لمرافقتنا. وسرنا جماعة كثيفة في الظلام الحالك الى مكان الرواية. وابصرنا عن بعد، حائط الكنيسة مضاء بانوار ساطعة. وعلق امام مدخل الكوخ مصباحان يتماوجان في الهواء...

وفي الداخل نظمت الادراج انضاداً على غرار مـــا تكون في ملعب مستدير وجلسنا، السيد «سوريل» والمعلمات «ومولن» وانا على المقاعد السفلى. وما زلت اتمثل هذا المكان الضيق وكأنه الملعب حقاً، تحيط به اسمطة الظلال، وتجلس فيه، طبقاتٍ طبقات، السيدة «بينيو» الخبازة، «وفرنندا»، بائعة الافاويه، وفتيات القرية وصناع البيطرة والسيدات والصبية والفلاحون وغيرهم ايضاً.

وكان العرض قد انقضى اكثر من نصفه. فعلى المدرج عنز صغيرة مدربة تضع قوائمها مطيعة على اربعة اقداح، فعلى اثنين،

فعلى قدح واحد فقط . وكان «غناش» يقودها مترفقاً بضربات خفيفة من عصاه فيما هو ينظر الينا قلقاً. فاغر الفم، ميت النظرات.

وفي المكان الذي يتصل فيه المدرج بالمركبة، رأينا فتى فوق مقعد مستدير ؛ وقربه مصباحان آخران، معصوب الجبين يرتدي ثوباً رقيقاً اسود لاصقاً بجلده فعرفنا فيه مدير الالعاب، صديقنا .

وما استوينا في المجلس حتى قفز على المدرج مهر كامل العدة أجاله فتاننا الجريح جولات عديدة فكان يقف دائماً امام احدنا، للدلالة على احب القوم واكثرهم جرأة وجسارة، ودائماً امام السيدة «بينيو» كلما اقتضى ان يكتشف اكذب النسوة واجلهن واكثرهن توهاً في الهوى . . . فتعلو حولها الضحكات والصيحات، والنقيق كأن هناك قطيع اوز يطارده كلب عظيم .

وفي الفترة بين الفصلين جاء مدير اللعب يتحدث، لحظة، الى السيد «سوريل» الذي مـا كان ليبدو اكثر اعتزازاً لو انه تحدث الى «تالما» او «ليوتار» . اما نحن فقد كنا نصغي بكل جوارحنا الى كل ما يقول : عن جرحه المندمل، عن هذا المشهد الذي اعدّ في خلال ايام الشتاء الطويلة ، وعن رحيله الذي لن يتم قبل اخر الشهر، لانه مزمع، قبل ذلك، على عرض مشاهد جديدة متنوعة .

وكان الفصل الاخير المنتظر في هـــذا العرض تمثيل ايماء طريف فانصرف صديقنا عنا . كان عليه حتى يصل الى مدخل المركبة ان يمر برهط قد اجتاحوا المدرج وابصرنا بينهم «جسمان دلوش» . فتنحّت النسوة والفتيات وقد سباهنّ هذا الثوب الاسود وتلك الملامح الجريحة الغريبة الجريئة .

أمّا «جسمان» فقد بدا وكأنه عائد من سفر . وكان يتحدث الى السيدة «بينيو» همساً وبحرارة، فيما كان يمسك بابهامه قفا ردائه في وقفة المزهو المرتبك، في وقت معاً . وبمرور البوهيمي، بدرت منه انتفاضة غضب وقال للسيدة «بينيو» بصوت مرتفع كلاماً لم أعه، ولا شك انه ينطوي على إهانة او تحدٍّ لهذا الآخر، ولعله تهديد خطير مفاجىء، لان صديقنا الفتى لم يتمالـــك من التلفت والتحديق بخصمه الذي ضحك ضحكة المستهزىء اخفاء لاضطرابه . وراح يدفع مجاوريه بمرفقيه كأنه يدعوهم الى التحزب له . . . لقد حدث كل ذلك في خلال بضع ثواني . ولعلني الوحيد الذي استرعى انتباهه ما جرى .

ولحق مدير اللعب برفيقه وراء الستر الذي يحجب مدخل المركبة وعاد كلٌ الى مكانه على الادراج ، حاسباً ان الفصل الثاني

من المشاهد سيبدأ حالاً وساد صمت عميق . وفيما كانت الاحاديث الاخيرة تهدأ شيئًا فشيئاً، علا صوت شجار وراء السجوف ولم نكن لنسمع مـــا يقال بيد اننا عرفنا صوتي الشابين، فالصوت الاول يشرح ويبرر والثاني يؤنب بمزيج من السخط والكآبة ويقول :

– ولكن يا شتي، لماذا لم تقل لي . . .

ولم نتميز سائر الحديث، على كون الجميع قد ارهفوا الاذان، ثم سكت كل شيء واستمر الجدال بصوت خافت . ثم شرع صبية المقاعد العليا يصيحون :

– الانوار، الستار !

٢٤

وما لبث ان أطل من بين السُتُر وجه مثلم بالاخاديد، يتقبض من البشاشة تارة، ومن العبوس اخرى، ومزدرع بقطع مستديرة من العجين المعدّ لختم الرسائل . وهو رجل سخرة كأنه مفكك المفاصل، ثلاثيّها، منطوٍ على بطنه، كأن مغصاً قد ألمّ به، يمشي على رؤوس اصابع الرجلين مبالغة منه في الحذر والخوف، غائص الذراعين في كمّين مفرطين في الطول يتجرران على المدرج .

ليس في وسعي اليوم ان اتمثل كل ما قام به من التشخيص بالايماء — بيد انني اذكر انه حالما وصل الى الملعب ، حاول محاولات

يائسة ان يستقر على رجليه ، ولكنه وقع . وعبثا كان ينهض فانه كان ينوء بقوة غالبة فيسقط ، وابدا يسقط . وارتبك بين كراسي اربعة ثم جرّ بسقوطه طاولة عظيمة وضعت على المدرج ، وهوى وراح منتشراً مـــا وراء حاجز الملعب ، عند اقدام المتفرجين . واستنهض رجلان من الجمهور بعدلأي، فجرّاه من الرجلين ووقفاه بعد جهد جهيد . وكان كلما وقع ، يطلق صرخة قصيرة ، تتنوع كل مرة ، صرخة لا تطاق ، يمتزج فيها الهلع والارتياح بقدر متساوٍ . وكانت التتمة ان تعرش على صقالة من الكراسي المتراكبة ، فسقط عنها سقطة عظيمة ، كثيرة البطء ، وعلت ولولته بالنصر ، حادة كريهة شيطانية ، واستمرت مـــا استمر سقوطه تصحبها صيحات النسوة المذعورات .

وفي القسم الثاني من التمثيل بالايماء ، ما زلت ارى ، على كوني لا اذكر السبب ، « فتانا المقنع الذي يقع » يخرج من احد كميه لعبة صغيرة محشوة بالنخالة ويكلمها بالاشارة في مشهد يراوح بين المأساة والمهزلة . ثم يفرغ من فمها كل ما في جوفها من النخالة ، ويملأها بالحساء فيما يصيح صيحات إشفاق مقتضبة . وفي الوقت الذي استتم فيه الاصغاء ، وحدق كل من المتفرجين ، مسترخي الشفة ، باللعبة

اللزجة المبقورة ، امسك بها فجأة ورماها بعنف ، مـــن خلال المشاهدين ، على وجه « جسمان دلوش » فلم تبلل منه غير اذنه ، وراحت تنبطح على معدة السيدة « بينيو » تحت ذقنها بالضبط . فصاحت الخبازة صيحة عظيمة وانقلبت على ظهرها انقلاباً وحذت حذوها جاراتها فانقصف المقعد وهوت الخبازة و « فرنندا » والارملة « دلوش » الكئيبة وعشرون أخريات ، ارسلن سيقانهن في الهواء ، وسط الضحكات ، والصراخ والتصفيق ، فيما كان المهرج الحاني الوجه يرفعه ليحيي الجمهور قائلا :

— لنا الشرف ، سيداتي وسادتي ان نشكركم !

وفي هـــذا الوقت نفسه ، وفي وسط الضجيج الصاخب ، نهض « مولن » الكبير فجأة وكان طوال فترة التمثيل صامتاً ، يزيد استغراقاً في التفكير من دقيقة الى اخرى ، وامسك بذراعي كانه ما استطاع ان يملك عنان نفسه وصاح بي :

— انظر الى البوهيمي ، انظر ، واخيراً لقد عرفته .

وحزرت قبل ان انظر ! كأن هذه الفكرة المحضونة فيّ منذ زمن بعيد قد انبلجت لفورها .

فهذا الفتى المجهول، الواقف قرب مصباح عند مدخل المركبة، كان قد نزع العصابة عن جبينه والتي معطفاً على كتفيه. وفي هذا الضوء الغائم، بدا ذلك الوجه الامرد المستدق الاقنى، كما بدا من قبل على شعـــاع الشمعة في حجرة القصر. وكان شاحب اللون، منفرج الشفتين، يقلّب بسرعة محفظة صور حمراء، لعلها كتيّب للجيب ينطوي على خرائط البلدان. وفيما عدا ندبة وسمت صدغه وتوارت تحت كثيف شعره، فهو هو الخطيب صاحب الدارة المجهولة على ما سبق لـ «مولن» الكبير أنْ وصفه لي باستفاضة وتدقيق.

ويقيني انه نزع العصابة لنتعرف اليه. على انه ما كاد «مولن» يومىء هذه الايماءة ويصيح هذه الصيحة حتى كان الشاب قد دخل الى المركبة، بعد ان رمقنا بنظرة ذات مغزى، وابتسم لنا بكآبة غامضة كمعتاد ابتسامه.

وقال «مولن» بحرارة:

– وهذا الآخر! مالي لم اعرفه حالاً انه رجل المهرجان المقنع، هناك... ونزل في الدرج ليذهب اليه، بيد ان «غناش» كان قد قطع كل صلة بالمدرج فأطفأ المصابيح الاربعة واحداً واحداً،

فاضطررنا ان نتبع الجمهور المنساب رويداً رويداً ، بين المقاعـــد المتوازية في ظل العتمة ، ونقرع الارض متململين .

وحالما اصبحنا خارجاً ، وثب « مولن » صوب المركبة وتسلق موطئها وقرع الباب ، فوجد المنافذ موصدة كلها ، ولا ريب ان جميع من في هذه المركبة ذات الستر ، وفي مركبة المهر والعنز والطيور المدربة ، قد استسلموا للرقاد .

٢٥

كان علينا ان نلحق بجمهرة السادة والسيدات العائدين صوب الصف العالي في الازقة المظلمة. وقد وضحت لنا في هذه المرة خوافي الامور جميعاً . فهذا الشبح الكبير الابيض وقد سبق لـ« مولن » ان رآه منسلًا بين الاشجار في آخر امسية من امسيات المهرجان ، انما هو « غناش » الذي التقى الخطيب اليائس وهربا معاً. وارتضى هذا الاخير تلك الحياة الهمجية الملأى بالمخاطر والالاعيب والمغامرات . وبدا له انه يراجع الطفولة . . .

لاريب ان « فرانز دي غاليه» كتم عنه اسمه حتى اليوم وتظاهر بانه يجهل طريق القصر مخافة ان يرجع الى ذويه كارهاً. ولكن ماله

قد راق له فجأة ذلك المساء ان يكشف لنا عن حقيقته حتى انجلت امامنا الحقيقة كلها ؟ . . .

ولعمري كم وكم من المقاصد والتصاميم خطرت ببال « مولن » الكبير بينما كانت جمهرة المتفرجين تنساب متمهلة عبر الدسكرة . وفي جملة ما عزم عليه ان يذهب منـــذ صباح الغد الى « فرانز » فيسيران معاً الى هناك ! وما اجمل ما سيكون السفر على الطريق المندّى ! فيشرح له « فرانز » كل شيء ويأتي كل شيء وفق المرام . وتستأنف المغامرة العجيبة من حيث انقطعت . . .

اما انا فكنت اسعى في الظلام بقلب مفعم . فكل ما هنالك يُسهم في بهجتي : من اللذة الضئيلة التي استشعرها من انتظار نهار الخميس ، الى الاكتشاف الكبير الذي اكتشفناه ، الى الحظ الاكبر الذي وقعنا عليه . واذكر انني في نزوة مفاجئة من سخاء النفس ، تقدمت من اقبح القبيحات من بنـــات الكاتب العدل ، التي كان يفرض عليّ احياناً ان امدّ لها ساعدي على كرهٍ ومشقة ، وبسطت لها يدي فوراً .

يا لمرارة التذكار ! ويا للآمال الباطلة المنسحقة !

وفي الغد، منذ الساعة الثامنة، كنـــا نحن الاثنين في ساحة الكنيسة باحذيتنا اللامـــاعة ومنطقتينا البراقتي الصفائح وقبعتينا الجديدتين. فاذا بـ «مولن» الذي كان حتى الآن يمسك عن الابتسام كلما نظر اليّ، يصيح وينطلق نحو الساحة المهجورة... فلم يبقَ من آثار الكوخ والمركبة إلاّ إناء مكسور وخرق بالية. اجل، لقد ارتحل البوهيميون...

وهبت ريح خفيفة بدت لنا قارسة. وتراءى لي اننا سنتعثر في ارض الساحة الصلبة الكثيرة الحصى، واننا على وشك السقوط. وتذعر «مولن» وبدرت منه مرتين متواليتين حركة من يريد الانطلاق، على طريق «فيونانساي» اولا، ثم عـــلى طريق «سانلو ديبوا» وأمرّ يده فوق جبينه آملا ان يكونوا، منذ قليل قد ارتحلوا. ولكن ما العمل؟ فهناك آثار عشر عجلات تشابكت في الساحة ثم امّحت على الطريق الصلب. واقتضتنا الحال ان نبقى هنا بلا حراك. وفيما نحن عائدون عبر القرية، وقد طلعت صبيحة الخميس، اذا باربعة فرسان من الدرك كان «دلوش» قد انذرهم ليلة امس ينفذون الى الساحة عدواً، ويتفرقون خلال الشوارع ليحرسوا منـــافذها كأنهم جنود طليعة يستكشفون قرية من

القرى . . . ولكن لات ساعة استطلاع . فان « غناش » سارق الدجاج قد هرب ورفيقه . ولم يجد الدرك احدا ، لا هذا ، ولا اولئك الذين وسقوا الديوك المسمنة المذبوحة في العجلة . ان الكلمة التي وجهها « جسيمان » عن قلة تبصر الى « فرانز » قد نبهت هذا الاخير فجأة الى نوع الحرفة التي يعتاش منها ورفيقه عندما يعوزهما المال . فاعتزم ، وقد غمره الخجل والغضب ، خطةً للطريق ، وصمم على الفرار قبل وصول الدرك . بيد انه وقد زالت خشيته من ان يحاول احد ارجاعه الى منزل ابيه ، شاء ان يظهر امامنا ، بدون عصابة قبل ان يتوارى .

بقيت هناك نقطة غامضة ابداً : كيف استطاع « غناش » ان يقوم في وقت معاً بسرقة الدجاج وبالذهاب لاستقدام الراهبة من اجل حمّى رفيقه؟ لكن أليست هنا كل قصة هذا الشيطان المسكين؟ سارق متشرد من ناحية ، ومخلوق حسن الطوية من ناحية اخرى .

٢٦

وعند الاياب ، كانت الشمس تبدّد الضباب الرقيق عن وجه الصباح ، والنساء عند عتبات البيوت ينفضن البسط ويُثرثرن . وفي الحقول والغابات المنبسطة في الضاحية ، تطلع ابهى صبيحة ربيعية علقت في خاطري .

وكان على تلامذة الصف الكبار ان يصلوا عند الساعة الثامنة ، هذا الخميس ليقضوا فترة الصباح بالمطالعة ، فيستعدّ بعضهم لشهادة الدروس العليا وبعضهم الآخر لمسابقة دار المعلمين . ولما وصلنا نحن الاثنين ، كان « مولن » مفعماً بغصة من الاسف والاضطراب لا يقرّ له معها قرار . وكنت اسير منكسر القلب كئيباً ، فالمدرسة

مقفرة . . . وهناك شعاع شمس زاهية ينزلق على غبار مقعد منخور وعلى الطلاء المقشور من كرة معدنية تمثل الكرة الارضية .

ما لنا هنا ، نجلس الى الكتاب متبصرين بالفشل الذي منينا به ، بينما كل مـــا في الخارج يدعونا اليه : العصافير المتلاحقة في الاغصان ، قرب النوافذ ، التلامذة الهاربون عبر المروج والغابات، ولاسيما تلك الرغبة الملحة في ان نحـــاول السفر وفق تصميمنا المنقوص الذي صححه صديقنا البوهيمي — اهو آخر سهم في جعبتنا الفارغة ، ام آخر مفتاح في الحلقة،بعد ان جرّبنا سائر المفاتيح؟... لعمري لقد كان ذلك مما يفوق طاقة الاحتمال ! وهـا هو « مولن » يذرع الارض جيئة وذهـاباً يرنو من النوافذ ، وينظر الى الروض ثم يرجع وينظر الى القرية كأنه ينتظر احداً لن يأتي ابداً الى ان قال:

— احسب ان المكان ليس على ما نتصور من البعد . . . ان « فرانز » حذف من خريطتي شقة من الطريق كنت قد اثبتها فيها . وهذا يعني ، على ما اظن ، ان الفرس قد انحرف بي في اثناء غفوتي، في طريق ملتوية لم يكن في سلوكها جدوى . . .

وكنت نصف مقتعد زاوية منضدة كبيرة ، فرجل على الارض

واخرى متأرجحة ، وبي من السأم والقنوط ما جعلني اخفض رأسي فقلت :

— لكن سفرك ، في عودتك بالعربة ، قد استمر طوال ليلة .

فأجاب بحرارة :

— لكننا كنا قد انطلقنا عند منتصف الليل . وقد انزلوني عند الساعة الرابعة صباحاً على ستة اميال غربي « سانت آغات » في حين انني كنت قد سلكت في الذهاب طريق المحطة ، من الشرق . واذن ، علينا ان نُسقط ستة اميال من المسافة بين « سانت آغات » والبلد المفقود . ويلوح لي ، في الواقع ، اننا متى نفذنا من غـــابة المشاع ، فلن يبقى بيننا وبين المكان الذي نسعى اليه الا مسافة ميلين .

— لكنهما الميلان اللذان لا تحتوي عليهما الخارطة .

— هي الحقيقة . لكنّ آخر الغاب ، ولئن كان على مسافة ميل ونصف الميل ، فان المشّاء الجيد يستطيع قطع المرحلة في سحابة صباح . . .

في هـــذه اللحظة وصل « موشبوف » وكان في هذا الفتى نزعة

مُغيظة الى الظهور بمظهر التلميذ المثالي ، ليس بتفوقه بالاجتهاد بل بلفت النظر اليه في احوال كتلك .

وقال بلهجة الظافر :

– كنت اعلم جيداً اني لا ألتقي إلّا كما . فسائر التلاميذ قد سعوا الى غاب المشاع وعلى رأسهم «جسمان دلوش» الذي يعرف مقر الاعشاش .

وشاء ان يظهر بمظهر الرسول الصالح ، فراح يروي كل ما قالوه ، عند تقرير هذه الرحلة ، من الاقوال المزرية بالدروس والسيد «سوريل» وبنا نحن .

فقال «مولن» :

«اذا كانوا في الغاب ، فسأراهم ، ولا ريب ، عند مروري لاني ذاهب الى هناك . وسأعود حوالي الظهيرة» .

فذهل «موشبوف» عند هذا الكلام .

وسألني «مولن» :

– الا تأتي ؟

قال هذا . وقد وقف لحظة عند الباب الذي انفرج قليلاً ، فدخلت منه الى الغرفة الغبراء ، نفحة هواء فترتها الشمس ، وخليط من الصياح والنداءات والزقزقة وصوت دلو على حافة البئر ، وفرقعة سوط بعيدة . فاجبته على كون التجربة شديدة ومغرية :

— لا ، لا استطيع ذلك بسبب السيد « سوريل ». لكن عليك ان تسرع واني لمنتظرك بفارغ صبر . فاومأ ايماءة مبهمة وجدّ مسرعاً ، مفعماً بالأمل .

ولما وصل السيد « سوريل » عند الساعة العاشرة كان قد نزع سترته السوداء وارتدى معطف الصيد ، ذا الجيوب الواسعة المزررة وقبعة القش ، والمسماة القصيرة اللماعة ، التي شد بها اسفل سراويله. واحسب انه لم يدهش اذ لم يجد احداً . ولم يشأ ان يستمع الى « موشبوف » الذي كرر على مسامعه ثلاث مرات ان الرفقاء قالوا :

— اذا احتاج الينا فليبحث عنا !

وقال آمرا :

— احزموا حوائجكم . وخذوا قبعاتكم ، فسنذهب لنعثر عليهم . . . هل باستطاعتك ان تمشي حتى هناك يا « فرنسيس » ؟

فجزمت ان نعم، وانطلقنا .

وتوافقنا على ان يكون «موشبوف» دليل السيد «سوريل» فيذهب الى الادغال التي يعرف ان نابشي الاعشاش يقصدون اليها ويصيح من وقت الى آخر بملء رئتيه :

– هوب، هولا ! «جيرودا»، «دلوش»، اين انتم ؟

هل وجدتم اعشاشاً ؟

اما انا فقد عُهد الي، وهو ما سررت له كثيراً، ان اسير عند تخوم الغاب لأراقب التلامذة الذين تسوّل لهم نفسهم الفرار .

كانت الخريطة التي صححها البوهيمي، ودرسناها، «مولن» وانا، مرات عديدة، تشير الى طريق يذهب من هذه التخوم في ناحية القصر . ويا ليت شعرى لو عثرت عليه هذا الصباح ! وتملكني شعور بانني لا شك واجده قبل الظهيرة . . .

ما اجمل هذه النزهة ! . . . اذ اننا حالما اجتزنا المنحدر واستدرنا حول الطاحونة افترقت عن رفيقيّ الاثنين وهما : السيد «سوريل» وقد بدا كأنه في عدة الحرب – وكان قد وضع في جيبه مسدساً قديماً على ما اظن –، وذلك الخائن «موشبوف» .

وسلكت مقربة من الطريق حتى وصلت الى تخم الغاب ، ولأول مرة في حياتي وجدتني وحيداً عبر الحقول ، وكأنني قائد مفرزة ضلّ عنها .

وها انا ، على ما احسب ، في قرب هذا النعيم الخفي الذي تراءى يوما ل « مولن » . يتسع امامي الصباح كله لانقّب في تخوم الغاب ، اكثر الامكنة رطابة واحتجابـــاً ، بينما انطلق اخي الاكبر للاستكشاف ايضـــاً . وكأنني هنا في مسيل جدول ، امرّ تحت غصون حانية تتدلى من اشجار لا اعرف لها اسماً ولعلها الحور . لقد قفزت الآن فوق صف من الاوتاد ، واذا بي في طريق عريض من الاعشاب المنسابة تحت الاوراق ، ادوس القرّيص واطأ اعناق الحشائش الهائجة .

وتقع رجلي ، طوال خطوات ، على رقعة رمل دقيق . فأسمع في هذا الصمت صوت عصفور احسب انه عندليب ، لكنني مخطئ ، ولا ريب ، لأن العنادل لا تغني الا في المساء — عصفور يردد الجملة نفسها باصرار : هو صوت الصباح ، كلمة تنبعث من الظلال ، دعوة عذبة الى السفر بين الحور . وهكذا يرافقني وراء الورق ، متحجباً عنيداً .

ولأول مرة اراني انا ايضا في طريق المغامرة . فما انا باحث قط ، شأني بالأمس ، عن الاصداف التي يلفظها النهر ولا عن نبات الداروند الذي يجهله معلم المدرسة ، حتى ولا عن تلك العين العميقة الناضبة التي تغمرها الاعشاب المتكاثفة في حقل العم «مرتينوس»... اني ابحث عن شيء اشد خفاء . انه الممر الذي ذكرته الكتب ، ذلك الطريق القديم المردوم ، الذي تاه الامير المنهوك عن مدخله ، فهو لا يتكشف لك الا في اخريات الصباح ، عندما تنسى ان الساعة قاربت الحادية عشرة او الظهر تماماً . . . وفجأة ، اذ انت في اعماق الغاب ، تُنحّي الاغصان بحركة قلقة من يديك ، وهما في مستوى وجهك ، فتلوح لك جادة طويلة مظلمة تنتهي الى دائرة صغيرة من النور .

وفيما انا في هذه الغمرة من الامل والثمل ، نفذت الى مرج وبلغت ، دون ان اشعر ، اقصى « المشاع » الذي طالما حسبت انه مكان قصيّ . وها هو الى يميني ، بيت الناطور تملأه الدندنة والهينمة في الظل بين انضاد الحطب . وهناك على سند الشباك زوجان من الجوارب منشوران في الهواء . وكنا في السنين الخاليات كلما وصلنا الى مدخل الغاب نشير الى نقطة نور في منتهى الممر المظلم ونقول :

هناك بيت الناطور، بيت « بالاديه » . لكننا لم نصل قط يوماً الى هناك . وكنا نسمع احياناً من يقول، إشارةً الى رحلة خارقة : لقد وصل حتى بيت الناطور ...

اني قد وصلت هذه المرة ، حتى منزل « بالاديه » ، لكنني لم أجد شيئاً .

كنت قد بدأت استشعر الالم من ساقيّ المتعبة ، ومن الحر الذي لم احسه قبل الآن، وخشيت ان اسير في طريق العودة وحدي. واذا بي اسمع صوت «موشبوف» واصواتاً اخرى تناديني.

وكانوا ستة صبية ليس فيهم من تبدو عليه ملامح الظفر إلّا الخائن « موشبوف » . فهناك «جيرودا » و « اوبيرجيه » و « دلاج » وغيرهم ... وكانوا قد فوجئوا، بفضل الدليل، إمّا متعرشين على شجرة قراصياء قائمة في بقعة، وسط الغاب، واما منهمكين في تخريب الاعشاش . اما « جيرودا » الابله ذو العينين المتورّمتين فقد خبأ صغار العصافير عند معدته بين الجلد والقميص . وقد فرّ اثنان منهم عندما اقترب السيد « سوريل »، واحسب انهما « دلوش » و « كوفان » الصغير . وكانا قبل ذلك يجيبان « موشبوف » بتهكم

ويحرفان اسمه بحيث يصبح مدلوله : «ذبابة بقرة». فيمتعض ويقول لهما بغباوة كالرجل الامين من نجاح مهمته :

— ما ان تنزلان، حتى تجدا السيد « سوريل » بانتظاركما ...

وما قال هذا حتى ساد الصمت، وانسلّا خلال الغاب، ولم يكن تعقبهما بالامر اليسير. فهما يعرفان تعاريج السبل ومطاويها فأمسكنا عن اللحاق بهما ولم نكن لندري اين ذهب « مولن » ولم نسمع له صوتاً فتوقفنا عن البحث .

وعدنا في طريق «سانت اغات» ببطء خافضي الرؤوس متعبين كالحي الوجوه . ولما خرجنا من الغاب ومسحنا الوحل عن احذيتنا على الطريق الجاف، كانت الشمس قد اصبحت محرقة ومضى ذلك الصباح الربيعي النديّ البراق . وعلا ضجيج الظهيرة . وثمة في البعد ديك يصيح صيحة مغمومة، في المزارع المقفرة المحيطة بالطريق. ووقفنا عند المنحدر نتحدث الى الفعلة وقد استأنفوا العمل بعد طعام الظهر . فاستلقوا بمرافقهم على الحاجز بينما كان السيد « سوريل » يقول لهم :

— انظروا هؤلاء الاشقياء ! وها هو « جيرودا » وقد خبأ العصافير في قميصه فعَمَلت فيه ما عملت . ان هذا منتهى النظافة !...

وبدا لي ان الفعلة يضحكون ايضاً من سمتي — فهم يضحكون ويهزون الرؤوس دون ان يخطّئوا هؤلاء الفتيان الذين يعرفونهم تمام المعرفة . وأسرّوا الينا عندما مشى السيد « سوريل » على رأس التجريدة :

— لقد مرّ بنا فتى آخر كبير وكان قد التقى في عودته عربة « ديجرانج » فصعد فيها ونزل منها ممرغاً بالوحول ممزق الثياب . فاخبرناه اننا رأيناكم تمرّون هذا الصباح وانكم لم تعودوا بعد، فاستأنف سيره متمهلاً في طريق « سانت اغات » .

وكان « مولن » ينتظرنا على الجسر منهوك القوى . وقد اجاب عن سؤال السيد « سوريل » انه ذهب ايضاً للبحث عن التلامذة الفارّين، واستعلمته فاجاب بصوت خفيض فيه نبرات الخيبة :

— كلا لا شيء ! لا شيء مما يشبه هذا ...

وبعد طعام الظهيرة وفي المدرسة المغلقة المظلمة، وسط هذه البلاد الساطعة ، استوى على طاولة والقى رأسه بين ساعديه وأغفى اغفاءة عميقة حزينة . وفي المساء، بعد ان استغرق في التأمل طويلاً، جلس كمن عزم على شيء ، يكتب رسالة الى امه . وهذا كل ما اذكره من يوم الهزيمة هذا ومن نهايته الكئيبة .

٢٧

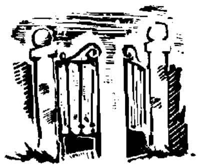

لقد شئنا ان نستمتع بالربيع قبل اوانه . ففي مساء الاثنين عزمنا على ان نكتب فروضنا بعد الساعة الرابعة ، شأننا في الصيف ، فاخرجنا طاولتين الى الباحة لنستضيء بالنهار . بيد ان الجو اعتكر فوراً ، وسقطت قطرة على دفتر ، فدخلنا للحال . ومن الغرفة الكبيرة القاتمة ، رحنا نتأمل بصمت ، خلال النوافذ الواسعة ، انهزام السحب في السماء الغبراء .

وكان « مولن » ينظر مثلنا ، واضعاً يده على مقبض شباك . ولم يتمالك ان يقول ، كأنه غضب لما اعتراه من الاسف :

ــ آه لقد كانت الغيوم تسير على غير هذه الصورة ، يوم كنت

في الطريق في عربة « النجمة الجميلة » .

وسأل « جسمان » :

ــ وأي طريق هي ؟

بيد ان « مولن » لم يجب .

فقلت ، لأميل بالحديث الى شأنٍ اخر :

ــ اما انا فكم وددت لو اسافر في العربة ، تحت المطر ، وفوق رأسي مظلة .

واضاف آخر :

ــ واقرأ طوال الطريق كأنني في المنزل .

فاجاب « مولن » :

ــ لم يكن الجو ممطراً ، وما كانت لي رغبة في القراءة ، ولكنني كنت استمتع بمناظر البلاد . .

ولمــــا سأله « جيرودا » اي بلاد يعني ، لبث « مولن » صامتاً ، وقال « جسمان » :

ــ اني اعرف . . . انها دائماً المغامرة المشهورة . . .

قال هذا بلهجة المصالح القادر اهمية الامر، كما لو انه مطلع على بعض السر. ولكن خاب فأله. فلم يحظَ بما يشبع فضوله. واذ هبط الليل، انسلّ كل منّا، وقميصه منقلبة على رأسه، تحت وبلة المطر البارد.

واستمرت رداءة الطقس حتى الخميس المقبل. فكان هذا الخميس بمثل كآبة سابقه. فالحقل جميعه في غمرة من الضباب المجلد، شأنه في اردإ ايام الشتاء.

واغترّت «ميليا» بسطوع الشمس في الاسبوع المنقضي فانهمكت بغسل الثياب. لكن انّى لها ان تفكر بتجفيف الملابس على اسيجة البستان او على الامراس تحت السقيفة، فالهواء كان بارداً نديّاً.

وفي بحثها مع السيد «سوريل» بدا لها ان تنشر الثياب في غرف الدرس، لاننا في يوم خميس، وان تشعل المدفأة فتقتصد في نار المطبخ وغرفة الطعام، وتهيء المآكل على المدفأة بينما نجتمع نحن في غرفة الدروس الكبرى.

وللوهلة الاولى – وكنت طريّ العود – رأيت في هذه الجدة عيداً من الاعياد ويا للعيد الكئيب!... فقد امتصّ الغسيل

حرارة المدفئة كلها وشملنا البرد القارس، فيما يتساقط الرذاذ في الساحة متراخياً مستمراً . والتقيت «مولن» هنا منذ الساعة التاسعة، يتأكل كلينا السأم، واستلقينا برؤوسنا على قضبان الزجاج الكبير، ننظر صامتين الى موكب مأتم مقبل في اعلى القرية من الضاحية البعيدة، والنعش على عجلة يجرها ثوران، وقد انزل ووضع على بلاطة عند قدم الصليب حيث سبق للجزار ان شاهد رصداء البوهيمي! اين هو الآن ذلك القائد الشاب الذي تولى الهجوم بمهارة؟ وتقدم الكاهن والشمامسة من التابوت، بحسب مألوف العادة، وترامت الينا ترانيمهم الشجية. وما كنا لنجهل انه المشهد الوحيد في هذا النهـــار الذي سينساب بطوله كالماء الاصفر في المستنقع الآسن .

وقال «مولن» فجأة :

— والآن ابلغ السيد «سوريل» اني احزم امتعتي . فقد كتبت الى امي نهار الخميس الفائت لأطلب اليها ان اتابع دروسي في «باريس» واني ذاهب اليوم .

واستمر يحدق في القرية، ويداه مسندتان، بمستوى رأسه، على قضبان النافذة . ولا فائدة من التساؤل عما اذا كانت امه الثريّة،

وهي تعمل بكل مشيئاته، ستسمح له بهذا. ولا فائدة من التساؤل ايضاً، ايّ رغبة مفاجئة حملته على الذهاب الى «باريس» !...

لكنّ في صميمه، ولا ريب، اسفاً وخشيةً لمغادرة مقاطعة «سانت اغات» تلك الناحية الحبيبة التي انطلق منها لمغامرته. اما انا فقد صَعَدَتْ فيّ كآبة عنيفة ما استشعرتها من قبل قط.

وتنهد وقال مفسّراً:

– لقد اقترب عيد الفصح !

وسألت:

– اتكتب إليّ حين تلتقيها ؟

– اعدك بذلك، أولست رفيقي، بل اخي ؟

ووضع يده على كتفي.

وادركت شيئاً فشيئاً ان انتهى كل شيء ما دام سيكمل تحصيله في «باريس»، وانني لن ارى ابداً معي رفيقي الكبير.

لم يبقَ من امل في اجتماعنا إلاّ في ذلك المنزل الباريسي، حيث كان يرجو ان تنكشف له معالم المغامرة المفقودة... ويا له من

رجـــاء ضئيل، و «مولن» على ما هو عليه من الاغتمام . وكاشف اهلي بامره . فبدا والدي مدهوشاً . لكنه أذعن لما ابداه «مولن» من الاسباب . اما « ميليا » فقد راعها من المسألة ان تفجأها والدة « مولن » والمنزل على حالة من الفوضى غير مألوفة . . . وقد هُيِّء صندوق « مولن » بعجلة ، ويا للأسف ، وتناولنا مـن تحت السلم حذاءيه اللذين ينتعلهما ايام الآحـــاد . ولممنا من الخزانة ثيابه ثم جمعنا اوراقه وكتبه . وهذا كل ما يملك فتى في الثامنة عشرة من العمر .

ووصلت السيدة « مولن » عند الظهيرة . فتناولت الطعام مع ابنها في مقهى « دانيال » . وصعدت واياه الى العجلة حالما قُرنت اليها الفرس ، دون ان تطيل الشرح . وودعناهما عند الباب وتوارت العربة في منعطف « الطرق الاربعة » .

وحكّت « ميليا » حذاءيها امام الباب ، ثم دخلت تعمل على ترتيب ما اختل من نظام المنزل . اما انا فلأول مرة منذ شهور ، وجدتني وحيداً اواجـــه امسية طويلة من امسيات الخميس . واستشعرت ان ريّق فتوتي ولّى في هذه العجلة الهرمة الى ما لا رجعة بعده .

٢٨

ما العمل الآن ؟

يبدو ان الطقس ينجلي وان الشمس وشيكة الظهور .

وقرقع باب في المنزل الكبير ، ثم ساد الصمت وها ان والدي يجتاز الباحـــة من وقت الى آخر ، ليملأ دلواً من الفحم ويحشو به المدفأة . وكنت ارى الاثواب المدلاّة على الامراس وأستنكف من دخول المكان الكئيب الذي تحوّل الى منشر كيلا اجد نفسي فيه وجهاً لوجه مع امتحانات آخر السنة ومباراة دار المعلمين ، وهي منذ الآن شاغلي الاوحد .

واغرب ما في الامر انني ، الى جانب السأم المستولي عليّ ،

كنت احس شعوراً بالحرية . فالآن وقد ذهب « مولن » وانتهت هذه المغامرة الى فشل ، فقد بدا لي انني تحررت من هذا الهاجس الغريب، وهذا الشاغل الخفي الذي كان يحول دون تصرّفي تصرّف سائر الناس . اجل لقد ذهب « مولن » ولم اعد رفيق مغامراته ، وغدوت فتى من فتيان القرية شبيهاً بسائرهم. ولم يكن هذا التحوّل بالامر العسير ، اذ لم يكن عليَّ الا الاستسلام لسائق طبيعتي .

لقد مرّ احد اولاد « روي » في الشارع الموحل ، وهو يدير في الهواء ثلاث ثمرات كستناء مشدودة الى خيط ، ويطلقها فتقع في الساحة . وكنت في حالة من الفراغ، وجدت معها لذة في ان ارمي اليه ثمراته مرتين او ثلاثة للجانب الآخر من الحائط .

ثم رأيته ينصرف فجأة عن هذا اللعب الصبياني ، ويركض وراء عجلة مقبلة على طريق « ڤياي بلانش » فيتعرش عليها من الوراء فيما هي جادّة. واذا هي عربة « دلوش » وفرسه يقودها « جسمان » ويقف فيها الضخم « بوجاردون »، وهم عائدون من المرج.

وصاح بي « جسمان » وكان قد عرف ان « مولن » قد مضى :

— تعالَ يا « فرنسيس » .

وسرت اليهم دون ان انبئ احداً وتسلقت العربة الخابّة ووقفت فيها مع الواقفين ، مستنداً الى احد جوانبها القائمة وانتحينا منزل الارملة « دلوش » . . .

نحن الآن في مؤخر الدكان عند المرأة الطيبة ، وهي صاحبة نزل وبائعة في وقت معاً. فثمة شعاع شمس ابيض ينزلق من خلال النافذة المنخفضة على صفائح التنك ودنان الخل. وجلس «بوجاردون» الضخم على سند النافذة ملتفتاً الينا ، وهو يضحك ضحكات سمجة ويأكل البقسماط بالملعقة . وكان « روي » الصغير يصيح صيحات ابتهاج. وقامت بيننا ألفة . فأصبح « جسمان » و « بوجاردون » من اصدقائي . وتبدّل مجرى حياتي : وبدا لي ان « مولن » قد ذهب منذ زمن بعيد وان مغامرته قصة قديمة العهد ، قصة حزينة ولكنها منتهية .

واكتشف « روي » الصغير على احد الرفوف قنينة خمر مفتوحة . وادارها علينا « دلوش » ولم يكن هناك الا قدح واحد ، فشربنا متعاقبين عليه . وقُدّم اليّ اولاً بشيء من المجاملة فارتبكت قليلاً. وتطرّق الحديث الى « مولن » فشئت ، ازالة للارتباك، ان اظهر اني اعرف قصته وان اروي شيئاً منها . ولعمري ايّ ضرر في هذا الآن ، وقد انتهى كل شيء من مغامراته هنا ؟ . . .

اتراني لم احسن الرواية؟ فهي لم تحدث الاثر الذي توقعت .

ان رفقائي وهم القرويون الطيبون الذين لا يدهشون لشيء، لم يدهشوا لليسير الذي رويت فقال « بوجاردون » :

ــ وايّ غرابة في هذا؟ انه عرس ليس الاّ .

وقال « دلوش » انه شاهد مثل هذا واكثر طرافة منه .

والقصر؟ لا شك انّ في الناحية من سمع بذكره .

والفتاة؟ سيتزوج منها « مولن » حالما ينهي خدمته العسكرية. وقال آخر :

ــ كان عليه ان يحدثنا بهذا، وان يطلعنا على خريطته، بدلاً من ان يسرّ بامره الى بوهيمي .

واذ وجدتني اتخبط في فشلي، رأيت ان اغتنم الفرصة لأثير فضولهم وعزمت على ان اشرح لهم من هو هذا البوهيمي ومن اين اتى واي مصير غريب هو مصيره . . . على ان « بوجاردون » و « دلوش » لم يشاءا ان يستمعا الى شيء، فقالا « انه علة كل شر » وانه السبب في كون « مولن »، الانيس بطبيعته، قد اصبح بعيداً عن المعاشرة وانه السبب في تنظيم الهجمات الليلية وما لابسها من السخافات، بعد ان جند التلامذة على شكل كتيبة مدرسية . . .

والتفت « جسمان » الى « بوجاردون » وقال مهزاً رأسه هزهزة سريعة :

— ما احسن ما فعلتُ اذ وشيتُ به الى الدرك . انه فتى اساء كثيراً الى البلد، وكان من الممكن ان تعمّ اساءته اكثر فأكثر...

وها انا على وشك الانحياز الى رأيهم . اذ لا ريب ان الامور كانت قد انتهت الى غير ما انتهت اليه لو اننا واجهنا القضية بغير ما واجهناها به من التشاؤم والغموض ، واذن لقد اضعنا كل شيء بتأثير « فرانز » . .

وفيما كنت مستغرقاً في هذه التأملات سمعنا حركة في الدكان . فاسرع « جسمان » الى تخبئة قنينة الخمر وراء برميل . وهوى الضخم «بوجاردون » عن نافذته، فوقعت رجله على قنينة فارغة فتدحرجت تحته واوشك ان ينطرح مرتين . اما الصغير « روي » فكان يدفعها من الوراء ليسبقها في الخروج ، بينما كاد يختنق من الضحك .

ورافقتهم في الهرب دون ان اعرف سبباً لما يجري . فاجتزنا الساحة وتسلقنا سلماً الى أهراء تبن . وسمعت صوت امرأة تنعتنا باقبح النعوت. . . فقال « جسمان» همساً :

ـــ ما كنت احسب انها ستعود بمثل هذه العجلة .

وادركت عندئذ فقط ، ان وجودنا هنا ما كان الا خدعة ، لنسرق البقسماط والخمر . فخبت خيبة ذلك المشرف على الغرق ، الذي حسب انه يكلم رجلاً فاذا به يرى قرداً . ولم تبقَ لي رغبة الاّ في مغادرة هذا المكان ، لشدة ما أكره تلك المغامرات . أضف الى هذا ان الليل كان قد هبط . . . فأخرجوني من الناحية الخلفية ، ومررت بحديقة ، ثم باخرى ، ودرت حول حوض ، ثم نفذت الى الشارع الموحل ، حيث كانت تنعكس الانوار من مقهى « دانيال » .

وماكان لي ان اتباهى بتلك الامسية . ووصلت الى محلة « الطرق الاربعة » وبالرغم مني ، خُيّل اليّ اني ارى عند المنعطف وجهاً اخوياً ، قاسي الملامح ، يبتسم لي ، وايماءة اخيرة باليد ، وعجلة تتوارى . . .

وثمة ريح باردة تخفق في ردائي شبيهة بريح الشتاء الذي مرّ بنا ، متساوياً في جمالاته ومآسيه . وها هي الاشياء تتعقّد وتبدو في نظري اقل سهولة . ففي غرفة الدرس الكبرى حيث ينتظرونني للطعام ، تعبر مجاري هواء مفاجئة خلال يسير السخونة المنبعثة من المدفأة .

وفيما انا ارتجف من البرد انصب علي التأنيب بسبب تشرّدي هذه الامسية، اضف الى ذلك اني لم اجد في عودتي الى حياتي الماضية الرتيبة، تعزية الجلوس في مكاني المعتاد على المائدة. فلم يهيأ لنا خوان هذا المساء، بل تناول كل منا طعامه على ركبتيه في غرفة الدروس المظلمة. ورحت آكل بصمت طلمة مخبوزة على المدفأة وقد احترقت اطاريفها على الدوائر المحمرة.

وفي الليل، وجدتني وحيداً في غرفتي، فنمت سريعاً لاخنق تلك الهواجس الصاعدة من اعماق كآبتي. لكني استيقظت مرتين في منتصف الليل، ساعة خيّل اليّ انني سمعت، في المرة الاولى، صرير السرير المجاور حيث كان من عادة «مولن» ان يتقلب فجأة بمجموع جسمه، وفي المرة الثانية، خطاه الخفيفة، خطى الصياد المترصّد، خلال سقائف البيت العميقة...

٢٩

لم اتسلم، طوال حياتي من « مولن » الا رسائل ثلاث . وهي ما تزال لديَّ في احد ادراجي . وكلما قرأتها عاودني الغم القديم

وقد وصلتني الاولى بعد يومين من ذهابه :

عزيزي « فرنسيس » .

«اليوم، حال وصولي الى باريس ذهبت امام المنزل المعين.
« فلم ارَ شيئاً. ولم يكُ ثمة احد. ولن يكون احد قط . ان المنزل
« الذي دل عليه « فرانز » انما هو فندق ذو طبقة واحدة . ويجب
« ان تكون غرفة الآنسة « دي غاليه » في الاعلى حيث النوافذ
« العليا محتجبة وراء الاشجار . الا انك تراها جيداً بمرورك على

« الرصيف . ان السجوف منسدلة . وانه لمعتوه، ذلك الذي يأمل
« ان يرى خلال هذه السُتر، وقد ارتفعت، وجه « ايڤون دي غاليه»
« يبدو أو يطل .

« يشرف الفندق على جادة . . . والديم تهلّ رقيقة في الاشجار
« وقد اكتست اخضرارها . واجراس حافلات الترام ترن صافية
« مستمرة . ولبثت زهاء ساعتين امشي جيئة وذهاباً تحت النوافذ .
« وتوقفت قليلاً في خمـــارة لاشرب كيلا يحسب الناس انني لص
« يحاول امراً . ثم عدت الى ترصّدي دون ما امل .

« وهبط الليل . فأضاءت النوافذ في كل مكان، الا في هذه الدار
« فما في الدار من احد . مع ان عيد الفصح قد حان ميعاده . وحين
« هممت بالانصراف أقبلت فتاة، ولعلها امرأة لست ادري، وجلست
« على احد المقاعد المبتلة بالمطر . وهي ترتدي ثوباً اسود فيه طوق
« ابيض حول العنق . وكانت ما برحت هنا حين ذهبت، جامدة
« على رغم برد الشتاء، تنتظر لا ادري ماذا ولا ادري من . فانت
« ترى ان « باريس » تعجّ بالمجانين امثالي . »

« اغوسطين »

وتصرّمت الايام . وعبثاً انتظرت كلمة من «مولن» في اليوم الثاني من الفصح والايام التي تلت – تلك الايام التي هي من الهدوء بعد موَجَان الفصح، بحيث لا يشغلك فيها الا ان تنتظر حلول الصيف

وعاد حزيران بمواقيت الامتحانات، وبحر خانق خيمت لفحاته الهائلة على البلاد، ولا نفحة ريح تبردها . فلا رطابة قط في الليل ولا انقطاع بالتالي لهذا العذاب . وفي وطأة هذا الجو الثقيل من حزيران تسلمت الرسالة الثانية من «مولن» الكبير :

حزيران . . . ١٨٩

«صديقي العزيز»

«الآن ضاع كل امل . وادركت ذلك عشية امس . ويتزايد «ألمي .

«كنت اذهب كل مساء لاجلس على هذا المقعد مترصداً، متأملاً «وفي نفسي بقية من الرجاء . وكان الليل امس بعد العشاء حالكاً «خانقاً، والناس يتحدثون على الارصفة تحت الشجر . وفوق غضّ «الغصون المخضرة تحت الاضواء، استنارت الطبقات الثانية والثالثة «من المنازل . وهنا وهناك نافذة فتحها الصيف على مصراعيها...

« فترى المصباح مضاءً على الطاولة يكاد لا يدفع حوله ظلمة حزيران
« الحارة، ويريك بالجهد اعماق الغرفة . . . آه ! لو ان نافذة « ايقون
« دي غاليه» استنارت هي ايضاً، لتجرأت على ما اعتقد، وصعدت
« السلم وقرعت الباب ودخلت . . .

« ان الفتاة التي حدثتك عنها كانت هنا تنتظر مثلي . وحسبت
« انها تعرف المنزل فسألتها فاجابت — اعرف ان فتاة واخاها كانا
« ينزلان هذا البيت ابان العطلة . ولكني فهمت ان الاخ قد هرب
« من قصر والديه ولم يهتد احد اليه، وان الفتاة قد تزوجت. وهذا
« ما يفسر لك ان البيت مقفل .

« وذهبت وما خطوت عشر خطوات حتى تعثرت رجلاي على
« الرصيف واوشكت ان اسقط . وفي الليل، ليلة امس — عندما
« سكت النسوة والاولاد في الساحات وتهيّأ لي ان انام ، بدأت
« اسمع دحرجة المركبات في الشارع، تمر من بعيد الى بعيد. وكلما
« مرت مركبة انتظر، بالرغم مني مرور الاخرى : الجلجل ووقع خطى
« الخيل تدب على الاسفلت . . . وجميع هذا يردد في مسمعي : انها
« المدينة المقفرة، وحبك الضائع، وليلك الطويل، او الصيف والقيظ .
« يا «سوريل» يا صديقي انني لفي شدّة عظيمة» . « اغوسطين »

مهما بدا من ظاهر هذه الرسائل فهي لا تنطوي على غير اليسير من دخائله وسرائره . فهو لا يذكر لي لمـــاذا بقي صامتاً طوال هـــذه المدة، وما هو مزمع ان يفعل . ولاح لي انه عزم على قطع صلته بي، لان مغامرته قد انتهت، كما انه قطع كل صلة بالماضي . والواقع انني طالما كتبت اليه فلم الق منه جواباً . ولم اتسلم منه الا كلمة تهنئة يوم نلت شهادتي الاولى. وفي ايلول علمت من احد رفقاء المدرسة انه جاء ليقضي العطلة عند امه وكنا وقتئذ نازلين على « فلورنتان » فعاد «مولن» الى « باريس » دون ان يتسنى لي ان التقيه .

وفي نهاية تشرين الثاني فيما كنت على اهبة الاستعداد للشهادة العليا، برغبة تشوبها الكآبة، على امل ان أعيَّن في سلك التعليم دون ان امر بدار المعلمين في مدينة «بورج»، تلقيت آخر الرسائل الثلاث التي لم يرد عليّ غيرها قط من «اغوسطين» وكتب يقول :

« ما زلت امر تحت تلك النافذة وما برحت انتظر دون ما امل
« بدافع الجنون . وفي امسيات تلك الآحاد الباردة من تشرين
« الثاني لا يسعني الرجوع الى غرفتي وقفل النوافذ ما لم امر هناك
« في الشارع المثلج .

« انني كتلك المجنونة، في « سانت اغات » التي تخرج كل دقيقة
« امام الباب، فتضع يدها فوق عينها وتنظر صوب المحطة لترى
« هل يعود ابنها الميت .

« انني هنا على هذا المقعد ارتجف واشقى . ويحلو لي ان اتخيل
« يداً تأخذ بساعدي مترفقة. فاتلفت، واذا المقبل علي هي، وتقول
« لي « لقد تأخرت شيئاً » . . . فيزول كل شقائي وكل تعتهي .
« وتدخل الى بيتنا . واذا فراؤها مجلد وازارها مبتل. ففيها رائحة
« الضباب . وفيما تقترب من النار، ارى شعرها الاشقر وعليه خيوط
« الجليد، وجانب محياها العذب منحنياً فوق اللهب . . .

« ويلتاه ! ان زجاج النافذة ما برح ابيض كالستار الذي وراءه
« ولو ان فتاة القصر المفقود فتحته الآن، لما ملكت ان اقول
« لها شيئاً .

« لقد انتهت مغامرتنا . وقد مات شتاء هذا العام كالرمس .
« ولعل الموت وحده، حين نموت، يعطينا مفتاح هـــذه المغامرة
« الخائبة وتتمتها ومنتهاها .
« يا سوريل » كنت قد طلبت اليك إن تفتكر بي . والافضل
« الآن ان تنساني وان تنسى كل شيء . . . « ا. م. »

واقبل شتاء جديد ميت، بمقدار ما كان الشتاء الذي قبله ممتلئاً بالحياة مكتنفاً بالاسرار: ساحة الكنيسة الخالية من البوهيميين... باحة المدرسة التي كانت تقفر بعد الساعة الرابعة .. غرفة الدرس التي اطالع فيها دون ما شغف ... وفي شهر شباط تساقط الثلج للمرة الاولى فدفن رواية مغامرتنا الى الابد ومحا معالمها الاخيرة . ورحت اسعى طاقتي – كما طلب اليّ «مولن» في رسالته – لانسى كل شيء ...

٣٠

التدخين، ومسح الشعر بذوب السكر ليتجعد، وتقبيل بنات الصف التكميلي في الطريق، والتهكم من وراء السياج، على الراهبة المارة بعبارة «يا للقلنسوة المقرنة». هذا ما كان يبتهج له خلعاء البلد. والخلعاء من هذا الصنف يمكن اصلاحهم اذا كانوا في العشرين من العمر، فيصبحون شباناً مرهفي الاحساس بيد ان الامر اشد خطورة اذا كان الخليع قد اصبح ذا وجه متغضن ذاو، وكان يُعنى بقصص النساء المشبوهات فيروي مثلاً عن «جيلبرت بوكلان» الف سخافة ليضحك الناس... ولكنها حال لا تدعو الى اليأس بعد...

تلك هي حال «جسمان دلوش». لقد كان يتابع، ولا ادري ما السبب، امثولات الصف العالي ولم تكن تحدوه اية رغبة ولا ريب. في تقديم الامتحانات. وكان الجميع يودون لو انصرف عن الدروس، لانه يتعلم عـــلى عمه صناعة الجص. على ان «جسمان» هذا «وبوجاردون» وفتى آخر حلو الشمائل اسمه «دنيس» قـــد اصبحوا التلامذة الكبار الذين ملت الى معاشرتهم لانهم من «عهد مولن».

وكان «جسمان» يرغب رغبة صادقة جـــداً في ان يكون لي رفيقاً. فهو، وقد كان الد خصوم «مولن» الكبير، يود لو يصبح بدوره «مولن» المدرسة الكبير. ويأسف انه لم يكن معاونا له وكان اقل بلادة من «بوجاردون». فقد شعر بما اضفى «مولن» على حياتنا من الغرابة وكثيراً ما سمعته يردد:

«ان «مولن الكبير» قال...

وفضلاً عن ان «جسمان» يكبرنا سنا، فقد كان يعرف من اساليب التلهي مـــا يكرس تفوقه علينا. فلديه كلب هجين ذو شعر ابيض طويل واسم مزعج «بيكالي»، ترمى له الاحجار بعيداً فياتي بها، ولا يبدو ان به قابلية واضحة لغير هذا المران. ويملك

دراجة قديمة حازها رخيصة الثمن، كان يسمح لنا بركوبها احياناً بعد الدرس مساء. بيد انه كان يؤثر ان يمرّن عليها فتيات المحلة. ولديه ايضاً حمار ابيض اعمى يقرنه الى كل انواع العجال.

وصاحب الحمار انما هو «دوماس» الذي كان يعيره «جسمان» كلما ذهبنا نغتسل في نهر «الشير» صيفاً. وكانت امه تعطينا قنينة من عصير الليمون نضعها مع اثواب الحمام الناشفة. فنذهب ثمانية تلامذة او عشرة يرافقنا السيد «سوريل»، يسعى بعضنا على الاقدام وبعضنا الاخر في عربة الحمار التي كنا نتركها في مزرعة «غرانفون» عندما تصبح طريق «الشير» كثيرة الاخاديد.

واني لاذكر ادق التفاصيل من نزهة قمنا بها على «الشير» حيث كان حمار «جسمان» يجر وراءه سراويلاتنا وحوائجنا وقنينة العصير والسيد «سوريل» بينما كنا نسير في المؤخرة على الاقدام. كان ذلك في شهر آب. وكنا قد فرغنا من هاجس الامتحانات فخيل الينا ان الصيف ملكنا كله، وان السعادة لنا. وسرنا في الطريق نغني، لا نعرف ماذا، او لماذا، في مستهل ظهيرة جميلة من نهار خميس.

وبدت، تسعى امامنا «جيلبرت بوكلان» بقامتها الفارعة،

وتنورتهـــا القصيرة ، وحذائيها العاليين ، وبتلك الملامح العذبة الوقحة ، ملامح الفتاة تجوز ريّق الصبا . ومـالت عن الطريق في درب منحرفة . لتجلب الحليب ، ولا شك . فعرض « كوفمان » الصغير على « جسمان » ان يلحق بها . فاجاب هذا :

– ما هي المرة الاولى التي اذهب لاقبلها . . .

وراح يروي عنها قصصاً فيهـا سفه وخلاعة ، فيما انصب جميع الرفقاء في الدرب، اثرهـــا ، تاركين السيد « سوريل » في العربة الجـــارية . . . بيد انهم تفرقوا بعد حين شيئاً فشيئاً . حتى ان « جسمان » نفسه لم يبد حماساً في التعرض للفتاة عـلى مرأى منا ، ووقف منها على خمسين متراً . واقتصر الامر عـلى بعض صيحات ديك وقوقأة د جاج وصفير تظرّف ومناجاة . ثم نكصنا عـــلى اعقابنا مرغمين لنستأنف السير راكضين في ملء الشمس ، وانقطعنا عن الغناء .

ونزعنا ملابسنا تحت شجرات الصفصاف العارية عـــلى ضفاف « الشير » ، ذلك الصفصاف الذي حجبنا عن الانظار لا عن الشمس . واذ غاصت ارجلنا في الرمال والوحول الجافة لم نكن لنفكر بغير قنينة العصير التي وضعناها تبرد في عين « غرانفون » ، تلك العين

المحفورة عند شاطىء النهر، التي تنبت في اعماقها الحشائش الدكناء، وتجول فيها بعض الهوام المتعددة القوائم . بيد ان ماءهـا هو من الصفاء والشفوف بحيث ان الصيادين ما كانوا يترددون عن الركوع والاستلقاء باليدين على حافتيها ليشربوا .

وحصل في هذا النهار ما كان يحصل في كل يوم مثله . . . . اذ كنا وقد ارتدينا ثيابنا ، ننتظم في حلقة معقودي الارجل ، لنقتسم العصير المبرد في كوبين لا قاعدة لهما، فيأخذ السيد «سوريل» نصيبه ولا يصيب الواحـد منا الا قليل من الرغوة تلذع الحلق وتزيد العطش . فنتناوب عـــلى العين التي سبق ان ازدريناها وندني الوجه بتمهل من الماء الصافي . بيد ان الجميع لم يكونوا متمرسين بعـادات اهل الحقل . فكثيرون امثالي لم يستطيعوا الى الارتواء سبيلاً . فبعضهم لا يستسيغ الماء ، وآخرون ضُغطت حلوقهم مخافة ان يبتلعوا احدى الهوام .

وآخرون ايضاً اغتروا بشفوف الماء الساكن فلم يعرفوا بالضبط اين يبتدىء سطحه فغطست آنافهم وافواههم معاً فاستنشقوا ماء بدا لهم حَمِزاً لاذعاً . واحجم غـــيرهم ايضاً لتلك الاسباب مجتمعة . لكن سيان عندنا هذا او ذاك . فقد خيل الينا ان

كل ما في الارض من رطابة قد استجمع عند تلك الشطوط القاحلة والآن ايضاً كلما ذُكِرت عين ، وايما ذُكرت ، فاني افتكر بتلك ، وافتكر طويلاً .

وعدنا عند منحنى النهار لاهين غافلين شأننا في الذهاب . وكانت درب « غرانفون » التي تصعد نحو الطريق عبارة عن جدول شتوي يتحول صيفاً الى خورٍ وعر المسالك، تتخلله الاخاديد والجذوع الغليظة وينساب في الظل بين اسيجة عظيمة من الشجر .

وانخرط في هذا المسلك فريق توخى اللعب . بيد اننا سلكنا مع السيد « سوريل » و « جسمان » وغيرهما طريقاً سوياً رملياً موازياً لذاك . وكنا نسمع حديث هؤلاء الآخرين وضحكاتهم بالقرب منا، وفوقنا ، متحجبين في الظلال ، بينما كان « دلوش » يروي قصصه، وهي قصص المراهقين... وفي اعالي السياج الكبير، على قمة الشجر ، حومات من هوام المساء ، تبدو في صفاء المساء مضطربة حول تخاريم الورق . ويحدث حيناً بعد حين ان تهوي احدى الهوام فجأة فيسمع لدندنتها ازيز – فيا لجمال الصيف في مسائه الساكن !. . . بيد ان «جسمان» عاد دون ما قصد منه، الى تشويش هذا السكون .

حين بلغنا رأس المنحدر حيث يقوم حجران عظيمان يقال انهما بقية خرائب احد الحصون ، راح يحدثنا عن القصور التي زارها واخصها قصر «السابلونيير» المهجور، القائم في ضواحي «فيونانساي» وبذلك النطق الذي يتميّز به اهل « الآليه » شرع يتفنن بعُجب، في لفظ بعض الكلمات ، ويتصنع في اختصار كلمات اخرى ، ويروي لنا كيف انه لسنوات خلت رأى في كنيسة ذلك القصر الخربة ضريحاً نقشت عليه هذه الكلمات :

«هنا يرقد الفارس « غالوا »

«الامين لربه ولمليكه ولجميلته».

فتململ السيد « سوريل » قليلًا وهز كتفيه شيئاً ، قائلًا : هذا لعمري . . . » كأنه تضايق من ان نميل با لحديث الى هذه المواضيع ، على كونه راغباً في ان يرانا نتحدث كالرجال.

واستمر « جسمان » يصف هذا القصر وكأنه قضى فيه شطرا من العمر . واخبرنا انه قد حدث له مراراً ، عند رجوعه من « فيونانساي » مع صديقه « دوماس » ان استوقف نظرهما البرج القديم الاغبر البادي فوق غابة الصنور . تلك الغابة التي تقوم فيها متاهة بنايات خربة تسهل زيارتها في غياب اسياد المكان . وقال

انه وصديقه مرا، في احد الايام، بحارس تلك الاملاك فاصعداه في عربتها وذهبوا معا الى الدارة العجيبة . وان تلك المباني قدتهدمت الآن ولم يبق منها غير مزرعة ومنزل للتنزه، يسكنها الى جنب ابنته، ضابط عجوز متقاعد، حطّ به الدهر .

وكان يتكلم ويتكلم . . . فأُصغي اليه بانتباه شديد، مستشعرا انه يتحدث عن شيء اعرفه . واذا به يفجأني، كما تفجأك الامور الخارقة – بالتفاتةٍ منه، فيمسّ ساعدي بيده كمن عرضت له فكرة طارئة وقال :

– لعمري، يبدو لي انه المكان الذي ذهب اليه «مولن الكبير».

واضاف اذ رأى اني لا اجيب :

– اجـــل، اجل، واذكر ان الحارس حدثني عن ابن صاحب القصر، انه فتى غريب الاطوار . . . وانصرفت عن الاصغاء اليه، موقنا انه اصاب الهدف، وان طريق الدارة المجهولة قـــد انفتح امامي مشرعاً واضحاً . كمسلك طالما الفته، فيما انا بعيد عن «مولن» وعن كل امل .

٣١

اني بقدار ما كنت فتى شقياً، خيالياً، منطوياً على نفسي ، اصبحت اليوم حزوماً صادق العزيمة، حينما استشعرت ان مآل تلك المغامرة معلق عليّ ومنوط بي . واذكر ان آلام ركبتي زالت منذ هذا المساء .

وكان لي في « فيونانساي »، التي تقوم في جوارها املاك « السابلونيير »، عم تاجر يدعى «فلورنتان»، ننزل عليه احياناً في الايام الاخيرة من ايلول . وكنت قد انعتقت يومئذ من عبء الامتحانات، فلم ارتضِ الانتظار حتى ذلك الوقت، بل حصلت على الاذن في ان اذهب اليه حالاً . لكنني صممت على الاّ اكاشف

« مولن » بشيء ، ما لم تتهيأ لي مناسبة خبر سار انفذه اليه . وإلا فما الفائدة من ان انتزعه من يأسه لأطرحه ثانية في اعمق منه وأدهى ؟

لقد ظلت « فيونانساي » زمنا طويلا في نظري امرع مقام في الدنيا وأعذبه، ومنتجع الايام الاخيرة من العطلة . وما كنا لنرتاده الا نادراً عندما تتيسر لنا عربة للاجرة تنقلنا اليه . ذلك ان نزاعاً كان قد وقع بيننا وبين فرع الاسرة القاطن هناك . وهو السبب في ان « ميليا » كانت تستنكف كل مرة ، عن ركوب العربة ، فلا تستوي فيها الا بعد توسل والحاح . بيد اني ما كنت ، فيما خصني، لاقيم وزنا لهذا التنافر ! . . . بل كنت ، حالما اصل ، اتوه والهو بين الاعمام ، وبنات وبني الاعمام ، في حياة نسيجها الف ملهاة سارّة ، ومباهج تأخذ بمجامع القلب .

وكان للعم « فرومنتان » وزوجته « جوليا » فتى من عمري اسمه « فيرمان » وثماني بنات ، كبراهن « ماري لويز » والثانيـة «شارلوت» ولهما من العمر سبع عشرة وخمس عشرة سنة . ولهذه العيلة مخزن عظيم عند مدخل الدسكرة قرب الكنيسة ، وهــو

مخزن جامع شامـــل يتموّن منه اصحاب القصور، الصيادون المنعزلون، في تلك النواحي على بعد ثلاثين ميلاً من اقرب محطة.

وذلك المخزن المحتوي على الافاويه والتوابل والبضائع القطنية يطل على الطريق بنوافذه العديدة وعلى ساحة الكنيسة الكبرى ببابه المصفح بالزجاج. والامر الذي تراه مستغربا، على كونه مألوفا في هذه البلاد الفقيرة، هو ان ارض الدكان عبـــارة عن تراب مرصوص عوضا عن ان تكون من صفائح الخشب. وتقوم من الناحية الخلفية ست غرف تحتوي الواحدة منها على صنف معين من البضاعة. فثمة غرفة القبعات، وغرفة البقول، وغرفة المصابيح، الى ماهنالك. وكان يلوح لي، في الصغر، عندما كنت اجتاز هذه المتاهة من ادوات الاتجار تلك، انني لن اشبع النظر قط من تلك العجائب. وكنت اجد ايضاً في ذلك العهد، ان لا بهجة للعطلة في غير ذلك المقام.

وكانت الاسرة تعيش في مطبخ رحب ينفذ بابه الى المخزن، مطبخ تلتمع فيه في نهاية ايلول، ألسنة من لهيب المدخنة، وتقبل عليه جماعات الصيادين في الصباح الباكر ليبيعوا من «فلورنتان» طرائدهم ويتناولوا شيئاً من الخمر، فيما تتراكض الفتيات الصغيرات وقد نهضن من النوم، ويتلاحقن صائحات، ويتعاقبن على الاطيـــاب

فيمسحن شعورهن الملساء . وعلى الجدران ُعلقت تصاوير قديمة العهد ، وبينها رسم جماعات مدرسية علاه الاصفرار ، يظهر فيه والدي، وبالجهد تعرفت اليه في زيّه الرسمي – بين رفقائه في دار المعلمين .

هنــــا كانت تنقضي صبائحنا ، وفي الحديقة ايضاً، حيث كان «فلورنتان » يزرع الزهور ويعنى بتربية دجاج فرعون . وهنا كانت الفتيات تحمصن البن مقتعدات علب الصابون، وهنا ايضا كنا نحلّ ربائط الصناديق الملأى باشياء مختلفة ملفوفة بوقاية وعناية، اشياء كثيراً ما جهلنـــــا اسماءها . . . وكان يتألب على المخزن، طوال النهار، الفلاحون وحوذيّو القصور المجاورة . وتقف عنـــد الباب الزجاجي، عجلات مقبلة من اعماق الريف تنضح في ضباب ايلول، فنصغي من المطبخ الى احاديث القرويات ونميل بالسمع والقلب الى جميع اقاصيصهن . . .

اما في المساء، بعد الساعة الثامنة ، عندما ينقل التبن على ضوء المصابيح للخيول المتدخنة الجلود في الاصطبـل ، فيصبح المخزن ملكنا كله ! .

وعندئذ تكون « ماري لويز » كبرى بنات عمي ومن اصغرهن

قواما، عـــلى وشك الانتهاء من طيّ انضاد الجوخ وتصفيفها في الدكان، فتشجعنا على المجيء لتسليتها، فنقوم، «فيرمان» وانا وسائر الفتيات، بهجوم عظيم على المخزن الكبير، على ضوء مصابيح النزل، فنعالج مطاحن البن ونشرع في العاب البطولة على المناضد. وكان «فيرمان» يأتي احياناً بمزمارٍ من السقيفة يعلوه الزنجار، لان ارض الدكان المرصوصة تؤاتي الرقص وتدعو اليه ...

واني ما زلت احمرّ خجلاً كلما خطر لي انه كان من الممكن في السنين الماضيات ان تحضر الآنسة «دي غاليه» في تلك الساعة وتفاجئنا على ما نحن فيه من الالاعيب الصبيانية . .

وذات امسية من امسيات آب، قبل هبوط الليل، اذ كنت اتحدث، ناعم البال، الى «ماري لويز» و«فيرمان»، تسنى لي ان اراها للمرة الاولى . . .

كنت مساء وصولي الى «فيونانساي» قـــد استعلمت العم «فلورنتان» عن املاك «السابلونيير» فقال :

— لم يبقَ ثمة املاك فقد بيعت جميعها . والشارون وهم من غواة الصيد، قد هدموا جميع المباني توسيعاً لأرض الطرائـــد . وساحة الشرف نفسها ان هي الآن الا مساحة بور تكسوها اشواك

الأريتي والسَّمُر . ولم يحتفظ المالكون القدماء بغير منزل ذي طبقة واحدة فضلًا عن المزرعة . وانـك لا تلبث ان ترى الآنسة « دي غاليه » عندنا . فهي تحضر بنفسها لشراء الحوائج ، تارة على متن جواد ، وتارة في عجلة ، والفرس هو هو ابداً نفسه ، « باليزار » الهرم . . .

وبلغ بي الاضطراب مبلغاً لم ادرِ معه اي سؤال أطرح لأستعلم المزيد فقلت :

– ولكنهم كانوا من اهل الثراء !

فقال :

اجل ان السيد « دي غاليه » كان يقيم المهرجانات تلهية لابنه ، الفتى الغريب الاطوار ، الغريب الاهواء ، فيبتدع ما يستطيع من الغرائب لتسليته ، فيستقدم الباريسيات وفتياناً مـــن «باريس» وغيرها . . .

وعلى رغم ان « السابلونيير » قد تهدم معظم مبانيها ، وان السيدة « دي غاليه » قـد آذنت شمس ايامها بالمغيب ، فلم يعدموا وسيلة قـط لارضائه وتلبية جميع رغباته . ففي الشتاء المنقضي –

عفوا بل في الشتاء الذي قبله ، اقاموا اعظم مهرجان مقنع دعوا اليه نصف القوم من « باريس » والنصف الآخر من اهل المزارع . واشتروا واستأجروا كميات من الاثواب العجيبة والالعاب والخيول والمراكب . كل ذلك للترفيه عن «فرانز دي غاليه». وقيل انه على اهبة الزواج وان المهرجان مهرجان الخطبة . بيد انه كان ما برح صغير السن . فانحطم كل شيء فجأة وتوارى الفتى . فلم يره بعد ذلك احد قط. وماتت صاحبة القصر فاذا بالآنسة « دي غاليه» تصبح وحدها مع ابيها الضابط المتقاعد .

وسألته اخيراً :

— اليست متزوجة ؟ فاجاب :

— كلا ، لم اسمع شيئاً من ذلك ، العلك طالب يدها ؟

فارتبكت شديد الارتباك واعترفت له ، بما امكن من التحفظ والايجاز ، ان صديقي المفضل « اغوسطين مولن » قد يطلب يدها .

فتبسم وقال:

— اذا لم تكن الثروة مطلبه ، فنعم مايختار . . . ايصح ان اكاشف السيد « دي غاليه » بهذا ؟ فهو يأتينا احياناً ليبتاع رصاصاً

للصيد، واسقيه دائماً من خمرتنا «ماء الحياة» ولكنني رجوته الاّ يفعل وان يتريث. ولم اتسرع، فيما خصني، بابلاغ «مولن» شيئاً من هذا. فان تراكم تلك الحظوظ السعيدة كان مما يقلقني. وقد فرض عليّ هذا القلق ألاّ افاتح «مولن» بشيء قبل ان ارى الفتاة.

ولم يطل انتظاري، ففي الغد، قبل العشاء قليلاً، اخذ الليل في الانتشار، والضباب الرطب — كأنه ضباب ايلول لا آب، — يتحالف مع الليل. وبدا لنا «فيرمان» وانا ان المخزن خالٍ من الشارين، فهرعنا لنتحدث الى «ماري لويز» «وشارلوت». وكنت قد اسررت اليهما بالسبب الذي قدمت من اجله الى «فيونانساي» قبل الموعد المعلوم. وكنا اما مترفقين على الطاولة واما مقتعدين الواح الخشب المطلية، مستلقين عليها براحاتنا المنبسطة، نتبادل الاحاديث عما نعرف — وهو قليل — عن الفتاة السرية. واذا بجلبة دواليب تعلو فنتلفت.

فقال رفقائي بصوت منخفض: هذه هي!

وما انقضت بضع ثوان حتى وقف الركب العجيب امام الباب الزجاجي. فثمة عجلة عتيقة من عجلات المزارع، ذات أُطر

مستديرة ، واروقة صغيرة ، مما لم نرَ له مثيلاً في تلك النواحي، وفرس ابيض هرم يبدو كأنه يحاول ارتمام العشب ابداً على الطريق، لشدة ما ينحني في مشيته، وعلى الاريكة فتاة – اقول هذا بسذاجة القلب ولكن عن يقين اقول – فتاة لعلها اجمل من في الدنيا منذ الازل .

فلم ارَ قط قبل اليوم هذا المقدار من العذوبة والرزانة مجتمعتين. وكان قوامها من الهيف، تحت ثوبها، بحيث بدا كأنه يكاد ينقصم . وعلى كتفيها رداء كستنائي عريض نزعته عنها ساعة دخلت، فهي ارزن الفتيات وارشق النساء . وشعرها الكثيف الاشقر يلحّ على جبينها وعلى محياها المنمنم الرسم اللطيف المثال . وقد جعل الصيف في بشرتها الشديدة النقاء بقعتي كلف . . . ولم اتبين في هذا الجمال كله الا عيباً واحداً، ذلك ان هذا الوجه الرخامي المؤتلق الرواء، تتماوج فيه، في ساعات الكآبة او القنوط او مجرد التأمل العميق، دفعات خفيفة من الاحمرار، على ما يحدث لبعض المرضى، وقد ألمّ بهم داء خطير مستتر . فيتحول عندئذ اعجاب من ينظر اليها الى نوع من الشفقة تؤلمك بمقدار ما تدهشك.

هذا ما تبينته اذ رأيتها تنزل من العربة متمهلة. وقدمتني اليها «ماري لويز» مرتاحة الى انها سهلت لي مهمة الحديث . وقدموا لها

كرسيا مطليا فاقتعدته. وأسندت ظهرهـــا الى المنضدة فيما لبثنا وقوفاً . وبدا انها تعرف المخزن تمام المعرفة وانها تحبه . واذ علمت العمة «جوليا» بقدومها اقبلت عليها، وكان الوقت الذي راحت تكلمها فيه متأنية ، معقودة الساعدين فوق بطنها، مهززة برفق رأسها ، رأس القروية المتّجرة ، المعتمرة بقبعة بيضاء مستطيلة ، اجل كان ذلك الوقت مما اخر الحين، —وكنت انتظره بقشعريرة— الذي تميل به الفتاة الي ّ بالحديث . . .

وكان في غاية البساطة، اذ قالت الآنسة «دي غاليه» :

— اذن، ستصبح معلماً عما قريب ؟

كانت عمتي تضيء فوق رؤوسنا قنديلاً من الخزف الصيني يرسل على المخزن نوراً ضئيلاً . فأرى وجه الفتاة العذب القسمات وعينيها الزرقاوين البريئتين، وما اصفاهما. فتزداد دهشتي لصوتها الكثير النقاء والترصّن. فاذا انقضت احدوثة من احاديثها ارسلت لواحظها الى مكان قصيّ. وانتظرت الجواب دون ما حراك، فيما هي تعض طرف الشفة بالثنايا، ومما قالت :

— سأعلّم انا ايضاً ، اذا شاء السيد «دي غاليه»، أعلم صغار الفتيان كأمك انت... وتبسمت لتظهر ان ابناء عمي حدثوها عني.

واستطردت :

– ذلـــك ان القرويين هم تجاهي مهذبون ، لطفاء ، يخفّون للمعروف. واني لأحبهم كثيراً. ولكن اي فضل لي في ان احبهم؟...

لكنهم مع المعلمة مماحكون بخلاء، اليس الامر كما اقول؟ فثمة دائماً قصص مسكات ريش تضيع، ودفاتر غالية الثمن واولاد لا يفيدون من الدرس . . . بيد اني سأجادلهم، وسيحبونني في كل حال وإن تكن في هذا الامر صعوبة كبيرة . . . » ودون ان تبتسم، عادت الى جلستها الحالمة الصبيانية، والى نظرتها الزرقاء الثابتة . وكنا نحن الثلاثة في حيرة وارتباك تجاه هذه السهولة في التكلم عن امور كثيرة الدقة واللطافة، لا تجيد معالجتها الا الكتب. وساد صمت قصير الامد، ثم انخرطنا شيئاً فشيئاً في جدال . . . بيد ان الفتاة استأنفت الحديث، بشيء من الكراهة والحقد على ما لست اعرفه من امر خفي في حياتها، فقالت :

– ثم اني سأعلّم الفتيان ان يكونوا متعقلين، التعقل الذي انا اعرفه. ولن اهيّء لهم الرغبة في ان يطوفوا العالم ، على مـــا سيكون شأنك يا سيدي « سوريل » عندما تصبح معاون استاذ ، بل سأعلمهم ان يجدوا السعادة التي هي قريبة منهم ولا يدرون...

فبهت « فيرمان » و« ماري لويز » كما بُهتّ . ولبثنا لا نفوه

بكلمة . وشعرت بارتباكنا فأمسكت عن الكلام وعضت شفتها وأحنت رأسها ثم تبسمت كأنها تهزأ بنا، وقالت :

ـ وهكذا، قد يكون احد الشبان المجانين يبحث عني في الطرف الآخر من العالم، بينما انا هنا في مخزن السيدة «فلورنتان» تحت هذا المصباح، وبينما فرسي الهرم ينتظرني امام الباب . أليس ان هذا الشاب لو رآني لماصدق نفسه ? . . .

واخذتني الجرأة اذ رأيتها تبتسم ، ورأيت الوقت مؤاتياً لان اقول لها ضاحكاً :

ـ وهذا الشاب المجنون الا تراني اعرفه ؟

فرمقتني بنظر حاد .

وقرع عندئذ جرس الباب فدخلت امرأتان تحملان سلالا ، وقالت عمتي فيما كانت تدفع باب المطبخ :

ـ تعالوا الى غرفة الطعام ، تكونوا في سكينة .

واذ رفضت الآنست «دي غاليه» وحاولت الانصراف، اضافت عمتي تقول :

— ان السيد « دي غاليه » هنا يتحدث الى « فلورنتان » قرب النار .

لقد كان في المطبخ ابداً ، حتى في شهر آب ، حزمة من حطب الصنوبر ، تلتهب وتفرقع . وهناك ايضاً مصباح من الخزف الصيني مضاء ، وشيخ انيس الوجه مخدّده ، حليق الذقن ، شحيح الكلام ، شأن الرجـــل المرهق بالسن وبالتذكارات ، يجلس بالقرب من « فلورنتان » ، حول قدحي خمر .

وحيّاني « فلورنتان » وصاح بصوته الجهوري ، صوت البائع المتجوّل ، كأن بينه وبيني نهراً او مسافة ارض :

— يا فرنسيس ! لقد نظمت نزهة لأمسية الخميس القادم عـــلى شاطىء نهر « الشير » ، فهناك من يصطادون السمك وغيرهم الطيور ، وبعضهم يرقص ، بينما يستحمّ بعض آخر . . . وستحضرين يا آنستي على فرسك . فقد توافقنا على ذلك مع السيد « دي غاليه » . . . وقد اعددت كل شيء . . . واضاف كما لو ان الفكرة عرضت له اتفاقاً :

— ويمكنك يا فرنسيس ان تصحب معك صديقك السيد « مولن » . . . أوليس اسمه « مولن » ؟

وكانت الآنسة « دي غاليه » قد انتصبت واصفرّ لونها فجأة . وتذكرت في هذا الوقت عينه ان « مولن » كان قد ذكر لها اسمه في المزرعة العجيبة قرب البحيرة... وحين مدت اليّ يدها لتنصرف كان قد اصبح بيننا اتفاق هو اوضح واصرح من مدلول الكلام، اتفاق خفي كان على الموت وحده ان يحطمه ، وصداقة اعمق اثراً من الحب العظيم .

... وعند الساعة الرابعة من صباح الغد ، قرع « فيرمان » باب الغرفة الصغيرة التي انزل فيها في ساحة الدواجن . وكان الظلام ما برح مخيماً فلقيت صعوبة في العثور على حوائجي فوق الطاولة المشحونة بالشماعد وتماثيل القديسين ، وكلها جديدة قد اختيرت من المخزن لتزيين حجرتي امسية وصولي . وسمعت « فيرمان » يوعب الهواء في دواليب دراجتي في الساحة وعمتي تنفخ في النار في المطبخ . وانطلقت عند طلوع الشمس ، بيد ان نهاري كان طويلاً فقد ذهبت باديء ذي بدء الى « سانت آغات » لابرر غيابي الطويل ، ثم تابعت المسير حتى اصل قبل المساء الى «فيرته دانجيون» عند صديقي « اغوسطين مولن » .

٣٢

مـــا سبق لي قط ان قمت برحلة طويلة فوق دراجة . وكانت هذه رحلتي الاولى. بيد اني كنت برغم رجلي المريضة قد تمرّست منذ زمن بعيد بهذا التمرين عـلى يد «جسمان» ولئن كانت الدراجة ملهاة لذيذة للفتى العادي، فهل لا تكون اكثر من ذلك لفتى مسكين نظيري طالما جرر ساقه بحقارة وغرق بالعرق بعد ان يقطع الميل الرابع؟ . . . وما اجمل ان تهبط من اعـلى السفوح وتغوص في جوف المناظر، وتكتشف، برقّة جناح، ابعاد الطريق التي تتنحى وتُزهر كلما دنوت ، وتجتاز قرية بلحظة، وتجتاحهـــا كلها بطرفـــة عين . . . انني في الحلم فقط عرفت قبل اليوم رحلة

هذا شأنها من السحر والسرعة . وكانت السفوح نفسها تحس انني قوي العزم، شديد المراس . ولعمري ، يجب القول ، انها طريق بلاد « مولن » تلك التي اترشّفها هكذا . . .

كان « مولن » يقول لي اذ يصف قريته :

– قليلاً، قبل مدخل الدسكرة، ترى دولاباً عظيماً ذا مراوح تديره الريح . . . » ولم يكن ليدري هو نفسه، لأي غرض يستعمل هذا الدولاب، او لعله تجاهل ذلك ليثير فضولي .

وفي منحنى هذا النهار من اواخر آب تسنى لي ان ارى في حقل شاسع هذا الدولاب العظيم يدور في الهواء ويُصعد الماء الى مزرعة قريبة . وتكشفت وراء صفصاف المرج ، المنازل الاولى من الدسكرة، وكنت كلما تتبعت المنعطف الواسع من الطريق حول الجدول ، تنبسط المناظر وتتفتح . . . وعندما بلغت الجسر بدا امامي شارع القرية الكبير .

وهناك ابقار ترتّ ، مختبئة بين قصب الحقول، أسمع اجراسها وقد نزلت عن دراجتي وامسكت مقودها بكلتا يديّ . ورحت اسرح الطرف في تلك البلاد التي انقل اليها خبرا خطيراً . فالمنازل

مصطفة حول فندق يحاذي الشارع، ويُعبَر اليها على مجازات من خشب، وكأنها قوارب مطوية الاشرعة، راسية في هدوء المساء. وهي الساعة التي توقد فيها نيران المطابخ.

وهنا ثبّط الخوف عزيمتي، فضلاً عن انني استشعرت ندماً غامضاً على كوني قد اتيت لاعكر هذه السكينة كلها. وفي الوقت الذي كان يتضاعف خَوَري، تذكرت ان العمة «موينيل» تسكن هنا في احدى ساحات «لافيرته دانجيون»

وهي احدى اخوات جدي، قد مات جميع بنيها، وعرفت اخيرهم «ارنست» الذي كان قد اوشك ان يصبح معلماً. ثم توفي العم «موينيل» شقيق جدي، كاتب المحكمة العجوز. وبقيت العمة وحيدة في بيتها الصغير، الغريب النسق، حيث السجاد مجموعة خرق مخيطة، والمناضد مكسوة باوراق على اشكال ديكة ودجاج وقطط – بيد ان الحيطان كانت مزدانة بالبراءات القديمة ورسوم الموتى وايقونات متنوعة الاشكال.

وكانت، على رغم ما نزل بها من المصائب، غريبة الطبع حلوة المزاج. ولما اكتشفت الساحة الصغيرة التي يقوم عليها بيتها،

ناديتها عاليا من الباب المتثائب ، وسمعتها تصيح بصوت حاد من طرف غرف ثلاث متلاصقة :

– يا لله ، من المنادي !

وانقلبت قهوتها في النار – وكيف تستطيع ان تعد القهوة في مثل هذه الساعة ؟ – ثم أطلّت . . . مقوسة الجسم الى الوراء ، تعتمر قبعة مضحكة الزيّ على قمة رأسها في اعلى جبينها العريض المحدودب . فهي مزيج من المرأة المغولية والمرأة الهوطانطوطية ، وراحت تضحك ضحكات قصيرة متواترة فتنفرج شفتاها عن اسنانها الدقيقة .

وبينا كنت اقبلها امسكَت ، بغير لباقة وبعجلة ، احدى يديّ التي كانت وراء ظهري ، ودست فيها سرا – واي فائدة من السر ونحن اثنان لا غير – قطعة نقود لم اجرأ على النظر اليها وإخال انها فرنك واحد . . . ولما هممت بان استفسرها الامر ، او بان اشكرها ، نكعتني صائحة :

– لا بأس عليك ! آه اني اعرف !

لقد كانت فقيرة ابداً ، تقترض دائماً وتبذل دائما .

وقالت دون ما مرارة بصوتها الشاذ :

ــ لقد كنتُ دائماً حمقاء ، وشقية ابداً .

واذ كانت موقنة من انني ، مثلها ، احب الدراهم ، فلم تكن هذه المرأة الطيبة تنتظر حتى اتفوه لتضع في يدي ما ادَّخرته في يومها ، على ضآلته ، وهذا كان شأنها معي ابداً فيما بعد .

وكان العشاء ، كالاستقبال في غرابته ، فضلاً عن كآبته . فثمة شمعة في متناول يدها ترفعها حينا لتتركني في الظلمة ، وتضعها حينا آخر على طاولة مغطاة بقصاع وآنية مثلّمة او مشققة .

قالت :

ــ هذا الاناء ، لقد كسر البروسيون عروتيه سنة ١٨٧٠ لانهم لم يستطيعوا حمله .

وتذكرت ، اذ رأيت هذا الاناء الكبير ذا القصة المفجعة ، اننا تناولنا العشاء هنا مرة وثمنا ، يوم كان ابي يذهب بي الى اختصاصي في مقاطعة «بون» ليعالج ركبتي . وكان علينا ان نركب قطاراً سريعاً ينطلق قبل الصباح . . . وذكرت ذلـــك العشاء الكئيب والكاتب العجوز المستلقي على مرفقه امام قنينة خمر وردية اللون .

وتذكرت ايضا ما كان ينتابني من رعدة وهول . . . اذ كانت عمتي الكبيرة تنتحي بوالدي جانباً امام المدفأة لتقص عليه قصص الاشباح العائدة . ومن مثال عباراتها : « وتلفتُّ الى الوراء . . . آه يا عزيزي « لويس » ، وماذا ارى ، رأيت امرأة قصيرة شهباء . . . »

وكان مأثوراً عنها انها محشوّة الرأس بتلك الترهات المخيفة .

اما هذا المساء ، فاذ نهضنا عن الطعام ، ورقدتُ في الغرفة الكبرى ، تعباً من ركوب الدراجة ، وعليّ قميص نوم للعم «موينيل» ، ذات مربعات عريضة ، جاءت العمة وجلست عند رأسي وراحت تقول بلهجة غامضة وصوت حاد :

– يا عزيزي فرنسيس ، يجب ان اروي لك ما لم اقله لأحد سواك . . .

فقلت في نفسي :

– يا لها من ورطة ، فها انا رهين المخاوف طوال الليل ، كما حدث لي منذ عشر سنوات ! . . .

واصغيت . وهزت رأسها شاخصة الى ما امامها كأنها تسرد القصة لنفسها وقالت :

– كنت و« موينيل » عائدين من حفلة زفاف ، هي الاولى التي شهدناها معاً بعد وفاة ولدنا « ارنست » . وكنت قد التقيت هناك شقيقتي « اديل » للمرة الاولى ، بعد اربع سنوات ! فان صديقا قديما لزوجي ، وهو من اهل الثراء ، قد دعاه الى عرس ولده في دارة « السابلونيير » . فاكترينا عربة ودفعنا اجراً باهظاً جداً . واذ نحن في طريق العودة عند الساعة السابعة صباحا في قلب الشتاء ، اشرقت الشمس . وكانت الطريق مقفرة . وماذا ارى فجأة على الدرب امامنا ؟ رأيت رجلًا صغيراً ، فتى يافعاً ، جميلًا كالنهار ، واقفا لا يتحرك ، وينظر الينا مقبلَيْن عليه . وكنا كلما اقتربنا نتبين وجهه الوسيم ، ناصع البياض ، رائع الملاحة بمقدار ، حتى اننا تملكنا الخوف ! . . .

وأمسكت بذراع « موينيل » وكنت ارتجف كالورقة . اذ حسبت انه الرب الرحيم ! . . . وقلت لزوجي :

– انظر إنها رؤيا .

فاجابني بهمس حانقاً :

– لقد رأيته ! اصمتي ايتها العجوز الثرثارة . . .

ولم يكن ليدري ما يصنع ، واذا بالفرس يقف . . . وبدا لنا في القرب ، ذا وجه شاحب ، وجبين ينضح بالعرق ، على رأسه قلنسوة وسخة ويرتدي سراويل طويلة . وسمعنا صوته العذب يقول :

« — انا لست رجلًا بل فتاة . لقد هربت ، اذ لم تعد لي طاقة على الاحتمال . فهل لكما يا سيدي ويا سيدتي ان تصحباني معكما في العربة ؟ »

فاصعدناها للحال . وما استوت حتى غابت عن الوعي . وهل تحزر من كانت الفتاة ؟ لقد كانت خطيبة فتى « السابلونيير » « فرانز دي غاليه » الذي كنا مدعوين الى عرسه !

فقلت :

— ولكن لم يكن هناك من عرس ، ما دام ان العروس قد هربت !

واجابت، فيما تنظر اليّ مرتبكة خجلة :

— لعمري لا ! لم يحصل العرس ، لأن هذه الفتاة قد شغلت رأسها بالف فكرة جنونية شرحتها لنا . فهي احدى بنات حائك

حقير. وكانت موقنة من ان هذا القدر من السعادة يستحيل عليها، وان الفتى حدث السن بالنسبة اليها، وان ما يصفه لها من الغرائب ضرب من الاوهام، وان «فرانز» عندما جاء ليأخذها اخذتها الرعدة. كانا يتمشيان معاً بصحبة شقيقتها في حديقة المطرانية في «بورج» على رغم البرد القارس والرياح العاصفة. وكان الفتى، بما فيه من دقة الحس في مراعاة الحال، ولكونه يحب صغرى الشقيقتين، شديد الالتفات الى الكبرى وكثير الرعاية لها. فتصورت مجنونتنا وهماً من الاوهام، واحتجت بانها ذاهبة الى المنزل لتأتي بمنديل، وهناك تزيّت بزيّ الرجال لتأمن ان لا يلحق بها احد وفرّت مشياً على الاقدام في طريق «باريس».

«وتسلم خطيبها منها كتاباً تعلنه فيه انها ذاهبة لملاقاة رجل تحبه وما كان هذا بالامر الصحيح...»

ومما قالته لي:

— انني لاشد سعادةً في تضحيتي مما لو كنت زوجته. ويا لها من بلهاء، لأن الفتى لم يكن يقصد قط ان يتزوج من شقيقتها، فقد اطلق رصاصة على نفسه، ورأى الناس اثر الدم في الغاب، لكنهم لم يعثروا على جسده.

– وماذا صنعتما بهذه الفتاة ؟

– اسقيناها قطرة خمر ، ثم اطعمناها ، بعد رجوعنا ، ونامت قرب موقد النار ولبثت عندنا شطراً من الشتاء . وكانت ما دام ضوء النهار ، تفصل الثياب وتخيطها وتصلح القبعات وتنظف المنزل بحمية واندفاع . على انها في المساء ، عند هبوط الليل ، وبعد الفراغ من العمل ، كانت تجد حجة لتذهب الى الباحة ، او الحديقة ، او امام الباب ، حتى ولو كان الجليد يشقق الحجر . وهنا كنا نجدها منتصبة باكية من اعماق القلب .

فأقول لها :

« – مابك يا هذه ؟ »

« – فتقول :

« – لا شيء يا سيدتي ، « موينيل » .

« وتدخل الى البيت .

« وكان اهل الجوار يقولون :

« – لقد وقعتِ على خادمة جد جميلة ، يامدام « موينيل » .

« والحت ، برغم توسلاتنا ، على ان تستأنف المسير الى « باريس » عندما حلَّ اذار . فأعطيتها اثواباً راحت تعمل فيها تفصيلاً

وتجديداً . واتاها « موينيل » بورقة السفر من المحطة ودفع اليها بعض النقود .

«ولم تنسنا الفتاة . فهي الآن خياطة في « باريس » بالقرب من « نوتردام » ومـــا برحت تراسلنا لتسألنا هل نعرف شيئاً عن « السابلونيير » . ومرة من المرات شئت ان أعتقها من هذه الفكرة فأجبتها ان الملك قد بيع وتهدم وان الشاب قد توارى للابد ، وان الفتاة قد تزوجت . وذلك هو الواقع على ما احسب . ومنذ ذلك الحين اصبحت رسائل « ڤلانتين » نادرة . . . »

لم تكن قصة من قصص الموتى العائدين ، تلك التي روتها العمة « موينيل » بصوتها السقيم الحاد ، الذي تنسجم نبراته مع هـــذا النوع من الاقاصيص . غير انني كنت مفعم النفس بالقلق ، ذلك اننا كنا قـــد اقسمنا للبوهيمي « فرانز » اننا نعاونه معاونة الاخوان ، وها ان الظرف سانح والاحوال مؤاتية . . . ولعمري ، اهو الوقت الذي يجوز فيه ان افسد على « مولن » الفرح الذي انقله اليه غداً ، وان اقول له ما قد عرفت ؟ واي فائدة في ان أطوّحه في مجازفة مجهولة المصير ؟ اجل ، ان لدينا عنوان الفتاة ، لكن اين نبحث عن البوهيمي الذي يطوف العالم ؟ . . . وقلت في

نفسي: لندع المجانين مـــع المجانين . فلم يكن « دلوش » و « بوجاردون » على خطإ فيما ذهبا اليه ، فلشدّ ما اساء الينا هذا الـ « فرانز » الخيالي ! وصممت على ألاّ ابوح بشيء من هذا ، قبل ان ارى « اغوسطين مولن » والآنسة « دي غاليه » ، وقـــد اصبحا متزوجين .

واذ تسلحت بهذه العزيمة ، كنت ما برحت تحت تأثير مزعج من التشاؤم والتطيّر — لكنه تأثير عارض نفيته فوراً — .

كادت الشمعة تبلغ نهايتها . وثمة بعوضة تئزّ . لكن العمة « موينيل » كانت منحنية الرأس على معطفها المخملي الذي لا تنزعه عنها إلاّ لتنام، مستلقية المرفقين على ركبتيها، وتعيد قصتها . . . وكانت ، حيناً بعد حين ، ترفـــع رأسها فجأة وتنظر إليّ لتتبين انفعالاتي . او لتتأكد من انني لم انم . وما لبثت ان القيت رأسي على المخدة واغمضت عيني متظاهرا انني قد اغفيت .

فقالت بلهجة الخائب :

— لعلك نمت ؟

– كلا يا عمتي ، اؤكد لك اني . . .

وقالت :

– بل نعم . واني ادرك على كل حال ، ان جميع هذا لا يهمك ولا يعنيك . فقد حدثتك عن قوم لم تعرفهم قط . . .

وجبنت هذه المرة فلم اجب . . .

٣٣

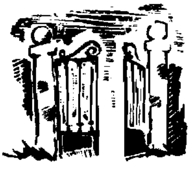

في الغد ، عندما وصلت الى الشارع الكبير ، كان الطقس جميلاً رائعاً ، والسكون عظيما ، ويمرّ فوق الدسكرة هدير هادىء ترتاح اليه الاذن والنفس ، فاستعدت طمأنينتي ، طمأنينة من ينقل خبراً ساراً .

كان « اغوسطين » وامه يقطنان منزل المدرسة القديم . وعند وفاة والده ، وكان قد تقاعد عن العمل منذ زمن بعيد ، اصبح « مولن » على رأس تراث عظيم ، فشاء ان يشتري المدرسة حيث عانى والده التدريس سحابة عشرين سنة ، وحيث تعلم ، هو نفسه القراءة ، وما ذلك لأن المدرسة ذات منظر مستحب : فهي منزل

ضخم مربع يشبه المختارية، وقد كان مختارية بالفعل. فنوافذ الطبقة السفلى المطلة على الشارع، هي من الارتفاع بحيث لم يتطلع منها احد قط. ولا ظل لشجرة في الساحة المنبسطة وراء البناء، بل تقوم دونها سقيفة شاهقة تحجب منظر الحقول، فهي اجفّ وأقفر ساحة مدرسية نظرتها في حياتي، واشدها وحشة واكتئاباً...

وفي الرواق المتعرج الذي تنفتح عليه اربعة ابواب، التقيت والدة «مولن» عائدة من الحديقة تحمل حزمة من ثياب مغسولة، كانت تجففها، ولا ريب، منذ الساعات الاولى من ذلك الصباح الطويل. وكان شعرها الابيض متشعثا، تتدلى بعض خصل منه على وجهها. ومحياها المنتظم الخطوط، تحت قبعتها العتيقة، يبدو متورماً تعبا، وكأنما اجهده سهر طويل. وكانت منحنية الرأس بكآبة كأنها حالمة.

لكنها اذ رأتني فجأة عرفتني وابتسمت ثم قالت:

– لقد حضرت في الوقت الملائم. انظر، اني لممت الثياب التي جففتها استعداداً لسفر «مولن». وقد امضيت الليل انظم حساباته واعد حوائجه. ان القطار ينطلق عند الساعة الخامسة، لكننا سنكون متأهبين...

وكان في كلامها من التأكيد ما حسبت معه انها هي التي قررت هذا السفر، في حين انها تجهل، ولا ريب، الوجهة التي سينتحيها «مولن» وقالت:

— إصعد، تَرَه في المختارية يكتب.

فتسلقت السلم بسرعة، وفتحت باباً عن اليمين ما زالت عليه لوحة كتب عليها: «المختارية» واذا بي في غرفة واسعة ذات اربع نوافذ، تشرف اثنتان منها على الدسكرة واثنتان على الحقول، مزدانة جدرانها برسمين علاهما الاصفرار يمثلان الرئيسين «غريفي» «وكارنو». وعلى مصطبة مستطيلة في طرف الغرفة طاولة مكسوّة بفراش اخضر صفّت حولها كراسيّ مستشاري البلدية. وفي الوسط مقعد قديم للمختار، يجلس عليه «مولن» ويكتب. فيغمس ريشته في قعر دواة من الخزف المطلي، عتيقة المثال، على شكل قلب. وكأنَّ هـــذا المكان الذي يعتزل فيه «مولن» حين لا يجد مجالاً للتجوّل في اثناء عطلته الطويلة، قد أعد لسكنى احد الاثرياء من ذوي الموارد الثابتة.

ونهض اذ عرفني، لكن بحماسة هي دون ما كنت اتوقع. واقتصر على القول بعميق الدهشة:

– «سوريل» !

وكان ما برح هو هو ، الفتى الكبير ذا الوجه العظمي ، والرأس الحليق . وهناك شاربان طارّان يتجرران دون ما عناية على شفته . وفي عينيه ابداً ذلك النظر الصريح الصادق . . . بيد انك تترسم فوق اوار السنين الحالية حجاباً من الضباب يبدده حيناً بعد حين هواه القديم الجارف . . .

وبدا شديد الاضطراب اذ رآني . وبقفزة واحدة صعدت المصطبة . ولكنه ، وياللعجب ما رأيت ، لم يمدد اليّ يداً . وكان قد اقبل عليّ معقود اليدين وراء الظهر ، مستلقي الظهر على المنضدة ، منقلب القامة الى الوراء ، شديد الارتباك . وها هو ينظر اليّ دون ان يراني ، مستغرقاً بالتفكير فيما أزمع ان يقول . فهو على مألوف مزاجه ، بطيء الشروع في الحديث ، شأن المعتزلين ، والصيادين ، وأهل المغامرات . فتراه وقد صمم على الشيء لا يهتم كيف يعبر عنه وبأية كلمات يؤديه . والان وقد اصبحت امامه وجهاً لوجه ، فقد اخذ يتلعثم ويتأنى فيما يجب ان يتلفظ به .

بيد اني رحت اروي له بجذل وانبساط كيف اني جئته ، وأين

قضيت الليل، واني فوجئت بان ارى السيدة « مولن » تعدّ العدة لسفر ابنها . . .

فسألني :

– هل اعلمتك الامر ؟ . . .

– نعم وعسى لا يكون السفر طويلًا .

– اجل ، انه لسفر بعيد .

فارتبكت لحظة ، مستشعراً اني بعد حين ، ساقضي بكلمة واحدة على عزمه هذا الذي لم ادرك له معنى . بيد اني امسكت عن الكلام ولم ادرِ كيف أبدأ بأداء مهمتي بيد انه تولى المبادرة اخيراً ، وقال كمن شاء تبرير نفسه :

– انت تعلم « يا سوريل » ما كانت لي مغامرتي العجيبة في «سانت آغات» ، وانها كانت العامل في ان اعيش وان آمل. والان وقد ضاع هذا الامل ، فاي مصير هو مصيري ؟ . . . أباستطاعتي ان احيا على طريقة سائر الناس ؟

اجل لقد حاولت ان اعيش هناك ، في «باريس» ، عندما

وجدت ان كل شيء قد انتهى وانه من العبث ان ابحث عن الدارة المفقودة . . . بيد ان الرجل الذي قفز قفزة الى الفردوس، آنى له بعد ذلك ان يرتضي لنفسه حياة سائر الناس .

ان ما هو سعادة الاخرين قد بدا لي هزءاً وسخرية . ويوم عزمت بصدق واخلاص على ان احذو حذو الآخرين، فقد استجمع الندم في قلبي الى امد طويل » . . .

وكنت جالساً علـى احدى كراسي المصطبة ، حاني الرأس، مصغياً دون ان انظر اليه . ولم اكن لادري اي رأي ابديه بتلك الشروح الغامضة . ولذلك قلت :

– أفصح يا « مولن » وزدني ايضاحاً ! ما معنى هـذا السفر الطويل ، اهو تكفير عن ذنب ؟ ام وفاء لوعد؟

فاجاب :

– لعمري لقد اصبت ! اذاكر انت ذلك الوعد الذي قطعت لـ «فرانز» ؟. . . فقلت ، وقد سرّي عني :

– آه، أليس في الامر غير هذا ؟

– كلا، ليس غير هذا، وقد يكون ايضاً تكفيراً عن ذنب،

الامران معاً . . . وعقب ذلك صمت قصير عزمت خلاله عــلى الشروع في الحديث واعداد الكلمات . . . وقال ايضاً :

– ليس هناك الا تفسير واحد اعتقد به. اجل، كنت أودّ لو ارى الآنسة « دي غاليه » . لو اراهـا فحسب . . . لكنني موقن الآن من انني عندما اكتشفت القصر المجهول، كنت على درجة من الكمال والطهارة لن ابلغها بعد ابداً . وفي الموت فقط، على مـا كتبت لك يوماً، قد استعيد جمال تلك الايام الخوالي . . .

ثم تبدلت لهجته، واستأنف الحديث بحرارة غريبة وقال فيما اقترب مني :

– لكن اسمع يا « سوريل » . ان هذه العقدة الجديدة، وهذا السفر العظيم ، وهذا الذنب الذي اقترفته يتحتم عليّ التكفير عنه، اجل كل ذلك انما هو، من احد الوجوه، استمرار لمغامرتي القديمة...

ومرت هنيهة حاول فيها جاهداً ان يستعيد تذكاراته. وكانت قد فاتتني الفرصة السابقة، فلم اشأ ، مهما كلف الامر ، ان تفوتني هـذه ، فرحت اتكلم – وتسرعت في الكلام وقد ندمت ندامة مرة فيما بعد لانني لم انتظر ريثما يبوح باعترافاته .

وتلفظت بعبارة كنت قد اعددتها للمناسبة السابقة، ولم تعد الآن موائمة. قلت، دون ما ايماءة وقد رفعت رأسي شيئاً:

– واذا اعلنتك ان كل امل لم يضع ؟ . . .

فنظر اليّ، ثم حوّل عينيه فجأة، وعــــلاه احمرار لم اشهد له مثيلاً في احد. إنها دفعة من دم تدقّ، ولا ريب، في صدغيه دقات عنيفة . . .

وقال، وكدت لا اتبين ملافظه :

– ماذا تعني ؟

فسردت له في حديث متساوق كل ما اعرف، وما قد صنعت، وكيف ان وجه الاشياء قد تبدل، بحيث كاد يبدو من كلامي ان الآنسة « دي غاليه » هي التي اوفدتني اليه .

وعلاه شحوب مخيف .

وفي خلال هذا الحديث ، الذي كان يصغي اليه صامتاً، متداخل الرأس قليلاً، وهو في جلسة منفوجىء، فلا يدري كيف يدافع، او يختبىء، او يفرّ، لم يقاطعني، على ما اذكر، الا مرة واحدة. وذكرت

له لماما ان املاك «السابلونيير» قد تهدمت جميعها وان تلك الدور قد اصبحت عفاء . . .

قال :

ـ آه ! ارأيت . . . (كأنه يترصد فرصة ليبرر مسلكه وما آلت اليه حاله من القنوط) ارأيت :

لم يبقَ هنالك شيء . . .

وكنت موقناً ان ما تهيأ لنا من يسر متاح سيزيل ما هو فيه من عسر، فاخبرته ان العم «فلورنتان» قد اعد رحلة لهو دعا اليها الآنسة «دي غاليه» التي ستحضر على متن فرس وانـــه هو نفسه مدعو اليها . . . بيد انه كان بادي الذهول ولم يحر جواباً . فقلت وقد ضاق صدري :

ـ يجب ان ترجع عن سفرك، هيا بنا نعلم والدتك . . .

وفيما نحن نازلين سألني متردداً :

ـ رحلة اللهو هذه، ايجب حقاً ان اذهب اليها ؟ . . .

فاجبت :

ـ أسؤال يسأل ؟

وكان في سيمائه مايدل على انه يساق بالكتفين سوقا .

وفي اسفل المنزل ، اعلم «مولن» امه انني سأتناول الغداء والعشاء عندهم ثم اقضي الليل ، وانه في الغد سيكتري درّاجة ويلحق بي الى «فيونانساي» .

فقالت وهي تهزز رأسها ، كأن هذه الانباء جاءت مصداقاً لما كانت تتوقع :

– حسن ، حسن هذا ! .

وجلست في غرفة الطعـــام ، تحت التقاويم المزينة بالرسوم ، والخناجر المزركشة ، والقُرَب السودانية التي كان شقيق «مولن» ، وهو جندي قديم في البحرية ، قد جلبها من رحلاته البعيدة .

تركني «مولن» هنا حيناً قبل موعد الطعام . وفي الغرفة المجاورة ، حيث أعدّت أمه حوائجه ، سمعته يقول لها ، وقد خفض صوته قليلاً ، ألاّ تفكّ حقيبته – لان سفره قد يكون أرجىء فحسب ...

٣٤

وجدتُ مشقة في ملاحقة «اغوسطين» على طريق «فيونانساي» ، فقد انطلق وكأنه في شوط سباق. ولم يكن ليترجل في المرتفعات. وقد عقب تردده الغامض في الامس ، حرارة وعصبية، ورغبة في ان يصل بأسرع ما استطاع، وهذا ما تخوّفت منه بعض التخوّف . وفي بيت عمي اظهر التضجر نفسه وكان اعجز من ان يهتم لشيء ، حتى استوينا في المركبة ، عند الساعة العاشرة من نهار غد ، على اهبة الذهاب الى ضفاف النهر .

وكنا في نهـــاية آب ، والصيف على زوال . فها ان قموع الكستناء الفارغة الساقطة من الغصون المصفرّة، قد بدأت تكسو

الدروب البيضاء . ولم تكن المسافة بعيدة ، لأن مزرعة « اوبيه »، وهي قرب نهر « الشير » الى حيث نؤم ، لم تكن الا على ميلين ما وراء « السابلونيير » . . و كنا نرى ، من بعيد الى بعيد، غيرنا من المدعوين في العجلات ، فشبانـــاً يمتطون الخيول ، قد تجرأ عمي ودعاهم الى الرحلة باسم السيد « دي غاليه » . . . وعلى غرار ما كان يجري في الايام الخوالي ، اختير المدعوون ، خليطاً من الاثرياء والفقراء ، ومن اهل القصور والقرويين . وهكذا فقد رأينا « جسمان دلوش » مقبلاً على دراجة ، وكان قد تعرف الى عمي على يد الحارس « بالاديه » فقال « مولن » اذ ابصره :

— هوذا الذي كان في يده مفتاح كل شيء، بينما كنا نبحث في « باريس » . انه لأمر ممضّ !

وكان يزداد ضغينة وغلًّا كلما نظر اليه . بيد ان هذا الفتى الذي كان يحسب بالعكس ، ان له حقًّا في ان نعترف بجميله ، فقد واكب مركبتنا عن كثب حتى النهاية . وظهر عليه ، انه بذل دون ما جدوى، بعض النفقات لتزيين نفسه، وكان طرف ردائه الخَلِق يخفق على رفاريف دراجته . . . وعلى رغم ما اكره نفسه عليه من

التحبب ، لم يكن ليروقنا وجهه المتغضّن ، بل كان يوحي اليّ ، فيما خصّني ، بشيء من الشفقة المبهمة – ولعمري، من ذا الذي لم يكن جديراً باشفاقي طوال هذا النهار ؟ . . .

•

ما ذكرت هذه النزهة قط ، الا واستشعرت غصة قاتمة كأنها الاختناق . فما اعظم ما توقعت من مسرة في هذا النهار ! لقد بدا ان كل شيء يؤاتينا للسعادة ، وما اقل ما سعدنا ! . . .

مع ان ضفاف « الشير » ما كان اجملها ! فعلى الشاطئ حيث وقفنا ، كان المنحدر قد انتهى الى انحناء لطيف ، وتجزأت الارض مروجاً صغيرة خضراء ، وأدغالاً من الصفصاف تفصل بينها الحواجز ، وكأنها الحدائق المتلاصقة . وعلى الضفة الثانية كان الشاطئ عبارة عن تلال غبراء ، صخرية ، وعرة الانحدار . وعلى الشاطئ الاقصى تنكشف بين الصنوبر قصور رومانطيقية صغيرة وذات ابراج . وفي البعد ، يسمع ، حيناً بعد حين ، نباح كلاب الصيد ، حول قصر « بريقرانج » .

كنا قد انتهينا الى هذا المكان ، بعد ان سرنا في متاهة من دروب صغيرة ، تسننها الحصى البيضاء تارة ، وتملأها الرمال مرة

اخرى – دروب تحوّلها الينابيع الى جداول عـلى مقربة النهر . ونجتازها فتتعلّق باكمامنا اغصان الريباس . فنحن، حيناً، غائصون في رطابة الاخوار الداكنة ، حتى اذا تجاوزنا الأسيجة ، نسير كأننا نغتسل في الضياء الصافي المنتشر في مدى الوادي . ولما اقتربنا ، بدا لنا على الضفة الثانية ، بعيداً ، رجلٌ تعرّش على الصخور وراح يرمي بشباكه بحركة وئيدة . ويا لله ما كان اجمل كل هذا .

واستوينا فوق خميلة ، على مطمئن من الارض وسط الغاب . وهي خميلة منبسطة كأنما قد هيئت مكاناً فسيحاً لمختلف الالعاب .

وحُلّت الخيول من العربات وسيقت الى مزرعة « اوبيه » ، وبُسط الزاد في ظلال الشجر . ومدت في الحقول طاولات صغيرة ذات انطواء كان قد احضرها عمي .

واقتضى الامر ، عندئذ ، ان يتطوّع نفر ليذهب الى منفذ الدرب الكبرى ، ويترصد القادمين المستأخرين ، ويدلهم على حيث نحن ، فعرضت نفسي حـــالاً . وتبعني « مولن » وسرنا كلانا حتى الجسر المعلّق، عنـــد مفترق دروب عديدة تتشعّب من طريق « السابلونيير » .

ورحنا ، هنـاك ، نذرع الارض طولاً وعرضاً ، ونتحدث عن

ايامنـــا الماضيات ، التماساً للسلوى وننتظر . ووصلت عربة من « فيونانساي »، تنقل قرويين نجهلهم ومعهم فتاة ذات وشاح. ولم يقبل غيرها قط، اللهم الا عجلة يجرّها حمار، فيهـــا ثلاثة صبية هم اولاد بستاني « السابلونيير » القديم . « فقال مولن » :

– يلوح لي اني اعرفهم . واحسب انهم الذين امسكوا بيدي وقادوني الى العشاء في الليلة الاولى من المهرجان . . .

وحرن الحمــار ، عندئذ ، فنزل الاولاد ليَخِزوه ويجروه ويدفعوه ما استطاعوا . وخاب « مولن » فزعم انه اخطأ . . .

فسألتهم هل رأوا في الطريق السيد والآنسة « دي غاليه» فقال احدهم انه لا يعرف، وقال الاخر « اخال اني رأيتهم يا سيدي » . بنوع اننا لم نفد من كلامهم شيئا .

وانحدروا صوب الخميلة ، يجر احدهم الحمار باللجام ، بينما يدفع الآخران العجلة من الوراء .

وعدنا الى الانتظار . وكان « مولن » يحدق الى منعطف طريق « السابلونيير » مترصدا بشيء من الهلع ، قدوم الفتـــاة التي طالما تأثرها . وتملكته لرؤية « دلوش » عصبية غريبة تكاد تضحك .

ونظرنا، من التـــل الذي علوناه لنرى ابعاد الطريق، رهطا من المدعوين فوق الخميلة، وفيهم «دلوش» يجهد نفسه ليلفت النظر اليه. فقال مولن:

– انظر الى هذا الابله، كيف يخطب ويعظ.

فأجبته:

– دعه وشأنه، فهو يعمل ما يستطيع، ذلك الفتى المسكين.

بيد ان «مولن» لم تخمد ثورته. وحدث ان ارنباً او سنجاباً قد انطلق، هنـــاك، من اجمة. فتهيأ جسمان لمطاردته، فقال «مولن»:

– زه، زه، انه يركض الآن... كأن هذه الجرأة تفوق كل جرأة اخرى!

ولم اتمالك من الضحك، وضحك «مولن» ايضاً. ولكنها لم تكُ الا اماضة.

وانقضى ربع ساعة جديد فقال:

– لعمري، لئن هي لم تأتِ...

فأجبت :

– لكنها وعدت ، فكن صبوراً !

وعاد يترصد، بيد انه ما لبث ان سئم ذلك الانتظار الممضّ ، فقال :

– اسمع ، انني ذاهب لانضم الى الآخرين . لست ادري اي قدر يناوئني . لكني اشعر بانها لن تأتي ما دمتُ هنا ، وانه من المحال ان تطل الآن من طرف هذا الطريق .

وذهب نحو الخميلة فبقيت وحدي . فسرت بضعة مئات من الامتار على الطريق تمضية للوقت . وما بلغت المنعطف الاول حتى ابصرت « ايفون دي غاليه » ممتطية جوادها العجوز الابيض ، وهو من العتوّ، في هذا الصباح، بحيث كانت تشدّ أعنّته لتمنعه عن الخبب . وكان السيد « دي غاليه » يسير صامتا وبمشقةٍ امام الفرس . ولا ريب انهما تعاقبا على المطية في الطريق .

ولما ابصرتني الفتاة وحيداً تبسمت وترجلت بخفة . وسلمت أعنّة الفرس لوالدها واقبلت عليّ وقالت :

– انني جد فرحة بأن اراكِ وحدكِ . لاني لا احب ان أريَ

«باليزار» الهرم احداً ولا ان اجعله مع سائر الخيول ، فهو، اولاً، قبيح المنظر مسنّ . ثم اني اخشى ان يجرحه فرس آخر . واعلم اني لا اتجاسر ان اركب غيره، فاذا مات امسكت عن ركوب الخيل .

وبدا لي ان الآنسة « دي غاليه » ، على غرار « مولن » ، تخفي تحت هذه الرشاقة الساحرة الملأى بالحياة ، وتلك العذوبة الهادئة المظاهر ، جزعاً وبعض القلق . ففي جوار وجنتيهـا الورديتين ، حول عينيها ، وهنا وهناك ، على جبينها ، شحوب عنيف ينمّ عن هواجسها .

واتفقنا على ان نربط « باليزار » في شجرة قرب الطريق ، فأخرج السيد « دي غاليه » الرسن من الخرج ، دون ان ينبس بكلمة ، على مألوف عادته ، وربط الحصان ملحا الى الاسفل قليلا على ما تبينت . واخذت على نفسي ان ارسل من المزرعة شيئاً من التبن والشعير . . .

ووصلت الآنسة « دي غاليه » الى الخميلة ، واتخيل انها على هذه الصورة نزلت ، من قبـــل ، صوب شاطئ البحيرة ، حين رآها « مولن » للمرة الاولى .

وسلمت ذراعها الى والدها ، ونحّت بيسرى يديها ذيل مئزرها

العريض الخفيف المشتمل عليها . وتقدمت بسيمائها الرزينة البريئة . وكان المدعوون اشتاتاً هنا وهناك فانتصبوا وتجمعوا ليستقبلوها . وساد صمت قصير المدى فأشرأبت اليها الاعناق .

واختلط « مولن » بجماعة الشبان، فلا تميزه عن سائرهم الا قامته الفارعة ، وان يكن بينهم من يكاد يضارعه طولا . ولم يبدر منه ما يلفت النظر اليه ، لا ايماءة ولا خطوة الى الامام . ورأيته بثوبه الرمادي ، ثابتاً في مكانه ، يحدق شأن الاخرين ، بالفتـــاة الرائعة الحسن المطلة عليهم . بيـــد انه ما لبث ان أمرّ يده على رأسه العاري بحركة عفوية مرتبكة ، كأنه شاء ان يستر ، وهو بين رفاق مسرّحي الشعور ، رأسه القروي الحليق ، المخشوشن .

ثم احدق الجميـــع بالآنسة «دي غاليه» وعرفوها الى من لا تعرف من الفتيان والفتيات . واوشك الدور ان ينتهي الى رفيقي . وكنت مضطرباً كمثل اضطرابه . وتهيأت لاقوم بمهمة التعارف .

وقبل ان اهم بشيء، تقدّمتْ منه وقالت بوقار وعزم مدهشين:
ـ اني اعرف « اغوسطين مولن » .
ومدت له يدها .

٣٥

وتقدم وافدون جدد لتحية « ايفون دي غاليه » حتى ان الشاب والفتـــاة اصبحا منفصلين . وشاءت مصادفة مشؤومة الا يجتمعا على نفس الطاولة الصغيرة للطعام . بيد ان « مولن » قد استعاد الرجاء والشجاعة على ما بدا من ظاهر حاله . ورأيته مرات متوالية ، اذ كنت منعزلا بين « دلوش » والسيد « دي غاليه » يومئ اليّ باليد ، من بعيد ، ايماءة المودّة .

وفي نهاية الامسية فقط، عندما انتظمت الحلقات ، هنا وهناك، للالعاب ، والاستحمام ، والمحادثة ، والانطلاق في القوارب فوق الغدير المجاور ، تسنى « لمولن » مرة اخرى ان يداني الفتاة ، فبينا

كنا نتحـــدث الى « دلوش » مقتعدين الكراسي البستانية رأيت الآنسة « دي غاليه » تنصرف عن جماعة بدا انها تضجرت بينهم ، وتقبل علينا . وسألتنا على ما اذكر، لِمَ لا نتمثل بغيرنا ونسير في الزوارق على بحيرة « اوبيه » .

فأجبتها :

— لقد جلنا بعض جولات بعد الظهيرة . فأصابنا الملل وتعبنا .

وقالت :

— اذن ، لم لا تسيرون فوق النهر ؟

— ان التيار الجارف يوشك ان يذهب بنا .

وقال « مولن » :

— لو كان لنا زورق بخاري كالماضي !

وقالت بصوت خافت :

— لم يبقَ لدينا هذا الزورق، فقد بعناه .

وساد صمت خيّمه الارتباك . فأفاد منه « جسمان » ليعلن انه ذاهب لموافاة السيد « دي غاليه » وقال :

– سأعرف كيف اعثر به وألتقيه .

ويا لغرابة الاتفاق ! ان هذين الكائنين ، على ما بينهما من التباين ، قد راق احدهما الآخر ، ولم يفترقا منذ الصباح . وكان السيد « دي غاليه » في مطلع العشية قد خلا بي لحظة ليقول لي ان صديقي هذا مثال الكياسة واللياقة والصفات الحميدة ، واحسب انه قد أسرّ الي بأن الفرس «باليزار» في مخبإ هناك . . .

وفكرت في ان انصرف انا ايضا . بيد ان الفتى والفتاة كانا على حال من الارتباك والقلق في تقابلهما ، ما رأيت معه ان الحكمة تفرض عليّ ألاّ افعل . . .

لكن الفطنة التي بدت من « جسمان » والحيطة التي احتطتها ، لم تؤولا الى نتيجة تذكر . اجل ، لقد جرت مكالمة بين « مولن » وفتاته . لكنها انساقت على وتيرة واحدة ، باصرار لم يتنبه له ولا ريب . لقد كان يحدثهـــا ابدا عن الامس الغابر ، وعما رآه في القصر من الغرائب . وكان عليها كل مرة ، ان تجيبه بتوجع وألم أن كل ذلك قد زال : فالمنزل القديم ، الغريب السمت ، المتشعب الجنبات قد تهدم ، والغدير الواسع قد جُفّف ورُدم ، والولدان ذوا الاثواب الساحرة قد تشتت شملهم . . .

فيقتصر « مولن » على التأوه يرسله بيأس . كأنما كل اثر من تلك الاثار الدراسية يسلـّحه بحجّة على الفتاة او عليّ . . .

وسرنا جنباً الى جنب . . . وعبثاً حاولت التلهّي عن الكآبة التي اغتمرتنا نحن الثلاثة . وكان «مولن» يذعن ابداً لفكرته الثابتة المسيطرة، فيطرح الاسئلة الشائكة ، ويستعلم عن كل شيء سبق ان رآه بالامس : عن الفتيات الصغيرات، وسائق المركبة العتيقة، وخيول السباق . ويستطرد قائلًا : وهل بيعت الخيول ايضاً ؟ ألم يبقَ ثمة خيول في المزرعة ؟ . . .

فتجيب أنْ لا ، ولا تُلمع بشيء الى الفرس « بالبزار » .

ثم استذكر ادوات غرفته : الشماعد والمرآة الكبيرة والقيثارة المنحطمة . . . وكان يستقصي في البحث عن كل ذلك برغبة مستغربة كأنه اراد ان يتيقن من انّ مغامرتـــه الجميلة لم يبقَ اثر منها ، وان الفتاة لا تعود اليه بحطام يدل على انهما لم يكونا، كلاهما، حالمين عهدئذ، مثلما يعود الغائص في الاعماق بحصوة او نبات من القاع . . .

ولم نتمالك، الآنسة « دي غاليه » وانا ، من الابتسام بكآبة . وعزمت على ان تشرح له، فقالت :

— لن ترى بعد اليوم القصر الجميل الذي كنا قد اعددناه، السيد «دي غاليه» وانا لـ«فرانز» المسكين.

لقد كان شاغلنا الوحيد في الحياة ان ننصاع لما يريد. فهو كائن في منتهى الغرابة ومنتهى الفتون! بيد ان كل شيء قد زال بزواله، عشية خطبته الفاشلة.

وكان والدي قد قلّ ماله وقتئذ، دون ان ندري. وكان «فرانز» قد اقترض اموالاً، فقام رفقاؤه القدماء، وقد علموا باختفائه، يطالبوننا باداء الدين فوراً. فاصبحنا في عوز ثم ماتت امي، وفقدنا جميع اصدقائنا في بضعة ايام.

ليعد «فرانز» اذا لم يكن ميتاً، وليلاق اصدقاءه وخطيبته، ولتُستأنف حفلة العرس المنقطعة، فقد تعود الامور الى مجاريها الاولى. لكن هل يولد الماضي ولادة ثانية؟

فاجاب «مولن» حالماً:

— من يدري!

وامسك عن الكلام.

كنا نسير، نحن الثلاثة، صامتين فوق الاعشاب القصيرة، وقد

مسحها الاصفرار ، والى يمين « مولن » الفتاة التي كان قد حسب انه فقدها الى الابد . وكانت ، حين يلقي عليها سؤالاً من اسئلته القاسية ، تدير نحوه برفق وجهها الفاتن القلق لتجاوبه . وحدث مرة ، اذ كانت تكلمه ، ان وضعت يدها بلطف على مرفقه ، بحركة ملؤها الثقة والاستضعاف . ما لـ « مولن » الكبير هنا ، كالغريب، كرجل لم يجد ضالته التي لا يعنيه امر سواها ؟ انه لثلاث سنوات خلت ، لم يكن باستطاعته ان يتحمل هذه السعادة دون ان يهلع ، بل دون ان يجن جنونه . فما السبب فيما يستشعره في نفسه الآن من فراغ ، وابتعاد ، وعجز عن السعادة ؟

واقتربنا من الغاب الصغير ، حيث كان السيد «دي غاليه» قد ربط « بالبزار » عند الصباح . وكانت الشمس المشرفة على المغيب تمدّ اظلالنا المستطيلة على الاعشاب . وتعالت في الجانب الآخر من الخميلة ، اصوات اللاعبين والفتيات ، بعيدة صماء ، كالدندنة البهجة . ولبثنا صامتين وسط هذا السكون العجيب . واذا بنا نسمع من طرف الغاب غناء صوب مزرعة « اوبيه » الممتدة على ضفاف الماء . وهو صوت فتى ناء ، صوت من يسوق ماشية الى مناهل المياه وينطلق بلحن متّزن كلحن الرقص . بيد ان المغنّي كان يعالجه تطويلاً وترقيقاً فيأتي على نغم القصيد الحزين :

احذيتي حمراء . . .

وداعاً يا غرامي . . .

احذيتي حمراء . . .

وداعاً بلا رجوع . . .

وكان « مولن» قد رفع رأسه وأصغى . فلم يكُ هذا الآَ لحناً من تلك الالحـــان التي كان يغنيها القرويون الذين استأخروا في ضواحي القصر في آخر امسية من ليالي المهرجان، عندما تلاشى كل شيء واضمحلّ . . . إنْ هي الا ذكرى — او هي الذكريات — من تلك الايام الجميلة التي لن تعود . وقال بصوت منخفض :

— اتسمع ؟ آه ، اودّ لو اذهب لأرى من يكون .

وانسل في الغاب الصغير ، للحال . وما كاد يفعل ، حتى سكت الصوت. وسُمع الرجل يصفر ، حيناً، لماشيته وهو يبتعد . ثم لا شيء . ونظرت الى الفتاة ، فاذا هي في بحران وعياء ، تحدق في حيث توارى « مولن » بين الادغال . ولعمري كم من المرات ، ستنظر فيما بعد ، ذاهلة هكذا ، الى الممر الذي سينطلق منه « مولن » الكبير لغير معاد ؟

وتلفتت اليّ تقول بتوجّع :

— انه غير سعيد .

واضافت :

— اتراني لا استطيع شيئا في سبيله؟ . . .

وترددتُ في الجواب مخافة ان يفجأنا «مولن» اذ نحن في هذا الحديث، وهو الذي اجتاز الطريق الى المزرعة بقفزة ، ولا ريب، ولعله الآن عائد في الغاب . بيد اني اوشكت ان اشدد عزيمتها ، وان اقول لها الاّ تخشى ان تضايق الفتى الكبير ، فثمة سر ، ولا ريب ، يوقعه في قنوط ، لن يبوح به اليها ، من تلقاء نفسه ، او الى احد غيرها . — واذا بصرخة تعلو من طرف الغاب ، ثم سمعنا رَدَياناً وكأن فرساً يرجم الارض بالحوافر ، واصوات شجار متقطعة . . .

فادركت فوراً ان حادثاً وقع للفرس الهرم «بالبزار» وهرولت الى مصدر الضوضاء ولحقت بي الآنسة «دي غاليه» من بعيد . ولا شك ان الذين في طرف المرج قد تبيَّنوا ما نحن فيه من حركة، لانني سمعت ، اذ ولجت الغاب ، صياح المتراكضين .

والواقع ان « باليزار »، وقد شُد رباطه الى الاسفل، قد أخذت احدى قوائمه في الرسن . بيد انه لم يبدِ حراكاً حتى اقبل عليه السيد « دي غاليه » و « دلوش » ، فجزع وهاج هياجاً عظيماً . فحاولا ان يخلصاه ولكن بغير حذق ودربة، فزادا في تشبك قوائمه وتعرضـــا في الوقت نفسه لضربات حوافره الخطرة . وشاءت المصادفة ان يصل « مولن » في هذه اللحظة عائداً من مزرعة « اوبيه » ، ويقع على الجماعة . وغضب لأن يرى هذا الحمق كله في معالجة الفرس . فدفع الرجلين دفعاً شديداً حتى اوشكا ان يسقطا في علّيقة هناك . وباحتراز لكن بجولة واحدة من يده ، خلّص « باليزار » ولكن لات ساعة خلاص فقد كان الاذى قد وقع فيه. فقد رُضّ في الفرس عرق او لعلّ به كسراً . لأنه كان يقف حاني الرأس بصورة مؤسفة ، محلول الحزام ، ملتوي السرج ، مطوي اليد تحت البطن مرتجفها . هذا و « مولن » منحنٍ يجسه ويتفحصه صامتاً .

ولما رفع رأسه كان معظم المدعوين قد تجمع حوله ، بيد انه لم يرَ احداً قط . وكان مغتاظاً احمر الوجه فصاح :

— من ذا الذي ربطه على هـــذه الصورة ، وترك سرجه على متنه طوال النهار ؟

ومن ذا الذي تجاسر واسرج هذا الحصان الهرم ، وهو يكاد لا يصلح لجرّ عجلة من العجال ؟

وحاول « دلوش » ان يقول شيئاً – ليجعل نفسه مسؤولاً عن كل شيء – فبادره « مولن » قائلا :

– اصمت ! انها غلطتك ايضاً . فقد رأيتك تشد الرسن ، بلاهةً منـــك ، لتخلصه .

ثم انحنى مرة اخرى وراح يدلك براحته مأبض الفرس .

وشاء السيد « دي غاليه » الذي امسك عن الكلام حتى الآن ، ان يخرج عن تحفظه ، فتمتم :

– من عادة ضباط البحرية . . . ان فرسي . . .

– آه ، انه لك ؟

قال « مولن » ، هـــذا بشيء من الهدوء ، فيما كان يدير وجهه الشديد الاحمرار صوب الشيخ . وحسبت انه سيبدل لهجتـــه ويعتذر . فاطلق نفخة من فمه ، ورأيت عندئذ انه يجد لذة مريرة يائسة في احراج الموقف وفي تحطيم كل شيء تحطيماً نهـــائيًّا ، اذ قال بقحة :

– لعمري ، انك لا تستحق التهنئة .

وأوعز احدهم :

– اظن ان الماء البارد . . . لو غطسوه في النهر . . .

واستطرد « مولن » دون ان يجيب :

– يجب ان يساق هـــذا الحصان الهرم حالًا ، ما زال قادراً على السير فيوضع في الاسطبل ولا يخرج منه قط بعد اليوم ، ولا مجال لاضاعة الوقت !

فعرض عدد من الشبان ان يضطلعوا بتلك المهمة . ولكن الآنسة « دي غاليـــه » شكرتهم بحرارة . وعلا اللهب محيّاها ، وأوشكت عيناها ان تغرورقا بالدموع ، فودعت الجميع ولم تستثنِ « مولن » . وقد ارتبك ولم يتجرأ ان يرفع النظر اليها . فامسكت الفرس بالاعنة ، وكأنهـــا تمد اليه يدها ، لتدنو منه لا لتقوده . . . وكانت الريح في نهاية هـــذا الصيف فاترة بمقـــدار على طريق « السابلونيير » حتى لتحسب انك في شهر نوار . هـــذا واوراق الأسيجة ترتجف في مهب انسام الجنوب . . . ونظرنا اليهـا ذاهبة

هكذا، يبرز نصف ذراعها من الرداء، ممسكة بيدها النحيلة رسن الجلد الغليظ، فيما يسير ابوها الى جنبها جاهداً . . .

ويا للكآبة تغمر نهاية هذه الامسية ! فهنالك من يجمع حوائجه وادوات طعامه . وشيئاً فشيئاً ، طُويت الكراسي ورفعت الموائد، وانطلقت العجلات ، واحـــدة واحدة ، تنقل الامتعة وجماعات تلوّح بالقبعات والمناديل . ولبثنا هنا مع العم « فلورنتان » نستعرض صامتين ، ما حل بنا من اسف وخيبة عظمى .

ثم انطلقنا نحن ايضاً في عربتنا الشديدة المنوطة الى فرسنا الاصهب العتيّ. وصرّ الدولاب عند المنعطف فوق الرمال . وكنا « مولن» وانا، على المقعد الخلفيّ فرأينا الدرب الصغيرة التي سلكها « بالبزار » وصاحباه ، تغيب عن ابصارنا وتحتجب . . .

واذا برفيقي ، وهو العصيّ الدمع ، يدير نحوي وجهاً خضّلته دفقة من العبرات، فيضع يده على كتف «فلورنتان» ويقول :

-- قفا، أتريدان؟ لا تهتما بي، فسأعود وحدي مشيا على الاقدام.

واستلقى بيده عـــلى الرفراف وقفز الى الارض . فرأيناه، مشدوهين ، يرجع عـــلى اعقابه راكضاً ، ويركض حتى الدرب

ماذا عساك ان ترى وانت داخل مركبة ؟ (ص ٨٦)

الصغيرة التي مررنا بها ، درب « السابلونيير » . ولعله وصل الى المقر المعهود متتبعاً ذلك الممر المنساب بين الصنوبر ، الذي سلكه فيما مضى متشرداً وسمع من خلال اغصانه الوارفة، حديثاً سرياً يتجاذبه فتية حسان الوجوه ، لا عهد له بهم من قبل . . .

وفي هذا المساء نفسه كان يطلب، ناحباً، يد الآنسة «دي غاليه» .

٣٦

كان ذلك نهار خميس من اوائل شباط ، في أمسية جميلة شديدة القر ، عاصفة . فالساعة تراوح بين الثالثة والرابعة . وعلى الأسيجة ، في جوار الدساكر ، ثياب مغسولة منشورة منذ الظهيرة لتجفّ في مهب الرياح . وفي كل منزل موقد في غرفة الطعام يلقي اشعته على ما يشبه المذبح من صفوف اللعب والدمى المطليّة . والولد ، وقد تعب من اللعب ، يجلس بالقرب من امه ويطلب اليها حديثاً عن نهار عرسها . . .

من شاء ان يتجنب السعادة فليصعد الى عليّة منزله ، يستمع حتى المساء الى صفير الانواء ونواحها ، وليخرج الى السبيل ، تعصف

الريح بمنديل عنقه وتصفع بـه فمه كالقبلة الحارة تفجأه وتبكيه . اما من كان ينشد السعادة فلينظر على حافة طريق موحلة ، منزل « السابلونيير » ، حيث دخـــل صديقي « مولن » تصحبه « ايڤون دي غاليه » وقد اصبحت زوجته منذ الظهيرة .

لقد دامت الخطبة خمسة اشهر ، انسابت هادئة هنيئة بمقدار مـــا كانت المقابلة الاولى مضطربة قلقة . وكان « مولن » يذهب مراراً الى « السابلونيير » تارة عـلى دراجة وتارة في عربة . وبينما الآنسة « دي غاليه » تخيط او تقرأ قرب النافذة المطلة على المغارة وحرش الصنوبر ، كانت تراه ، من خلال الستار ، مقبلاً بقامته الفارعة مسرعاً . فيجتاز ابداً الممر المنحرف الذي كان يسلكه فيما مضى . وبهذا فقط ، كان يُلمع الماعاً صامتاً الى الماضي ، ويبدو ان السعادة نوّمت المه الغريب .

وثمة احداث غير ذي شأن ترجع الى فترة الخمسة شهور تلك . فقد عُيّنتُ معلماً في « سان بنوا دي شان » وما هذه المحلة بقرية . إن هي الا مزارع مزدرعة عبر الحقول ، تقع مدرستها على منحدر منعزل على حافة الطريق . وانني هناك لفي وحدة تامة . بيد ان الدرب الى « السابلونيير » تستغرق من هـــذا المكان ثلاثة ارباع الساعة سعياً على الاقدام .

ويعمل « دلوش » عنــــد عمه ملتزم العمار في « فيونانساي » وسيصبح رب العمل عما قريب . . . وهو كثيراً ما يزورني ، حتى ان « مولن » نفسه قد اصبح كثير المسايرة له والتحبب اليه ، نزولا عند رغبة الآنسة « دي غاليه » .

وهــــذا ما يفسر انني لبثت واياه نطوف هناك عند الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقد انصرف اهل العرس جميعاً .

جـرت حفلة الزفاف ظهراً ، يخيم عليها الصمت ، في كنيسة « السابلونيير » القديمة التي يكاد الصنوبر يغطيها فـوق منحنى التل المجاور . وبعد الطعام ، وقــــد تناولناه سريعاً ، صعدت والدة « مولن » والسيد « سوريل » و« فرومنتان » وغيرهم في المركبات ولم يبق الا « جسمان » وانا . . . ورحنا نحــــوم حول تخوم الغابة المنبسطة وراء منزل « السابلونيير » بالقرب من الارض البور التي كانت تقوم عليها ابنية الامس المتهدمة . وكنا مفعمين بالقلق ، لا نبوح بذلك ولا نعرف له سبباً . وعبثاً حاولنا ان نصرف افكارنا او نخدع هواجسنا بما ندلّ بعضنا عليه من اوجار الارانب البرية والاثلام الصغيرة التي احتفرت في الرمـــال . . . ومن شركٍ منصوب . . . وموقع قدم صياد . . . فقد كنا دائماً وابداً نرجع الى حافة ذلك الغاب ، من حيث نشرف على المنزل الصامت المغلق . . .

تحت الكوة الكبرى المطلة على الصنوبرات ، شرفة من خشب تجتاحها الاعشاب الهائجة وقد احنتها الرياح . وثمة وميض كأنه ينبعث من نار مشعلة، ينعكس على زجاج النافذة . ويمرّ ظل حيناً بعد حين . اما في الحقول المحدقة ، وفي الحديقة ، وفي المزرعة الوحيدة الباقية من المرافق القديمة ، فصمت وعزلة وخلاء . وقد أوى المساقون الى منازلهم ليقيموا الافراح ، مشاركةً لاسيادهم بالنعيم .

وتحمل الريح ، حيناً بعد حين ، رذاذاً يكاد يكون غيثاً ، يخضّل المحيّا ، وتنقل الينا لفظةً تائهة من عزف البيان . فهناك في البيت المقفل عازف يعزف ، فأقف لحظة لأستمع في سكون . انه ، في البدء ، ما يشبه الصوت المرتجف يكاد يخشى ان يغني ، من بعيد، لحن افراحه . . . انه كضحك الفتاة الصغيرة، قد استحضرت من غرفتها جميع الدمى ، ونشرتها امام صاحبها . . . وأفتكر ايضاً بالفرح المشوب بعدُ بالخشية ، تحسه امرأة قد ارتدت ثوباً جميلاً ، وجاءت لتعرضه فلا تعلم هل يروق ويعجب . . . ذلك اللحن الذي لا اعرفه ، انما هو ايضاً صلاة ، وتضرع الى السعادة الاّ تكون شديدة القسوة ، انه سلام ، وما يشبه السجود امام السعادة ...

وقلت في نفسي : « واخيراً ، انهما سعيدان، ان « مولن » هناك بالقرب منها . . . » وكان التفكير بهذا الامر، والتيقن من حقيقته مما يثلج صدر الفتى الطيب الذي هو أنا .

وفيما كنت سهوانا هكذا ، مبتلّ الوجه بريح السهول، وكأنها رشاش الامواج شعرت بيد تمس كتفي :

– استمع ! « قال جسمان » هامساً .

فالتفتُ واشار اليّ ألّا ابدي حراكاً . وكان هو نفسه، يصغي حاني الرأس ، مقطب الحاجب . . .

٣٧

— هُوْ — هُوْ !

لقد سمعت هذه المرة . انها اشارة ، وانه لنداء ينطلق على خانتين، مرتفعة فمنخفضة ، سمعته فيما مضى . . . آه ! لقد تذكرت : انه صياح الممثل المهرج حين كان ينادي رفيقه عند باب المدرسة المشبك . انه النداء ، الذي استحلفنا «فرانز» ان نلبيه في اي مكان وزمان. ولكن ما عسى ان يكون مطلب هذا الرجل اليوم هنا؟ قلت :

— مصدر الصوت غابة الصنوبر ، الى الشمال . ولا ريب ان هناك صيّاداً . فهزّ «جسمان» رأسه وقال :

— انت تعرف أنْ لا .

ثم خفض صوته واضاف :

– انهما هنا منذ هذا الصباح . لقد فجأت « غناش » في الساعة الحادية عشرة يجوس في حقل حول الكنيسة . فهرب اذ ابصرني . ولعلهما أتيا من مكان قصيّ، على درّاجة ، فقد كان ملطّخاً بالوحل حتى منتصف ظهره . . .

– وعما يبحثان يا ترى ؟

– لست ادري . بيد انه يتحتم ان نطردهما ، ولا ندعهما يطوّفان في الضواحي والا تعرضنا لكل الحماقات السابقة . . .

وعلى كوني وافقته في رأيه فقد اضمرته وقلت :

– من الافضل ان نذهب اليهما ونرى مـــا يبغيان ثم نردهما الى الصواب . . .

وانسللنا متوئدين صامتين ، ننحني خلال الادغال ، حتى بلغنا غابة الصنوبر من حيث ينبعث، في فترات منظمة، هذا الصوت المستطيل ، الذي وان لم يكن اشد كآبة من اي شيء آخر، الا انه بدا لكلينا طـَيرَة ونذير شؤم .

لقد كان من الصعب، في هذا الطرف من الغاب، حيث يغوص

النظر في اثناء الجذوع المنتظمة الصفوف ، ان تفاجىء احـــداً وتنتحي ناحيته، دون ان يراك، وهذا امر لم نحاوله قط ، بل وقفت عند زاوية الغاب ، واستوى «جسمان» عند الزاوية المقابلة بحيث قد تسلط من الخارج، مثلي، على ضلعي المثلث، فاصبح من المتعذر على احد البوهيميين ان يهرب دون ان نناديه . واذ استتمّت هذه الحيطة ، شرعت اقوم بدور الكشاف المسالم، فناديت :

— «فرانز !. . . فرانز» لا تخف امراً . انا «سوريل» اودّ لو اكلمك . . .

وسادت لحظةُ صمت . ثم عزمت على تكرار المناداة. واذا بي اسمع من قلب الغاب ، حيث لا ينتهي البصر الى تام جلاء ، صوتاً يعلو ويأمر :

— قفا حيث انتما، فهو آتٍ اليكما .

وشيئاً فشيئاً ، بين الصنوبرات العظيمة التي بدت ، على البعد متلازّة متلاصقة ، تميزت شبح فتى يدنو . فتى ملطخ بالوحل ، رديء الهندام ، تشد اسفل سراويله علائق ، تيسيراً لركوب الدراجة، وتطبق على شعره المسترسل ، قبعة قديمة عـــلى شكل مرساة . وتبينت وجهه المستدق . . . وكأنه قد بكى .

وتقدم مني وقال بحزم وبلهجة وقحة :

ما تبتغي مني ؟

— وانت يا « فرانز » مـــا شأنك هنا ؟ لِمَ جئت تعكر صفو السعداء ؟ ما مطلبك ؟ قل !

وعلاه بعض الاحمرار ، لتلك الاسئلة توجه اليه على هذه الصورة مباشرة فتمتم يقول :

— انني شقي انا ، انني شقي !

وطوق رأسه بذراعه ، واستلقى على جذع شجرة وشرع ينحب بمرارة . وكنا قد خطونا بعض الخطوات في غاب الصنوبر . فالمكان عميق الصمت ، حتى انك لا تسمع فيه صوت الريح الذي تستوقفه الصنوبرات العظيمة القائمة عند التخم . بل هناك شهيق مكبوت يعلو وينخفض بين تلك الجذوع الرتيبة . وتريثت حتى سكنت اعصاب الفتى ، فوضعت يدي على كتفه وقلت :

— اسألك يا « فرانز » ان تأتي معي ، فأذهب بـــك اليهم ، وسيتلقونك كولد ضائع وجدوه ، ثم ينتهي كل شيء .

بيد انـــه تصامّ عن مقالي . وبصوت خنقته العبرات والالم ، والعناء والغضب ، راح يقول :

— اذن ، لقد اهمل « مولن » امري ؟ ما له لا يجيب ندائي إذ أناديه ؟ وما له لا يبرّ بوعده ؟

فأجبته :

— ويحك يا « فرانز » لقد انقضى عهد التهاويل والصبيانيات . عليك الا تعكر بجنونياتك نعيم من تحب : شقيقتك و« اغوسطين مولن » .

— ولكنك تعرف جيّداً انه الوحيد الذي يستطيع ان ينقذني. انه الوحيد الذي يستطيع ان يجد الاثر الذي ابحث عنه . فها قد مضت ثلاث سنوات طفنا خلالها ، « غناش» وانا ، امصار « فرنسا » دونما جدوى . ولم يبق لي امل بغير صديقك . وها هو الآن لا يجيب . لقد وجـــد ضالته ، فما له لا يفتكر بي ؟ عليه ان يبدأ بالترحال ، ولن تمنعه « ايفون » عن ذلك . . . فهي لم تردّ لي مطلباً قط . . .

وابدى لي محيا، خطت الدموع، بين ما يعلوه من وحل وغبار،

اثلاماً وسخة، هو محيّا الغرّ المضنك العاني تحدق بعينيه بقع الكلف وذقنه رديئة الحلق، وشعره المسترسل يتجرر فوق طوقه القذر. يرتجف ويداه في جيبيه. فما هو قط ذلك الولد الذي عرفته في السنين الخوالي بسيمائه الملوكية واسماله البالية. لا ريب انه ما برح، في صميم قلبه، يحتفظ بمزاياه الصبيانية اكثر من اي يوم آخر: صلف وجموح يتحولان فجأة الى قنوط. بيد ان هذا الفتى الذي علته مسحة خفيفة من الكهولة كان يتحمل بكبير مشقة ذلك الطابع الصبياني. لقد كان فيه، بالامس، من نزق الشباب ما بدا له معه ان كل حماقة جائزة. اما اليوم، فانك تميل الى الاشفاق عليه لانه فشل في حياته، ثم الى مؤاخذته على قيامه، عناداً وجهلاً، بدور البطل الرومانطيقي... وخطر لي، اخيراً، بالرغم مني، ان فتانا الجميل «فرانز»، صاحب الغراميات الجميلة، كان يعمد، ولا ريب، الى السرقة ليعيش، فعله بهذا فعل رفيقه «غناش»... كل هذه الكبرياء قد آلت الى هذا المآل! ثم قلت له بعد ان تبصرت في الامر:

— واذا وعدتك ان «مولن» سيذهب بعد ايام للبحث في سبيل ضالتك؟... وسألني فيما كان يصرف باسنانه:

— وسينجح ، أليس كذلك ؟ أواثق انت من هذا ؟

— في مرجّح الظن انه سينجح : فكل صعب عنده مستطاع .

— وأنّى لي ان اعرف هذا ؟ ومن سيعلمني الخبر ؟

— عد الى هنا ، بعد تمام سنة ، في مثل هذه الساعة ، تجد الفتاة التي تهوى . وكنت فيما اقول هذا ، افكر ، لا بأن أعكّر صفو العريسين الجديدين ، بل ان استخبر العمة « موينيل » وأستقصي في الامر ثم اسعى بنفسي للوقوف على مقرّ الفتاة .

وكان البوهيمي يحدق في ناظريّ بثقة ثابتة تدعو الى الاعجاب حقاً . وبدا وكأنه ما زال في الخامسة عشرة من عمره ، وهذه كانت سنّنا في « سانت آغات » مساء كنا نكنس غرف الدرس ، وأقسمنا نحن الثلاثة ذلك القسم الصبياني الرهيب .

ثم عاوده القنوط اذ قال لي كارهاً :

— واذن ، سنذهب .

ونظر بغصة الى جميع غابات الضواحي التي سيغادرها مرة اخرى . ثم قال :

– سنكون بعد ثلاثة ايام على طرق « المانيا » . لقد تركنا عرباتنا بعيداً . ونحن منذ ثلاثين ساعة نمشي بلا توقف . فقد حسبنا ان باستطاعتنا الوصول في الوقت المناسب لنصحب « مولن » قبل الزواج ونبحث معه عن خطيبتي كما نبحث عن مقاصير «السابلونيير».

ثم استطرد يقول بلهجته الصبيانية الرهيبة فيما هو منصرف :

– نادِ رفيقك «دلوش»، لانني اذا التقيته سيكون اللقاء هائلاً.

ورأيت شبحه الاغبر يتوارى شيئاً فشيئاً ، بين الصنوبر . وناديت « جسمان » وتهيأنا لنقوم بالحراسة مرة اخرى . واذا بنا نلمح « مولن » هناك يغلق شبابيك المنزل ، فدهشنا لغرابة ما رأينا من سيمائه .

بدت له المقاصب فجأة تملأ المدى جميعه (ص ١٠٦)

٣٨

عرفت فيما بعد، مـــا حدث هناك في لطائف التفاصيل.

منذ مطلع الظهيرة بقي «مولن» وزوجته — وما زلت اسميها الآنسة «دي غاليه» — وحدهما في ردهة «السابلونيير» ... فبعد انصراف المدعوين فتح السيد «دي غاليه» الباب وترك الريح الشديدة تدخل البيت لحظةً وتنحب. ثم اتجه صوب «فيونانساي» ولن يعود منها إلاّ في ساعة العشاء، ليقفل كل المنافذ بالمفاتيح ويصدر بعض الاوامر الى الخدم. فما من حركة تنفذ الآن من الخارج الى الحبيبين. وكل مـــا هنالك غصن ورد أجرد يلطم زجـــاج النافذة من ناحية المفازة. وإنك

لتراهما وسط هذه الريح العاصفة، كراكبي سفينة جمحت بها الانواء، عاشقين ، في عزلة مع السعادة .

قالت الآنسة « دي غاليه » : ها ان النار توشك ان تنطفىء .

وحاولت ان تتناول حطبة من الصندوق .

بيد ان « مولن » اسرع ووضع الحطبة في الموقد . وامسك بيد الفتاة الممدودة وبقيا واقفين وجهاً لوجه ، كأن بهما غصة من خبر خطير لا سبيل الى البوح به .

وكانت الريح تتدحرج بضجيج نهر فاضت غواربه . وتقع ، حيناً بعد حين ، قطرة مطر على الزجاج ، فتخطّ عليه ، شأنها على باب قطار ، خطّاً مائلاً مستطيلا .

وفرّت الفتـــاة عندئذ ، ففتحت باب الرواق وتوارت فيه بابتسامة سرية . وبقي « اغوسطين » لحظة وحده في منتصف من العتمة . . . يصغي الى تكتكة ساعة معلقة تذكره بغرفة الطعام في « سانت آغات » . . . ولا ريب انه قال في نفسه : « اذن ، هوذا المنزل الذي طالما بحثت عنه ، والرواق الذي تجاوبت فيه بالأمس ، همسات وأطياف غريبة » .

وسمع في هذه الساعة – واخبرتني الآنسة « دي غاليه »، فيا بعد انها سمعت ايضاً – صرخة « فرانز » الاولى قريباً من المنزل .

وعبثا حاولت عندئذ ان تصرفه عما هو فيه . فقد أرته جميع مـــا لديها من الاشياء المدهشة : اللعب والدمى ، ورسومها اذ هي صغيرة : رسمها بزيّ صاحبة خمارة ، ورسم يمثلها مع «فرانز» على ركبتي والدتها ، تلك المرأة البارعة الجمال ، وكل ما بقي عندها من ثياب الامس المحتشمة « حتى هذه التي كنت ارتديها ، عهد كنتَ على وشك التعرف اليّ ، وحين وصولك ، على ما اظن ، الى مدرسة « سانت آغات » .

لكن « مولن » اصبح لا يعي ولا يسمع شيئاً . ثم عاودته ، حيناً ، فكرة ما هو فيه من نعيم خارق فائق التصوّر فقال بصوت أصمّ :

– انت هنا – كأن مجرد ان يقول هذا يوقعه في دوار – تمرّين قرب المنضدة ، وتمسّها يدك لحظة . . .

وقال ايضاً :

– ان امي ، وهي في ريّق الصبا ، كانت تنعطف هكذا قليلاً

على قوامها ، حين تكلمني . . . وعندما كانت تجلس الى البيانو . . .

عرضت الآنسة « دي غاليه » عندئذٍ ان تعزف شيئاً قبل هبوط الليل. بيد ان الجو كان قد احلولك في هذه الزاوية من الردهة. فأضيئت شمعة وانعكس الضياء الوردي على محيا الفتاة فزاد في الاحمرار الذي كان يطبع وجنتيها وينمّ عن قلق عظيم .

وهناك عند طرف الغاب ، كنت قد بدأت اسمع هـــذه الانشودة المرتجفة ، تحملها الينا الريح ، ثم يقطعها علينا صراخ المجنونين ، وقد دنوا منا بين الصنوبر .

وأصغى « مولن » طويلاً الى الفتاة فيما كان يرسل انظاره صامتا من احدى النوافذ . وتلفت مراراً الى الوجه العذب وقـــد مسحه الوهن والغم . ثم اقترب من « ايفون » والتي بكثير من الرفق يده على كتفها . وشعرت بهذا اللمس اللطيف يرفّ عنقها . وكان عليها ان تعرف كيف تبادله بمثله . ثم ما لبث ان قال :

— لقد جنح النهار ، وسأغلق مصاريع النوافذ . لكن لا تنقطعي عن العزف . . .

ماذا حدث ، عندئذٍ ، في ذلك القلب المظلم البربري ؟ هذا ما

ساءلت عنه نفسي كثيراً ومـــا تسنى لي ان اعرفه الا بعد فوات الوقت . أهي وخزات في الضمير مجهولة ؟ أهو ندم يعصى تفسيره ؟ اهو الخوف من ان يتلاشى بين يديه وشيكاً ذلك النعيم الفريد الذي يتمسك به ويضغطه الى نفسه ؟ ثم أهي تجربة هائلة تدفعه الى ان يرمي ، حالاً ، ولغير معدّ ، تلك الغنيمة الرائعة ؟

لقد خرج متمهلاً ، صامتاً ، بعد ان نظر الى زوجته الشابة مرة اخرى . ورأيناه من تخم الغاب ، يغلق متردداً احد المصاريع ، ثم يلقي نظرة تائهة في ناحيتنا ، ويغلق مصراعاً آخر ، وينطلق فجأة في اتجاهنا راكضاً . ووصل بالقرب منا قبل ان يتاح لنا التفكير في ان نتوارى . ووقع بصره علينا حين اوشك ان يجتاز سياجاً صغيراً يحيط ببرج ويحدّه ، فانحرف عنا . وإني لأذكر ما تبينت في سيمائه من شراسة الوحش المنفّر . . . وتظاهر انـــه ينكص على عقبيه ليجتاز السياج من جهة الجدول .

فناديته :

— « مولن » ! . . . « اغوسطين » !

لكنه لم يلتفت . بيد اني عرفت كيف استوقفه فصحت :

— ان « فرانز » هنا ، قف !

فوقف . ثم قال لاهثاً قبل ان يفسح لي عن مجال لأهيّء ما يصح ان اقول :

— اهو هنا ؟ وماذا يطلب ؟

فأجبت :

— انه لشقي . وقد اتى يستعينك على استعادة ما أضاع .

فقال خافض الرأس :

— آه ! ما شككت بذلك يوماً . لقد حاولت كثيراً ان اخدّر هذه الخاطرة . . . لكن اين هو ؟ قل واسرع !

فأجبت ان « فرانز » قد ذهب وان من الصعب ادراكه الآن . فكانت من ذلك خيبة مريرة لـ « مولن » فتردّد ثم خطا خطوتين او ثلاثاً ثم وقف . وبدا في حيرة وكآبة عظيمتين . فأخبرته بما وعدت به الفتى نيابةً عنه ، واني ضربت له موعداً بعد عـــام في المكان نفسه .

ان « مولن » الذي اعتاد سكون الطبع ، كان في هذه الساعة على أشدّ حالة من توتر الاعصاب والملل فقال :

– آه لِمْ فعلت هذا ! اجل اني استطيع انقاذه ، ما في ذلك ريب . ولكن يجب ان افعل ذلك فوراً . . . يجب ان اراه وان احدّثه وان يغفر لي وان اكفر عن كل شيء . . . والا استحال عليّ ان ارجع الى هناك . . .

وتلفت صوب منزل « السَّاُبلونيير » .

قلت :

– أمن اجل وعد صبياني وعدته به تهدم سعادتك ؟

فقال :

– ويلاه ! لو لم يكن إلاَّ هذا الوعد فحسب . . .

فأدركت ان شيئاً آخر يربط بين الشابين . ولكنني لم اعرف ما هو ذلك الامر . فقلت :

– لقد فات وقت اللحاق بهما ، على كل حال . فهما الآن في طريقهما الى «المانيا» . واذ همّ بالجواب ، انتصب بيننا وجه مشعث الشعور ، تائه النظرات ، مرضوض بالالم . انها الآنسة « دي غاليه ». ولا ريب انها اقبلت راكضة ، فالعرق ينضح من محيّاها ، وانها

وقعت وجرحت ، لأن على جبينها فوق حاجبها الايمن اثر جلفة ودماً متجمداً في شعرها .

كان يحدث لي ، في الاحياء الحقيرة من « باريس » ، ان ارى في الشارع فجأة ، زوجين هما في عرف الناس من اهـــل السعادة والالفة والصلاح ، يفصل بينهما ربـــال الامن وقد تدخلوا في عراكهما . وتكون الفضيحة قد انفجرت بينهما بغتة وفي اي وقت كان ، عند الشروع في الطعام ، نهار الاحد ، او عند الخروج للنزهة ، او عند تهنئة الولد الصغير بتذكار مولده . . . فينسيان كل هذا وينقلب كل شيء رأساً على عقب . فالزوج والزوجة في وسط هذه الجلبة ، إن هما الا شيطانان حقيران . فيرتمي عليهما الاولاد دامعي الأعين ، يقبلونهما بشغف ويتوسلون اليهما ان يكفا عن الصياح وألاّ يرجعا الى الخصام .

لقد ذكرتني الآنسة « دي غاليه » عند وصولهـــا بالقرب من « مولن » باحد هؤلاء الاولاد . احد هؤلاء الاولاد المساكين المتذعرين . واحسب انها لو رآهـــا اصدقاؤها ، او قرية برمتها ، او عالم بأسره ، لما حال احد دون ان تهرع راكضة ، وان تسقط على الحضيض كما سقطت ، مبعثرة الضفائر ، باكية ، ملطخة .

بيد انها عندما عرفت ان «مولن» هنا، بنفسه، وانه لن يتركها هذه المرة، على الاقل، امرّت ذراعها تحت ذراعه، وما تمالكت عن ان تضحك باكية كالطفل الصغير. ولم يفوها بكلمة. وكانت قد اخرجت منديلها، فتناوله «مولن» برفق من يديها وراح يمسح الدم عن شعرها بتأنٍّ واحتراز، ثم قال:

– علينا الآن ان نرجع الى المنزل.

وتركتهما راجعين، في جمال ريح الشتاء المسائية، التي تسوط وجهيهما – يعينها باليد في المسالك الشاقة، فتبتسم وتسرع – نحو مقرهما المهجور الى حين.

٣٩

كنت ، على رغم الخاتمة الحسنة التي آلت اليها حادثة الامس ، قليل الاطمئنان ، بل فريسة لقلقٍ خفي مكتوم ، فلزمت المدرسة لم ابرحها طوال نهار الغد . وحالما انقضت ساعة الدرس التي تلي صف المساء انطلقت في طريق « السابلونيير » . وكان الليل يتهاوى ساعـــة وصلت الى ممر الصنوبر الذي ينتهي الى المنزل . وكانت النوافذ قد أقفلت . فخشيت ان ابدو متطفلاً اذا ما دخلت في هذه الساعة المتأخرة ، غداة العرس . فلبثت حتى مرّ هزيع من الليل أجوس حول الحديقة والحقول المجاورة ، آملاً أبداً ان ارى من يخرج من المنزل المقفل . . . بيد ان املي خاب . فليس من

حركة حتى في المزرعة القريبة . ورجعت الى مقري تساورني احلك التصوّرات .

وفي الغد ، وهو السبت، كنت في نفس حالات الارتياب . وفي المساء ، تناولت بسرعة معطفي وعصاي ، وقطعة من الخبز الطريق ، ووصلت عند هبوط الليل ، لأجد ، شأني في الامس ، كل النوافذ مغلقة في « السابلونيير » . . . وثمـــة نور ضئيل في الطبقة الاولى من البيت . لكن لا حركة هناك ولا حراك . . . بيد اني رأيت من الباحة باب المزرعة مشرعاً ، والنار مولعة في المطبخ الكبير وسمعت الحركة المعتادة المنبعثة من الاصوات والخطى ساعة تناول العشاء . فاطمأنيت الى ذلك ولم استعلم احداً شيئاً ، وانـّى لي ان افعل . ورجعت اترصد ، وانتظر عبثاً ، آملاً أبداً ان ارى الباب ينفتح ويبرز منه « مولن » بقامته الفارعة .

وما جـاء الأحد ، حتى صحّت عزيمتي على ان اقرع باب « السابلونيير » بعد الظهيرة . وفيما كنت اتسلق التلال الجرداء سمعت الاجراس ، في البعد ، تؤذن بصلوات العصر فشعرت بوحدتي واغتمامي ، ولا ادري اي حدس كئيب تولاّني . لذلك لم اكن الاّ نصف مندهش ساعة عالجت جرس الباب فظهر السيد « دي غاليه »

وحده ليكلمني بصوت خافت ، ويقول لي ان « ايڤون دي غاليه » في سريرها وقد انتابتها حمّى شديدة ، وان « مولن » اضطر ان يذهب منذ يوم الجمعة في سفر بعيد ، ولم يعرف متى يكون إيابه .

وبدا الشيخ شديد الارتباك والكآبة فلم يدعُني للدخول ، فاستأذنته وانصرفت . واذ اغلق الباب دوني ، لبثت لحظة على مصطبة السلم ، مضغوط القلب ، تائه الفكر ، احدق ولا اعرف السبب ، بغصن أراك يبس تؤرجحه الريح بكآبة في شعاع الشمس .

وهكذا فقد تغلّب على « مولن » هذا التبكيت الذي كان يغمره في اعماقه منذ عهد اقامته في « باريس » وانتهى الامر برفيقي الكبير ان يتهرب من نعيمه المقيم . . .

كنت ، كل خميس وكل احد ، اجيء استطلع اخبار « ايڤون دي غاليه » حتى كان ذات مساء ، فاستدعتني اليها وقد نقهت . فوجدتُها جالسة قرب النار ، في الردهة التي تطل نافذتها الكبيرة المنخفضة ، على الحقول والغابات . ولم تكن شاحبة اللون ، على ما توهمت ، بل محمومة الوجه ، مهتاجة الاعصاب ، وتحت عينيها بقع حمراء نارية . ومع انها بادية الوهن ، فقد ارتدت ثيابها كأنها

انتوت الزيارة . تتكلم قليلاً ، لكن بحرارة غريبة ترسل العبارة ، كأنها تودّ لو تتمثّل ان السعادة ما توارت بعد . . . انني لم احتفظ بذكر ما تحدثنا به ، لكنني اذكر اني سألتها في سياق الحديث ، بتردد ، اي متى يعود « مولن » واجابتني بتأثر :

– لست ادري متى يعود .

ورأيت تضرعاً في عينيها فأمسكت عن الاستزادة .

كثيراً ما اتيتها زائراً ، وكثيراً ما جلست اليها قرب النار ، في هذه الردهة الوطيئة التي يأتيها الليل قبل اي مكان آخر . ومـا كانت لتتحدث قط عن نفسها وعن ألمها المستتر . بيد انها كانت لا تنفك تستعلمني التفاصيل عن حياتنا المدرسية في « سانت آغات » ، فتصغي بوقار وحنان الى اخبار شقائنا ، نحن الاولاد الكبار ، وباهتمام يكاد يكون اهتمام الام . ولا تبدو عليها الدهشة حتى من اجرإ اعمالنا الصبيانية وابعدها خطراً . وما كانت مغامرات اخيها المحزنة لتضعف فيها هذا الحنان اليقظ الذي اقتبسته عن والدهـا السيد « دي غاليه » . والندم الوحيد الذي كان يخامرها من الماضي هو ، على ما احسب ، انها لم تكن قد اصبحت بعد نديمة اخيهـا وموضع سرّه ، بدليل انه ، في ساعة هزيمته الكبرى ، لم يتجرأ

على مكاشفتها او مكاشفة غيرها بحقيقة حاله ، فاستسلم للقنوط . وهذه لعمري مهمة باهظة قد اخذتها على نفسها — مهمة شديدة المخاطر في ان تسعف اخاها الجنوني الاحلام والاوهام ، ومهمة ساحقة في ان ترتبط بذلك القلب المغامر ، قلب صديقي « مولن » الكبير .

وقد برهنت على ما تحفظ من ايمان باحلام اخيها الصبيانية ، وعلى ما بها من كلف في ان تستبقي له ولو ُنثاراً من الحلم الذي عاش فيه حتى سنه العشرين ، بما اقامت عليه الدليل ذات يوم ، دليلا هو أوقع ما في النفس ، بل اعمق ما في بواطن السر .

كان ذلك في امسية من نيسان ، حزينة كنهاية خريف . نحن منذ شهرين نعيش في ربيع عذب حلَّ قبل اوانه . وقد عادت المرأة الفتية الى سابق عادتها في الخروج الى النزهات الطويلة بصحبة والدها . اما في ذلك اليوم ، فقد كان السيد « دي غاليه » تعِباً وكنت حرّاً . فدعتني الى مرافقتها مع ان الطقس كان ينذر بالتجهم . وفجأتنا العاصفة والمطر والبَرَد اذ نحن في محاذاة البحيرة ، على نصف ميل من « السابلونيير » . فلُذنا من السيل المتواصل بسقيفة هناك ، ولبثنا واقفين جنباً الى جنب ، تجمّدنا

الريح ، ونتأمل في المناظر وقد ادلهمّت . اني ما زلت اراها في ثوبها الناعم الرتيب ، شديدة الشحوب ، شديدة الالم ، وقالت :

– علينا ان نعود ، لقد جئنا من وقت طويل ، فما عساه ان يكون قد حدث ؟

ولشد ما دهشتُ ، عندما اصبح باستطاعتنا ان نغادر الملجأ ، انها عوضاً عن ان تسلك طريق العودة الى «السابلونيير» استأنفت سيرها مشيرة اليَّ بأن الحق بها . فانتهينا بعد ان مشينا طويلاً ، الى منزل لا عهد لي به من قبل ، منزوٍ على حافة طريق غائرة تتجه ناحية «بريفرانج» . . . وهو منزل برجوازي صغير ، مغطّى بالآجر ، لا يميزه عن امثاله في هذه البلاد ، الا بعده وانزواؤه .

ويحسب من رأى «ايفون دي غاليه» ان المنزل منزلنا ، هجرناه ، في ابان سفر بعيد . وفتحَتْ ، منعطفة القوام ، باباً صغيراً ذا شباك ، وأسرعت تتفحص المكان المنعزل بقلق . فثمة ساحة واسعة معشبة كانت ملعباً للاولاد في امسيات الشتاء الطويلة البطيئة ، قد خددتها الزوابع ، وإطار تُركَ في مستنقع ماء ، وفي الجنينات حيث كان الصبية يزرعون الازهار والجلبان ، لم تبقِ الامطار الغزيرة إلاَّ سحائب متجررة من الحصى البيضاء . واكتشفنا اخيراً

دجاجة وفراخها تجثم في كنف باب مبلّل ، وقد خاط جميعهـــا المطر ، وأكثر الفراخ مائت تحت جناحي الام المتصلبين وريشها المتقبض . وامام هـذا المنظر ، صرخت رفيقتي صرخة اختناق ، وانحنت دون ان تأبه للماء والوحل ، وراحت تفصل الفراخ الحيّة عن الميتة ، وتضعها في طرف ردائها . ثم دخلنا المنزل وقد كان مفتاحه معها . فهناك اربعة ابواب تنفتح عـلى دهليز غارت الريح فيه وصفرت . وفتحت «ايڤون دي غاليه» الباب الاول الى اليمين ، وادخلتني الى حجرة مظلمة تميزتُ فيها ، بعد لأي ، مرآةً كبيرة وسريراً يغطيه ، عـــلى الطريقة القروية ، دثار من الحرير الاحمر . اما هي فبعد ان فتشت في سائر المسكن ، رجعت تحمل الفراخ المريضة في قفة مكسوّة بالزغب ، ودَسَّتها بعناية تحت الدثار . وفيما كان شعاع من الشمس ، هو الاول والاخير من ذلك النهـار ، يتلاشى فيجعل وجهينا اكثر شحوباً ، وهبوط الليل اشد اعتكاراً ، كنا هنا ، واقفين ، جامدين من الصقيع ، متوجعين ، في المنزل الغريب!

وكانت تذهب ، حيناً بعد حـين ، فتنظر في العش المحموم ، وتنزع منه فرخاً مات ، مخافة ان يميت الفراخ الاخرى ، فيلوح لنا في كل مرة ، ان شيئاً ينحب بصمت ، كأنه الريح تعصف من

صدوع زجاج السقيفة ، او كآبة صبية مجهولين ، مكتومة خفية ، وقالت صاحبتي :

ـ هنا كان منزل « فرانز » في صغره . فقد اراد منزلًا له وحده ، بعيداً عن الناس يأوي اليه فيلعب ويلهو ساعة يشاء . ولم يحل ابي دون رغبته لما رأى في هذا الهوى المستغرب من الطرافة . وكان « فرانز » يذهب عندما يطيب له ذلك ، نهار الاحد ، او الخميس ، او اي وقت آخر ، فيأوي الى منزله كرجل من الرجال . ويهرع اليه اولاد المزارع المجاورة ، فيلاعبونه ويساعدونه في تدبير المنزل وفي البستنة . وما اعجب ما كانت تلك الملاهي ! ولم يكن يخاف ان ينام الليل وحده . وكنا معجبين به بمقدار ، بحيث لم تكن تساورنا فكرة القلق عليه .

واستطردت تقول متنهدة :

والآن ، ومنذ زمن بعيد ، خـلا المنزل. وأبي الذي ارهقته السن والكآبة لم يحاول امراً من الامور ليجد اخي ويستدعيه . ولعمري ، اي المحاولات تجدي ؟

اني كثيراً ما أمرّ بهذا المكان . وصغار القرويين ما برحوا

يدلفون اليه ليلعبوا في ساحته كالسابق . فيلذّ لي ان اتمثل انهم اصدقاء اخي القدماء ، وانه هو نفسه ما زال فتى صغيراً . وانه لا يلبث ان يعود مع العروس التي اختارها. ويعرفني هؤلاء الصغار، وأشترك في العابهم . وتلك الفراخ الصغيرة كانت لنا ...

واقتضاها تدافُع كوامنها وتذعّرها الصبياني ان تسرّ اليَّ بهذا الغم الشديد الذي ما كاشفت به احـــداً قط ، وبهذا الاسف العظيم على ضياع اخيها، ذلك الفتى المفرط في التعتُّه وفي الجاذبية ، والمالك على اعجابها . وكنت اصغي اليها ولا اجيب ، مفعم القلب بالعبرات . . .

وبعد ان اقفلت الابواب وأرجعت الفراخ الى كوخ مرصوف بالصفائح وراء المنزل ، عادت تتأبط ذراعي مكتئبة ، فسررتُ بها.

وانقضت اسابيع وأشهر . فيـــا للعهد المنصرم ! ويا للنعيم المفقود ! تلك التي كانت جنّية عهد الصبا كله ، وكانت هواه المحوط بالاسرار ، لقد كتب عليَّ ، انا ، ان اتناول ذراعها ، وان اقول لها كل ما من شأنه ان يلطّف آلامها ، بينما رفيقي قد توارى . وما عساي اذكر الآن من ذلك العهد ، ومن تلك الاحاديث نتبادلها ، مساء بعد مواقيت الدرس ، على منحنى «سان بنوا دي شان»

ومن تلك النزهات حيث كان الامر الوحيد الذي يجب ان نتحدث عنه، هو الامر الوحيد الذي عزمنا على ان نتكاتمه؟ اني لم احفظ من ذلك إلا ذكراً قد امّحى بعضه، من وجه جميل مستدقّ، ومن عينين ينخفض حاجبـــاهما برفق اذ تنظراني، حتى لا تريا الاَّ عالماً داخلياً.

وبقيت رفيقها الامين — رفيق انتظـــار من لم نكن لنتحدث عنه — طوال ربيع وصيف هيهات ان نعود الى مثليهما. وكثيراً ما كنا نعود، بعد الظهيرة، الى منزل «فرانز» فتفتح البـــاب ليدخل الهواء، حتى لا يكون قد تعفّن شيء عند عودة الحبيبين. وتُعنى بالدواجن وقد اصبحت غير أليفة. وكنا في ايام الخميس والاحد نشاهد صغار القرويين يلعبون فنحضهّم على اللعب، فيعلو صراخهم وضحكاتهم في المربع القفر، ويبدو المنزل المهجور أشدَّ وحشة وفراغاً.

٤٠

واقبل آب ، شهر العطلة ، فـأبعدني عن « السابلونيير » وعن « ايڤون » . وتحتم عليّ ان اذهب الى « سانت آغات » فأقضي فيها شهري الاستراحة . ورحت انظر الى الساحة الكبرى الجافة ، والملعب ، والمدرسة المقفرة . . . وكل ما هناك يحدّثك عن « مولن » الكبير . وكل شيء هناك مفعم بتذكارات فتوّتنا ، وقد انقضى عهدها الآن . و كنت ، طوال تلك النهارات الصفراء ، اعتزل في غرفة الاوراق ، في المدرسة المهجورة ، على نحو ما كنت افعل قبل مجيء « مولن » فأكتب ، وأقرأ ، واتذكر . . . بينا يكون والدي في الصيد وامي في الردهة تخيط او تعزف عـلى

البيان ، حسب مألوف عادتها . . . وفي هذا الصمت العميق الذي يسود المدرسة ، حيث تبعثرت تيجان الورق الاخضر الممزقة ، وغُلُف كتب الجوائز ، وبدت الالواح السوداء ممسوحة بالاسفنج ، كان كل شيء ينبئ بأن السنة قد انتهت ، وان الجوائز قد وزّعت ، وكل شيء ينتظر حلول الخريف والعودة في تشرين الى استئناف المجهود . وفكرت كذلك ان الشباب قد ولّى وان النعيم قد فاتنا . وكنت انا ايضاً انتظر العودة الى « السابلونيير » ورجوع « مولن » الذي قد لا يعود . . .

بيد انه كان لديّ خبر سارّ ازفّه الى « ميليا » عندما عزمت على ان تستعلمني امر العروس الجديدة . وكنت اتخوّف من اسئلتها ومن اسلوبها الكثير البراءة والمكر في وقت معاً ، ذلك الاسلوب الذي يوقعك في الارتباك فوراً ، اذ تراها وقد وضعت اصبعها على اعمق ما يجول في سريرتك . فأقطع عليها الكلام لأعلمها ان زوجة صديقي ستصبح أمّاً في شهر تشرين الاول .

وذكرت ، في نفسي ، يوم زفّت اليّ « ايفون دي غاليه » هذه البشرى العظيمة ، فساد بيننا الصمت وارتبكتُ شيئاً كما يرتبك الشاب في مثل موقفي ، ارتباكاً حاولت ان ابدّده بما

قلته لها عندئذٍ دون ما تبصر – وقد تبيّنتُ بعد فوات الاوان اي مأساة احرك بقولي :

– انكِ ولا شك سعيدة جدًّا !؟

اما هي فقد اجابتني ، دون ان تضمر شيئاً ، ودون اي ندم ، او اسف ، او حقد ، بل بأجمل ابتسامات السعادة :

– اجل انني سعيدة جدًّا .

•

في اثناء هذا الاسبوع الاخير من العطلة ، وهو اروع شطر فيها من حيث الجمال والرومانطيقية ، اسبوع الامطار الغزيرة حيث تأخذ نيران المدافئ بالاشتعال ، الاسبوع الذي كنت اقضيه عـــادة في الصيد بين صنوبرات « فيونانساي » القاتمة البليلة تهيأت للرجوع توًّا الى « سان بنوا دي شان » لأن « فيرمـــان » والعمة « جوليا » وبنات العم في « فيونانساي » سيحرجونني ولا شك باسئلة لا اودّ الاجابة عنها . فأقلعت عن قضاء ثمانية ايام في نشوة من حياة الصياد القروي ، وانطلقت الى مقري في المعهد قبل افتتاح المدارس بأربعة ايام .

وبلغت، قبل هبوط الليل، الساحة الموشحة بالاوراق الصفراء، فلما انصرفت العربة، دخلت غرفة الطعام التي تسطع منها رائحة العفونة لبعد عهدها بالاقفـــال، وتتجاوب فيها اصداء الخطى، وحللت مكتئباً رزمة زاد أعدّتها لي امي .

وبعد ان تناولت طعاماً لطيفاً بأطاريف الاضراس، وانا في أشدّ حـــال من التضجّر والقلق، ارتديت معطفي، وانطلقت عجِلاً فقادتني الخطى الى مشارف « السابلونيير » .

ولم اشأ ان ألِجَها مساء وصولي دخيـــلاً . . . بيد اني كنت اكثر جرأة مني في شباط المنصرم، فبعد ان درتُ حول المنزل حيث لا يلتمع نور الا في نافذة الفتاة، اجتزت، وراء البيت، سور الحديقة وجلست على مقعدها هناك قرب السياج، والليل يرخي سدوله الاولى، سعيداً لمجرّد كوني هنا، في لصيق المـــكان الذي انحصرت فيه كل هواجسي .

وأقبل الليل . واخـــذ المطر يهمي دقيق الخيوط . وكنت منخفض الرأس انظر دون ما تفكير، الى حذاءيّ يبتلّان شيئاً فشيئاً وتأتلق عليهما قطرات المـــاء . وطوّقتني الظلال رويداً وغمرتني الرطابة دون ان تعكر احلامي، وكنت احلم، بحزن

وحنان ، بالسُبُل الموحلة في « سانت آغات » مساء هـــذا اليوم نفسه من ايلول ، وأتمثل ساحتها المغطاة بالضباب ، وفتى الجزّار يسير صافراً ، والمقهى المتلألئ ، وركبان العربة الطربون المقبلون بأتراس مظلاتهم المفتوحة ، عـــلى العم « فلونتان » قبل نهاية العطلة . . . واقول في نفسي مكتئباً : وأي معنى لهذا النعيم كله ، ما دام « مولن » لا يشترك فيه ولا زوجه الفتاة . . .

ورفعت نظري ، عندئذٍ ، فاذا هي على خطوتين مني . تنبعث من وطإ نعليها في الرمال هسهسة حسبتها تساقط القطرات من السياج . ويغطي رأسها وكتفيها وشاح عريض من الصوف الاسود ، والرذاذ مذرور على خصائل شعرها فوق الجبين . لقد ابصرتني ولا ريب ، من غرفتها من النافذة المطلة على الحديقة . وأقبلت نحوي .

هكذا ، فيما مضى ، كانت تقلق امي لأمري فتأتيني لتقول لي : « يجب ان تعود الى البيت » . ولا تلبث ان ترتاح لهـذه النزهة تحت المطر ، في الليل ، فتقتصر على القول بعذوبة : « إتّـقِ البرد ! » وتبقى في صحبتي لنستغرق في حديث طويل . . .

ومدّت اليّ « إيفون دي غاليه » يداً محرقـــة . وعدلت عن

ان تدخل بي الى « السابلونيير » فجلست عــــلى المقعد الزنجاري المعشوشب ، في طرفه الأقل ابتلالاً ، فيما كنت منتصباً مستلقي الركبة على المقعد نفسه ، حاني الهامة ، مصغياً اليها .

وشرعت تؤنبني برفق على اني قصّرت ايام العطلة ، فأجبت :

– كان لا بدّ لي من ذلك لآتيكِ واكون برفقتك .

فقالت بما يشبه الهمس متنهدة :

– اني، في الواقع، ما برحت وحيدة، فـ«اغوسطين» لم يرجع بعد . . .

وبدا لي في هذه الزفرة انها ندم او عتاب مكبوت ، فشرعت اقول متمهلاً :

– هذا المقدار من الجنون في هذا الرأس النبيل ! احسب ان لذة المغامرات وهي اقوى . . .

بيد ان المرأة قاطعتني . وفي هذا المكان ، وفي هذا المساء ، حدثتني للمرة الاولى والاخيرة عن « مولن » فقالت متلطفة :

– لا تتكلم بهذا ، يا صديقي « فرنسيس سوريل » اننا ، بل انني المذنبة الوحيدة . فكّر بما صنعنا . . .

قلنا له : « ها هي السعادة ، ها هو ما بحثت عنه طوال صباك ، ها هي الفتاة التي كانت غاية كل احلامك ! »

فكيف لا تستولي الحيرة ، فالخوف ، فالذعر ، على ذاك الذي دفعناه بالكتفين دفعاً ، وكيف لا يقع في التجربة التي تدفعه الى الفرار ؟

فقلت بصوت خافت :

– لكنكِ تعرفين يا « ايقون » انك انت كنت تلك السعادة وتلك الفتاة .

فتأوّهت قائلة :

– كيف استطعتُ ان ادعي ذلك واسلّم ، لحظة ، بكبرياء هذه الفكرة . ان هذه الفكرة علة كل ما حدث .

كنت اقول لك « لعلني لا استطيع شيئاً من اجله » وأقول في قرارة نفسي « من اجل انه طالما سعى اليّ ، ومن اجل اني احبه ، وجب عليّ ان أهيّء سعادته » . بيد اني لما وجدته قريباً مني على هذه الحمّى ، والقلق ، والهاجس الخفي ، ادركت انني امرأة حقيرة

فحسب، كسائر النساء . . . وكان يردّد «لست اهلاً لكِ» عندما انبثق الفجر في نهاية ليلة العرس . فحاولت ان اواسيه وأطمئنه . وعبثاً سعيت الى تبديد غمّته . فقلت عندئذ :

– «لئن وجب ان تذهب، ولئن كنت قد اتيتُ نحوكَ ساعة لم يبقَ من شيء يسعدكِ، ولئن تحتم ان تهجرني زمناً على ان تعود اليَّ ساكن البال، فإني اطلب اليك انا، ان تذهب . . .»

وتبيّنتُ، في الظلمة، ان عينيها ارتفعتا نحوي وحدّقتا بي . انه اعتراف اسرّت به اليَّ، وانها تنتظر بقلق ان احكم لها او عليها . لكن ما عساي اقول ؟ لعمري، كنت استعرض في أغوار نفسي «مولن الكبير» على ما عرفته من قبل، في ارتباك مسلكه وانقباض نفسه، ذلك الفتى الذي كان يرتضي القصاص ويؤثره على الاعتذار او الاستئذان لإتيان عمل، من الثابت انه يؤذن فيه . لا ريب انه كان على «ايفون دي غاليه» ان تبالغ في تعنيفه فتأخذ رأسه بين كلتا يديها وتقول له : «لا حرج عليك بما قد فعلت، فإني احبك، أليس ان الرجال جميعهم خطأة ؟» ولا ريب انها اخطأت خطأً جسيماً بكونها، عن سخاء نفس وروح تضحية، طرحته مرة اخرى على طريق المغامرات . . . لكن، أكان

باستطاعتي ان آخذ عليها هذا القدر من الرفق ومن الحب ! . . .

ومرّت فترة طويلة من الصمت ، تغلغل في اثنائها الاضطراب الى اعماق قلبينا ، بينا كنا نستمع الى المطر الصاقع يرشح في الاسيجة وتحت اغصان الشجر . واستطردت تقول :

– وذهب مع الصباح . فما من شيء يفرّق بيننا الآن . وقبلني ببساطة ، كرجل يغادر زوجته الصبية قبل سفر بعيد . . .

ونهضَتْ ، فأمسكتُ بين يديّ يدَها المحمومة ، ثم ذراعها . وسلكنا الممرّ صعوداً في الظلام العميق .

وسألتها :

– الم يكتب اليك قط ؟

فأجابت :

– كلا .

وتمثّلت لنا عندئذٍ حياة المغامرة التي يحياها الآن على طرق « فرنسا » و « المانيا » . فرحنا نتحدث عنه كما لم نفعل ذلك من قبل قط . فنستعيد بعض التفاصيل المنسية والتأثرات القديمة ، في

طريق عودتنا الى المنزل ، ونقف بعد كل خطوة ، وقفات طويلة لنستزيد من تبادل تذكاراتنا . . .

ولبثت طويلاً ، الى ان بلغنا حواجز الحديقة ، استمع في الظلمة الى صوتها الخافت العذب . وقــــد أُخذتُ بحماسي القديم فتحدثت اليها ، دون ملل ، بعميق صداقتي عن ذلك الذي تركنا في مغترب الهجران .

٤١

كان عــلى المدرسة ان تستأنف العمل نهار الاثنين . ففي مساء السبت ، عند الساعـــة الخامسة ، دخلت امرأة ساحة المدرسة حيث كنت انشر الحطب للشتاء ، واعلمتني ان طفلة قد ولدت في « السابلونيير » وان الوضع كان شاقاً ، وان القابلة قد استُدعيت من « بريفرانج » عند الساعة التاسعة، وقضت الحال عند منتصف الليل ان يُستقدَم الطبيب من « ڤيارزون » فاضطر ان يستعين بالآلة ، وجرح رأس الطفلة فما برحت تصرخ ، لكنها بادية الحياة ، وان « ايڤون دي غاليه » في انحطاط ، لكنها كابدت وتحملت آلامها بشجاعة نادرة .

فتركت عملي واسرعت لأرتدي سترة اخرى ، وتبعت المرأة الى « السابلونيير » مسروراً . وصعدت بحـــذر من السلم الخشبي الضيق ، مخافة ان تكون احدى الجريحتين نائمة . وهنا طالعني السيد « دي غاليه » بوجهه التعب الباسم . وادخلني الى غرفة أعدّوا فيها ، الى حين ، مهد الطفل واحاطوه بالسجوف . وما سبق لي قط ان دخلت منزلاً ولد فيه طفل في اليوم نفسه ، فلشدّ ما بدا لي هـــذا الامر مستغرباً وغامضاً ولذيذاً ! وكان المساء جميلاً جداً – مساءً صائفاً – حتى ان السيد «دي غاليه » لم يتورع عن فتح الشباك المطل على الساحة . واستلق بمرفقيه على سند النافذة وراح يخبرني ، بادي الضنى والنعيم في وقت معـــاً ، عن مأساة الليل . وكنت استشعر في اصغائي اليه ، شعوراً مبهماً ، ان غريباً قد اصبح الآن في الغرفة بيننا . . .

وعلت من تحت السُّتر صرخة حـــادة مستطيلة . . . فقال لي السيد « دي غاليه » بصوت منخفض :

– ان هذا الجرح في رأسها يبكيها .

وبحركة آلية – تشعرك بانه تمرن عليها منذ الصباح حتى اعتادها – راح يهدهد كتلة السجوف الصغيرة .

وقال لي :

– ها هي تضحك وتمسك بالاصبع ، اما رأيت ؟

وأزاح الستر فرأيت وجهاً صغيراً احمر منتفخاً ، ورأساً مستطيلاً شوّهته حدائد الآلة . فقال السيد «دي غاليه» :

– ان هذا امر لا يؤبه له فقد اكّد الطبيب ان العيب سيستقيم لذاته . . . أعطِها اصبعك ترَ انها ستشدّه . .

واكتشفتُ هنا عالماً مجهولاً ، وشعرت ان قلبي مفعم بفرح غريب لا عهد لي به من قبل . . .

ودفع السيد «دي غاليه» بحذر باب غرفة المرأة الفتيّة وقال :

– يمكنك ان تدخل .

وكانت منبسطة على ظهرها ، لاهبة المحيّا ، بين شعرها الاشقر المتشعث . ومدّت اليّ يدها باسمةً على ضنى . فهنأتها بطفلتها . فقالت مبتسمة ، بصوت فيه بحّة ، وخشونة غير مألوفة – خشونة من يعود من المعترك :

– اجل ، لكنهم شوّهوها .

وكان عليّ ان انصرف لئلا تتعب .

وفي الغد ، نهار الاحد بعد الظهيرة ، انطلقت الى « السابلونيير » بسرعة تكاد تكون ابتهاجاً . فاذا على الباب اعلان مثبت بالدبابيس يوقفني عن الحركة التي كنت قد شرعت فيها :

الرجاء الامتناع عن استعمال الجرس

فلم احزر ما عسى ان يكون من امر . وقرعت الباب بشيء من العنف . فسمعت في الداخل خطى مكبوتة تسعى . وفتح لي رجل لست اعرفه ، وهو طبيب « ڤيارزون » فقلت بحرارة :

— ماذا جرى ؟

فاجابني هامساً مغتاظاً :

— ان الطفلة كادت تموت في هذا الليل ، والوالدة قد ساءت حالها جداً .

فذهلت من هـــذا ، وتبعته على رؤوس اصابعي حتى الدور الاول . وكانت الطفلة نائمة في سريرها ، شديدة الشحوب والبياض كالولد الميت . وكان الطبيب يأمل في انقاذها ، اما عن الام فلم يجزم بشيء . . . وتبسّط امامي في التبيان والايضاح عـــلى اني صديق الاسرة الوحيد ، فألمع الى احتقان الرئتين والذبحة الصدرية ،

بيد انه كان متردداً غير متيقّن . . . ودخل السيد « دي غاليه » تائه النظرات مرتجفاً وقد هرم في سحابة يومين بشكل مريع .

وقادني الى الغرفة دون ان يعي كثيراً ما يفعل وقال لي بصوت خافت :

— لا يجوز ان يدركها الخوف ، وقد اشار الطبيب بضرورة اقناعها بتحسن الحال .

كانت « ايفون دي غاليه » متمددة منقلبة الرأس ، شأنها في الامس والدم مستجمع في محياها . تعـــلو وجنتيها وجبينها حمرة قاتمة ، وتجحظ عيناها ، حيناً بعد حين ، كمن اعتراه اختناق . فهي تجالد الموت بشجاعة وعذوبة يدقان عن الوصف .

واستعيت بالكلام ، فمدّت الي يدها النارية ، بكثير من المودّة حتى كدت انفجر بالشهيق .

وها هو السيد « دي غاليه » يصيح بلهجة مريعة من المداعبة وكأنها ضرب من الخبل :

— هيّاً ، هيّاً ، أما ترى انها على مرضها طلقة المحيّا !

ولم ادرِ بمـــا اجيب . بيد اني احتفظت في يدي باليد الهائلة اللهيب التي استودعتنيها الفتاة المحتضرة . . .

وحاوَلتْ جهدها لتقول لي شيئاً ، او لتسألني لست ادري اي امر . فحوَّلَـتْ ناظرها نحوي ، ثم نحو النافذة ، كأنها تومىء اليّ ان اخرج لآتيها باحد الناس . . . واستولت عليها نوبة اختناق ، وجحظت عيناها الجميلتان اللتان دعتاني منذ لحظة بكثير من التفجع والتوجع ، وعلت الكدرة خدّيها وجبينها وتململت بهدوء محاولة ان تملك نفسها حتى النهاية عـــن الرعب واليأس . فتواثب الطبيب والنسوة حاملين كرة الاكسجين والقماقم والمناديل ، بينما كان الوالد العجوز منحنياً عليها يصيح – يصيح كما لو انها اصبحت بعيدة عنه ، بصوته الخشن المرتجف :

– لاتخافي يا « ايفون » . هذا لا شيء. لا حاجة بك ان تخافي! .

ثم زال العارض . فاستطاعت ان تتنفس قليلًا ، ولكن الغصة كانت تلي الغصة ، فتناضل ، وعيناها بيضاوان ورأسها منقلب ، وهي اعجز من ان تخرج من اللجة التي غرقت فيها ، لتنظر اليّ وتكلمني وإنْ لحظةً من اللحظات .

ورأيت اني لا افيدها شيئاً فعزمت على الرحيل . ولا شك انه كان باستطاعتي ان ابقى هنيهة بعد . وهذا الخاطر ما برح يضغطني بندم مريع . لكنني كنت مابرحت آمل وأرتجي واقنع نفسي ان النهاية لم تكن قريبة بهذا المقدار .

ولما بلغت تخم غاب الصنوبر ، ما وراء المنزل ، تمثلتُ نظرة تلك المرأة نحو النافذة، فرحت اتفحص بيقظة الراصد اعماق ذلك الغاب الذي أطلّ منه « مولن » فيما مضى ، ومن حيث فرّ في الشتاء الفائت . يا ويلتاه ، لم يتحرك هناك شيء ، حتى ولا شبهة ظل او ارتعاشة غصن . بيد اني سمعت مع تمادي الدقائق ، هناك ، صوب الدرب الطالع من « بريفرانج » رنات جرس صغير ناعمة . وما لبثت ان رأيت عند المنعطف فتى عليه قبعة حمراء وصدرة تلميذ يتبعه كاهن . . . فمضيت التهم مدامعي .

وكان الغد يوم افتتاح المدارس . ففي الساحة ، عند الساعة السابعة ، صبيان او ثلاثة صبية . وترددت كثيراً في ان انزل وأظهر . ولما ظهرت اخيراً ، وفيما كنت اعالج مفتاح المدرسة العفنة ، وقد كانت مقفلة منذ شهرين ، وقع ارهب ما كنت ارهبه في هذه الدنيا : اذ رأيت اكبر التلامذة ينفصل عن جماعة اللاعبين تحت

السقيفة ويقترب مني . فقد اتى ليقول لي: « ان سيدة «السابلونيير» قد توفيت امس عند هبوط الليل» .

واختلطت عليّ الاشياء وامتزجت جميعها في هذا الالم . وبدا لي انني لن املك الشجاعة بعدُ لاستئناف التدريس ، وان في مجرّد اجتيازي ساحة المدرسة القاحلة متعبة تحطّم ركبتيّ . فكل شيء مشقة وكل شيء مرارة ، الآن ، وقد مضت لسبيلها، والدنيا فراغ . وانتهت ايام العطلة ، وكذلك النزهات الطويلة التائهة في المركبة ... وانتهى المهرجان العجيب.. وعاد كل شيء الى سابق حزنه واكتئابه.

قلت للتلاميذ ان لا مدرسة هـذا الصباح . فانطلقوا جماعات صغيرة ينقلون الخبر الى رفاقهم عبر الحقول . اما انا فقد لبست قبعتي السوداء والسترة المكففة التي لديّ ، وانتحيت « السابلونيير » ذليلاً . . .

. . . وها انا تجاه المنزل الذي طالمـــا بحثنا عنه منذ ثلاث سنوات ! ففي هذا المنزل ماتت مساء امس « ايڤون دي غاليه » زوجة « اغوسطين مولن » . . فلو مرّ به غريب لحسب انه هيكل لشدة ما ساد الصمت هذا المكان المحزون منذ البارحة .

اذن، هذا ما خبأه لنا هـــذا الصباح الجميل، صباح افتتاح المدارس، وهذه الشمس الخريفية الغادرة، المنزلقة تحت الاغصان. ولعمري، كيف السبيل الى مقاومة هذه الثورة الرهيبة، هذه الصعدة الخانقة من الدموع !

كنا قد وجدنا هـذه الفتاة الجميلة، وغنمناها، وكانت زوجة رفيقي، وكنت احبها بتلك المودة العميقة الخفية التي لا يُعبّر عنها قط. كنت انظر اليها فأبتهج كالفتى الصغير. ولو كان قد حدث لي ان تزوجت فتاة اخرى، لكانت هي الاولى التي استودعها سر هذه البشرى العظيمة . . .

ما برح اعلان الامس، معلقاً قرب الجرس الصغير، في زاوية الباب. والتابوت قد أحضر، تحت، في الرواق. وفي غرفة الطابق الاول استقبلتني مربيـــة الطفل واخبرتني عن النهاية. وفتحت البـاب شيئاً . . . وها هي، فلا حمى، ولا تململ، لا دفقة احمرار ولا ملل انتظار . . . ليس هناك الا الصمت، ووجه ابيض قاسي الملامح عديم الاحساس، يغلفه القطن، وجبين مائت ينطلق منه شعر مخشوشن كثيف.

وكان السيد «دي غاليه» وقـد اولانا ظهره يجلس القرفصاء،

في زاوية ، عاري القدمين إلاَّ من جوربين قصيرين ، ويفتش باصرار رهيب في ادراج مبعثرة قـد انتزعها من خزانة ، ويُخرج منها ، حيناً بعد حين ، رسماً قديماً لفتاته ، وقد علاه الاصفرار ، فينتابه شهيق ، كأنه الضحك ، يهزّ كتفيه هزًّا .

وتعين ميقات الدفن عند الظهيرة ، لأن الطبيب خشي الفساد السريع الذي يعقب الذبحة الصدرية . ومن اجل ذلك طوّق الوجه ، وسائر الجسم بقطن مبلل بالفينول .

وسربلوها بثوب رائع من المخمل الازرق ، مزروع هنا وهناك بنجيمات من الفضة . واقتضى ان يرفقوا اطراف الاكمام المنتفخة ويدعكوها ، لأنها على شكل بطل طرازه . ولما حان وقت نقل التابوت من اسفل المنزل بدا انه من غير المستطاع ان يُستدار به في الرواق الضيق ، فقرّ الرأي على ان يُشدّ الى حبل ويرفع من النافذة ، على ان يُنزل بالطريقة نفسها . بيد ان السيد « دي غاليه » ، وما زال منحنياً على تلك الاشياء القديمة يبحث في تذكاراته الضائعة ، فقد انتفض بحدة مرعبة وصاح بصوت تقطعه الدموع والغضب :

— الأجدر ، عوضاً ان تقدموا على هذا العمل الفظيع ، ان احملها انا وانزل بها بين ذراعيّ . . .

ولو فعل هذا لتعرض، بسبب وهنه، لأن ينهار بها في وسط الطريق !. . .

لكنني تقدمت عندئذ، وحزمت امري على الحل الوحيد المستطاع. فاستعنت الطبيب واحدى النسوة، ودسست احدى ذراعيّ تحت ظهر الميتة المتمددة، وذراعي الاخرى تحت ساقيها وحملتها على صدري. وهــا هي تقتعد ذراعي الايسر، مستلقية الكتفين على ذراعي الايمن، ورأسها المنحني منقلب على ذقني، وتضغط على قلبي ضغطاً شديداً. ونزلت الهوينا، درجة درجة، في السلم الصعب المنحدر، فيما كانوا يهيئون كل شيء، في الاسفل. وانحطمت ذراعاي من التعب. فكلما انحدرت درجة تحت هذا الثقل على صدري، ازداد لهاثاً وعياء. وكنت أتنشّب في هذا الجسد الجامد الوازن، وأحني رأسي على رأس تلك التي احملها، وأتنفس بشدة، فيدخل في فمي شعرها الاشقر المجذوب بالنَفَس – ويا ربَّ شعرٍ ميتٍ فيه مذاق الأرض. إن مذاق الأرض والموت، وذلك الضغط على قلبي، انما هو كل ما بقي لي من المغامرة الكبرى ومنكِ، يا «ايڤون دي غاليه» يافتاةً لشدّ ما سعى اليها القلب، – ولشدّ ما غمرها بالحب . . .

٤٢

في المنزل المليء بالتذكارات الكئيبة ، حيث تقوم النسوة نهاراً على هدهدة وتسلية طفل مريض ، ما عتم السيد « دي غاليه » العجوز ان لزم الفراش . وفي ايام الصقيع الاولى من الشتاء انطفأ بسلام ، فلم اتمالك من ذرف العبرات عند سرير هذا الرجل العجوز الانيس الذي كان علة مغامرتنا كلها ، بسبب ما ابدى من روح التسامح ، ومن غرابةٍ في هوى النفس والمراد صادفت مثلها عند ولده. وشاء حسن الطالع ان يموت في جهل تام لكل ما حدث، فضلاً عن انه مات وسط صمت عميق . ولم يكن له اهل ولا اصدقاء في ذلك الصقع من « فرنسا » ، فأوصى لي بجميع ما يملك ، حتى اذا

رجع «مولن» يوماً كان عليّ ان اؤدي له الحساب عن كل شيء . واصبحت «السابلونيير» مقامي عندئذٍ . ولم اكن اذهب الى قرية «سان بنوا» الا لمهمة التدريس . فأسير اليها صباحاً واتناول فيها عند الظهر طعاماً سبق ان أُعِدّ لي في المنزل ، فأسخنه على الموقد، واعود بعد الدرس مساءً . وتسنى لي على هذه الحال ان استبقي الطفل بالقرب مني . فتُعنى بامره خادمات المزرعة ، كما ان حظي كان مضاعفاً في ان التقي «مولن» اذا ما رجـــع يوماً الى «السابلونيير» .

وما كنت قد يئست بعد من العثور ، في مرور الايام ، عـــلى اي ورقة بين متاع البيت او في الأدراج ، او عـلى اي دليل آخر يرشدني الى حقيقة ما كان يصرف وقته فيه ابان صمته الطويل في السنوات السابقة، لعلني ادرك اسباب فراره او اتبين، على الاقل، اثره ... وكان قد سبق لي ان نقبت على غير طائـل ، في عدد من الخزائن ، وبحثت في مخادع المهملات وفي شتى الاضبارات المنطوية تارة على رزم من الرسائل القديمة ورسوم صفراء تمثل الاسرة وتارة على زهور اصطناعية وارياش للزينة عتيقة الطراز . ولا ادري اي رائحة ذاوية ، بل اي عطر مطفإ كان ينبعث من هذه الاوعية ،

فيوقظ فيَّ التذكارات والحسرات ، طوال النهار ، ويصرفني عن المزيد من البحث والتنقيب . . .

بيد اني وقعت في احد ايام العطلة على صندوق فوق السقيفة ، مستطيل وطيء ، يغلّفه جلد خنزير قُرض بعضه وعرفت فيه صندوق «مولن» في عهد التلمذة . وأخذت على نفسي ان يكون قد فاتني الشروع في التفتيش هنا . فنزعت بسهولة قفله الصدىء وتبيّنت انه ممتلىء حتى الجمام بالدفاتر والكتب من عهد « سانت آغات » : كتب حساب وادب ودفاتر حساب وغيرها وغيرها . . . وانكببت افتش في كل هذا ، بسائق الحنان لا الفضول ، واقرأ ما كنت احفظه عن ظهر قلب من نصوص املاء طالما نقلناها ونسخناها ، كالمجاز « لروسو » والمغامرة في «كالابريا» من « ب . ل . كوريه » ورسالة « جورج صاند » الى ولدها . . . ووجدت ايضاً « دفتر فروض شهرية » فدهشت لأن اراه هنا ، لأن تلك الدفاتر تحفظ في الصفوف عادة ولا ينقلها التلامذة للخارج قط . وانه لدفتر اخضر مصفرّ الاطاريف ، واسم التلميذ « اغوسطين مولن » مكتوب على غلافه بخط مستقيم جميل . وفتحته وعرفت من تاريخ الفروض « نيسان . . . ١٨٩ » ان « مولن » قد شرع في استعماله قبل ان يغادر « سانت آغات » ببضعة ايام . وكانت صفحاته الاولى منمقة بالاتقان الذي كان رائدنا في

معالجة هذا الدفتر المخصص بالمسابقات الانشائية . بيد اني لم ارَ فيه غير ثلاث صفحات مكتوبة ، فيما كانت سائر الصفحات بيضاء ، وهو السبب الذي حمل « مولن » على ان يأخذه معه .

واذ كنت جاثياً على الخضيض متأملاً في تلك العادات وتلك القواعد التي احتلت مكانها الفسيح في عهد مراهقتنا ، رحت اقلب تحت ابهامي اطراف الصفحات في هذا الدفتر غير المكتمل . فاكتشفت كتابةً على أوراق أُخَر ، بعد اربع صفحات بقيت بيضاء .

وانه لخطّ « مولن » نفسه لكنه سُطّر بعجلة ، رديء الحروف حتى يكاد لا يقرأ . فثمة فقرات غير متساوية المدى تفصل بينها سطور بيضاء . فتارة جملة مبتورة . وتارة تاريخ . وقد ادركت منذ السطر الاول ان بامكاني ان اجد هنا ما يعوزني من المعلومات عن حياة « مولن » الماضية في « باريس » ومن الدلائل على الاثر الذي اقتفيته . ونزلت الى حجرة الطعام لأطالع الوثيقة العجيبة على ضوء النهار ، متمهلاً . وكنا في نهار شتاء صافٍ ومضطرب . فالشمس حيناً ترسم مصلبات الواح الزجاج على السُتُر البيضاء المدلاّة على النوافذ ، والريح حيناً آخر ، ترمي الزجاج بديم من المطر الصاقع . وامام النافذة وقرب النار رحت اقرأ هذه السطور التي انجلت عن كثير من الامور والشؤون . وهذه هي منقولة بدقة وامانة . . .

٤٣

مررت ايضاً تحت نافذتها. فالزجاج ما برح مغبّراً يبيّضُه الستار المزدوج الذي وراءه. ولو ان «ايڤون دي غاليه» فتحتها لما كان لي ان اقول لها شيئاً لانها تزوجت... ما العمل الآن؟ وانّى لي ان احيا؟..

السبت ١٣ شباط – التقيت، على الرصيف، تلك الفتاة التي افضت اليّ بما تعلم في حزيران. انها تنتظر مثلي امام المنزل المقفل... حدّثتها، ورحت، فيما هي تمشي، انظر من طرف العين الى عيوب وجهها الطفيفة: غَضَن خفيف في زاوية الشفتين، قليل من الانخفاض في الوجنتين، وذَرور مستجمع حول ارنبتي الانف. وفجـــأة

تحوّلت نحوي ونظرتْ اليَّ وجهاً لوجه ، ولعلها فعلت ذلك بسبب ان محياها اجمل بالمقابلة منه بالمجانبة ، وقالت بصوت مقتضب : انك تُفكِهني ، وتذكرني بشاب كان يغازلني في « بورج » حتى انه قد اصبح خطيبي . . .

على الرصيف المقفر المبتلّ ، الذي ينعكس عليه نور مصباح ، دنت مني ، وقد احلولك الليل وطلبت اليّ ان اذهب بها وشقيقتها الى المسرح . فلاحظت للمرة الاولى ، انها تلبس الحداد ، وعلى رأسها قبعة خليقة بالسيدات ، لا تؤاتي وجهها الغضّ . وفي يدها مظلة دقيقة طويلة اشبه ما تكون بالعصا . وكنت من القرب منها ، بحيث انني كلما اومأت ايماءة خمشتْ اظافري بارز الثوب المشدود الى صدرها . . . وتمنعت عن تلبية رغبتها . فغضبت وحاولت الانصراف . وها انا الآن بدوري استوقفها وأتوسل اليها . وثمة عامل يمرّ بنا في الظلام ويقول مازحاً بصوت منخفض :

– لا تذهبي معه ، يا صغيرتي ، فسيؤذيكِ !

ولبثنا ، نحن الاثنين ، مرتبكين .

في المسرح – ان الفتاتين ، صديقتي المسمّاة «فلانتين بلوندو» وشقيقتها ، وصلتا وعليهما وشاحان حقيران .

واستوت «ڤلانتين» امامي . وهي في كل لحظة تلتفت نحوي قلقة ، كأنها تسأل نفسها عمّا اريد منها . وانا اشعر انني بقربها اكاد اكون سعيداً . فأجيبها ، كلما التفتت ، بابتسامة .

وحولنا نسوة افرطن في كشف الاعناق والصدور ، فنمزح ، ثم تبتسم وتقول : مالي اضحك وانا نظيرتهنّ في تكشّف الصدر ؟ . وتسترت بوشاحها . وبدا لي من خلال التخاريم السوداء ، انها حين قامت بتبديل زينتها على عجل ، دفعت الى الاسفل أعلى قميصها الصاعد .

. . .

لا ادري اية مسحة عليها من المسكنة والسذاجة ، واية لمحة من الالم والجسارة في لحظها تجتذبني . انني ، وانا بالقرب منها ، وهي الوحيدة بين الناس التي كان باستطاعتها ان ترشدني الى جماعة القصر ، ما زلت افكر بمغامرتي الماضية الغريبة . . . وشئت ان استعلمها ، مرة اخرى ، عن الفندق الصغير القائم على الجادة . لكنها القت عليّ اسئلة وقعتُ معها في ارتباك وأحجمت عن الجواب . واشعر اننا منذ الآن سنلازم الصمت تجاه ذلك الموضوع .

واعرف ، مع ذلك ، انني سأرى بعدُ فتاة القصر . ولكن ما الفائدة ؟ وعلام ؟ . . . هـــل قضي عليّ الآن ان اتتبع اثر كل كائن يحمل في ذاته اي ريح ، مهما بَعُدَ واستبهَم ، من مغامرتي الفاشلة ؟ . . .

عند منتصف الليل ، في الشارع القفر ، أسائل نفسي عمّا يراد بي من هــــذه القصة الجديدة الغريبة ؟ وأسري بمحاذاة المنازل الشبيهة بعلب « الكرتون » المصففة حيث يرقد شعب برمته . واذكر فجأة امراً كنت قد عزمت على تنفيذه في الشهر المنصرم : اذ صممت عـــلى ان اذهب الى هناك ، في جوف الليل ، عند الساعة الواحدة صباحاً ، وادور حول الفندق فأفتح باب الحديقة وأدخل كاللص لأبحث عن اي دليل يرشدني الى القصر المفقود لكي اراها ، اراها فحسب . . . لكنني تعب ، وجائع ، وقد اسرعت انا ايضاً في تبديل ملابسي قبل المسرح ولم اتناول طعاماً . . . بيد اني شديد القلق والاضطراب اجلس طويلاً على حافة سريري قبل الرقاد . واني لفريسة تبكيت مبهم . فما السبب ؟ .

وانني لأدوّن ايضاً ما يلي : لم ترضيا ان اعود بهما الى المنزل او ان تدلّاني اين تقيمان . لكنني تبعتهما ما استطعت . واعرف انهما

تقطنان في زقاق يدور في ضواحي «نوتردام» لكن مـــا رقم المنزل ؟ . . . — وأحسب انهما تحترفان الخياطة والتفصيل .

ان «فلانتين» ، وقد تخبّأت من اختها ، ضربت لي موعداً نهار الخميس عند الساعة الرابعة امام المسرح نفسه الذي ذهبنا اليه. وقالت لي :

— اذا لم اكن هناك غداً ، عدْ نهار الجمعة في الساعة نفسها ، والاّ فالسبت وهكذا دواليك ، وليكن هذا شأنك كل يوم .

الخميس ١٨ شباط — ذهبت لأنتظرها في الريح العاصفة المثقلة بالمطر . وكنت اقول في نفسي كل لحظة : يوشك المطر ان يتساقط . . .

ومشيت في الشوارع الشاحبة الضياء مثقل القلب . وانحدرت قطرة ماء فتخوّفت من المطر . فإذا اشتدّ حال دون مجيئها . لكن صفرت الريح ولم تمطر السماء . وهناك في الاعالي ، في كدرة سماء هذه الامسية — سماء كدرة تارة وتارة ساطعة — انكفأت سحابة عظيمة امام الريح . واني هنا قابع في شقاوة الانتظار . . .

امام المسرح – اذا انقضى ربع ساعة ، فمن الثابت انها لن تجيء . واني من الرصيف ، اراقب الجماعات المارة فوق الجسر الذي يجب ان تجتازه في طريقها اليَّ . وأرافق بالنظر جميع النسوة المقبلات باثواب الحداد ، وأكاد احسّ بعاطفة الجميل نحو اللواتي ، وقد اقترين مني ، بَدَوْنَ شبيهات بها وأحيينَ فيّ الامل . . .

ساعة انتظار – لقد سئمت . رأيت عند هبوط الليل ، حارساً يجرّ الى المخفر القريب زقاقياً يرميه بكل ما يعرف من الشتائم والبذاءات . هـــذا والحارس حانق ، شاحب الوجه صامت . . . حتى اذا وصلا الى الرواق شرع يدفعه ثم اغلق الباب ليضربه على هواه . . . وجالت في خاطري فكرة شنيعة ، هي اني كفرت بالسماء واصبحت اتخبط عند ابواب الجحيم .

ومللت الانتظار ، فتركت المكان وانسللت في هذا الزقاق الضيّق المنخفض القائم بين « السين » و « نوتردام » حيث اعرف على وجه التقريب موقع منزلها . ورحت وحيداً اذرع الأرض جيئة وذهاباً . فأرى ، حيناً بعد حين ، خادمة او زوجة تخرج تحت المطر لتشتري حوائجها قبل الليل . . . لم يبقَ لي مأرب هنا ، وانصرفت . . .

وعدت ادراجي اجتاز الساحة التي فيها موعد لقيانا ، والمطر الشفاف يؤخر حلول الظلام . وقد ازداد عـــدد المارّة عما قبل – حشد كثيف اسود . . .

افتراضات – قنوط – وهن . فكرة واحدة تراودني : الغد . غداً في الساعة نفسها ، وفي المكان نفسه سأعود لأنتظرها . ولو استطعت لاستعجلت هـــذا الغد . واني اتصور بسأم ، ما ستكون عليه امسيتي اليوم وصباحي غداً ، وانا عاطل عن العمل . . .

لكن لعمري . أفما ينقضي هذا النهار ؟ . . . واذ رجعت الى مقرّي وجلست قرب النار ، سمعت اصوات باعة الجرائد المسائية . وهي ولا ريب ، تسمعها ايضاً من بيتها الضائع في مكان ما من المدينة حوالي « نوتردام » .

هي . . . واعني : « ڤلانتين » .

ان هذه الامسية التي وددت لو انطوت سريعاً تنوء بي بشكل غريب . وفيما الساعة تتقدم ، والنهار على وشك الزوال – وليته زال – هناك اناس قد اودعوه كل ما فيهم من امل ، ومن حب ، ومن جهد اخير ، وهنـــاك من هم على فراش الاحتضار ، وغيرهم

يتوقعون حلول اجَل دين عليهم ويودون لو ان الغد لايكون . وثمة آخرون سيطلع عليهم الغد كوخزة ضمير ، وآخرون ايضا هم من الوهن والاعياء ، بحيث ان هذا الليل مهما طال فلن يأتيهم بالكفاف من الراحة . وانا ، انا الذي اضعت نهاري ، بأيّ حق أتجرأ على ان استدعي الغد ؟

مساء الجمعة -- حسبت اني سأكتب في ذيل هذا : «لم ارَها بعد» . ولكان انقضى كل شيء .

لكنني حالما بلغت ، في الساعة الرابعة من هذه الأمسية ، منعطف المسرح ، طلعت علي رشيقة القدّ على وقار في ثوبها الاسود ، لكن على وجهها مسحة من المساحيق ، وحول عنقها طوق ابيض تظهر فيه سيماؤها بمظهر المجرم القلق . سيماء تجاور فيها الالم والمكر في وقت معاً .

وكان ان قالت لي انها تريد تركي فوراً ، وانها لن تعود ابداً . . .

. . .

على اننا ، عند هبوط الليل ، كنا ما زلنا معاً ، نمشي متمهلين جنباً الى جنب على حصباء «التويلري» . فهي تروي لي قصتها ولكن

بغموض اصبحت معه أعي بصعوبة ما تعني . تقول « عاشقي » اذ تحدثني عن ذلـك الخطيب الذي لم تتزوجه . واحسب انها تتعمد هذا القول لتؤلمني ، فلا أعلقها .

وثمّة عبارات فاهت بها ادوّنها كارهاً :

« لا تثق بي ، فلم أصنع قط إلاّ الحماقات .

« وحيدة طفت السبل .

« وأسلمت خطيبي لليأس ، وهجرته لأنه افرط في الاعجاب بي . ولم يكن يراني على حقيقتي بـــل من خلال مخيلته . والحال اني مليئة بالعيوب . ولـكنّنا صرنا الى شقاء عظيم » .

وكنت افجأها ، كل لحظة ، جاهدة في تصوير ذاتها على اسوإ ما هي . وأحسب انها تريد ان تقنع نفسها بنفسها انها كانت مصيبة فيما اتته من حماقة ، وان ليس عليها ان تندم على شيء وانها غير جديرة بالسعادة التي عَرَضت لها .

وقالت مرة اخرى :

— ان ما يعجبني فيك — وأطالت اليَّ النظر — ان ما يعجبني فيك ، ولا ادري السبب ، انما هي تذكاراتي . . .

ومرّة غيرها :

– اني ما زلت احبه ، فوق ما تتصوّر .

ثم فجأة وبخشونة وفظاظة وكآبة :

– والحاصل ، ما تريد مني ؟ اتحبني انت ايضاً ؟ وانت ايضاً سينتهي الأمر بك الى ان تطلب يدي ؟ . . .

فتمتمت . ولا ادري بما اجبت . ولعلي قلت « نعم » .

وتنقطع هنا هـذه اليوميات . ويليها مسودّات رسائل غير مقروءة مشطوبة ومبتورة الحروف ، تخلص منها الى ان هناك تعاهداً على الخطبة ولا استقرار . . . لقد تركت الفتاة حرفتها تلبية لرغبة « مولن » فيما انصرف هو الى اعداد العدّة للزواج . بيد ان الرغبة في تقصّي حبه المفقود كانت ما برحت تعاوده فينطلق متتبعاً آثاره ويتوارى مرة بعد اخرى . ويحاول في تلك الرسائل ، ان يجد ما يبرر فيه نفسه تجاه « ڤلانتين » فتستشعر انه في ارتباك أليم .

٤٤

ثم يستأنف يومياته . فيدوّن ذكرياته عن مقامهما ، هما الاثنين ، في مكان ما من الريف . والغريب في الأمر ان اليوميات اصبحت تحرر منذ هذه اللحظة — بدافع من الخفر الخفيّ — بصيغة معماة ، جد مقتضبة ، وبخط عجل مشوّش ، مما حملني على ان اتولّى بنفسي ضم ما تفرّق من اجزاء هـــذا القسم كله من القصة حتى استجمعَتْ لي عناصرها .

١٤ حزيران — عندما استيقظ صباحاً في احدى غرف النزل ، كانت الشمس قد اضاءت الرسوم الحمراء في الستار الاسود . وفي الغرفة السفلى مزارعون يتناولون قهوة الصباح ويتحدثون باصوات

مرتفعة : انهم يتذمرون ، بعبارات خشنة هادئة، من احد ارباب العمل . ولا ريب انه كان يسمع هذه الغمغمة في رقاده . فلم يتنبّه لها بادىء ذي بدء . فذلك الستار المزركش بالعناقيد وقد حمّرتها الشمس ، وتلك الاصوات الصباحية الصاعدة الى الحجرة الصامتة ، كل ذلك قد اختلط في هذه اللذة الفريدة ، لذة اليقظة عند الصباح في تلك المغاني الريفية ، وفي مطلع ايام العطلة الرغيدة .

ثم نهض وقرع الباب المجاور قرعاً رفيقاً دون ان يحظى بجواب . فدفعه بتؤدة حتى تثاءب قليلاً . فوقــــع بصره على « ثلانتين » وادرك من اين له هذا الفيض من عذوبة النعيم . وكانت نائمة ، في سكون وهدوء ، فلا تُسمع انفاسها ، في مثل اغفاءة العصافير . وحدّق طويلاً بذلك المحيّا الصبياني المغمض الاجفان ، ذلك المحيّا الوديع الذي تودّ لو انك لا توقظه ولا تعكر صفاءه قط .

ولم تبدُ منها حركة ، لتُظهرَ انها صحت من النوم ، الّا حركة عينيها تنفتحان وتنظران .

وحالما ارتدت ملابسها رجع اليها « مولن » فقالت :

— لقد تأخرنا .

وها هي تعمل للحال، كربة منزل في منزلها . ترتب الغرف، وتنظف بالفرشة اثواب «مولن» التي لبسها امس . وعندما انتهت الى السراويل هالها ما رأت على اطرافه من الوحـــل المتجمد . فترددت حيناً، ثم راحت، قبل ان تعمل الفرشة فيه، تحكّ بسكين طبقة الوحل الاولى . فقال لها :

– على هذه الصورة، كان تلامذة «سانت آغات» ينظفون ثيابهم، بعد ان يغوصوا في الوحل .

واجابته :

– اما انا فإن امي قد علمتني هذا .

. . . تلك هي، لعمري، الرفيقة التي كان على «مولن» ان يتمناها، قبل مغامرته الخفية، وهو عهدئذٍ ذلك الصياد القروي .

١٥ حزيران – وبدت حيية كالعروس، في اثناء هذا العشاء الذي دعاهما اليه اصدقاؤهما، في المزرعة، على انهما زوج وزوجة، وقبلا الدعوة اليه كارهَين .

وقد اضيئت الشماعد، عند طرفي الطاولة المغطاة برفرف من النسيج الابيض، على نحو ما يجري في اعراس الريف الهادئة .

وكانت الوجوه حالما تميل ، تحت هذا الضوء الضئيل ، تنغمس في الظلال .

كانت « ڤلانتين » تجلس الى يمين « باتريس » ابن صاحب المزرعة ، والى جنبها « مولن » وقـــد بقي سكوتاً حتى النهاية ، على كون الحديث قد كان في معظمه يُوجّه اليه . فمنذ صحت عزيمته في هذه القرية الضائعة ، على ان يعتبر « ڤلانتين » وكأنها زوجة له ، منعاً للتأويل ، تملّكته غمة من اسف وتبكيت باطني . هذا و « باتريس » يوجه مراسم العشاء على طريقة الشريف القروي .

وقال « مولن » في نفسه :

« لكان الاجدر ان ارئس بنفسي وليمة عرسي هذا المساء ، في حجرة منخفضة كهذه ، حجرة اعرفها تمام المعرفة » .

هذا و « ڤلانتين » بالقرب منه ترفض كل ما يقدم لها ، حتى انك لتحسبها فتاة قروية . وكانت عند كل محاولة جديدة ترمق رفيقها بنظرة كأنها تلوذ به ، فيما كان « باتريس » يلح عليها عبثاً لتفرغ كأسها . وانتهى الامر « بمولن » ان انعطف عليها يقول برفق :

ــ عليك ان تشربي يا صغيرتي « ڤلانتين » .

فامتثلت وشربت . وهنأ «باتريس» الفتى «مولن» على ان تكون له زوجة مطيعة .

بيد ان هذا ورفيقته لبثا صامتين متأملين . ذلـــك انهما كانا تعبين . فضلًا عن ان ارجلهما وقـــد انغمست في الوحول ابان النزهة ، قد عمل الصقيع فعله فيها على بلاط المطبخ المغسول ثم ان الشاب كان مكرهاً ان يقول مرة بعد اخرى :

— زوجتي ، ڤلانتين زوجتي . . .

وكان كلما غمغم هذه الكلمة ، امام هؤلاء القرويين المجهولين ، في هذه الحجرة المظلمة ، يشعر بأنه اقترف ذنباً .

١٧ حزيران — كانت البداية سيئة بعد ظهيرة هذا اليوم الاخير .

لقد رافقهما الى النزهة «باتريس» وزوجته . ولكنهما ما لبثا ان افترقا عنهما ، شيئاً فشيئاً ، على تلك السفوح الوعرة المكسوّة بمنابت الاريق . فجلس «مولن» و«ڤلانتين» بين اشجار العرعر عند مرج صغير .

وكان الجوّ معتكراً ، والريح مثقلة بقطرات المطر . فالأمسية ،

على ما يبدو ، مرّة المذاق ، مرارة من السأم استحكمت حتى استحال على الحب نفسه ان يزيلها .

ولبثا طويلاً هنا في مخبأهما ، في ملاذ الغصون ، لا يتكلمان الا قليلاً ، ثم انقشعت الغيوم وصحا الطقس ، فخيّل اليهما ان الغمة ستنجلي .

وشرعا يتحدثان حديث الهوى . وراحت «فلانتين» تتكلم وتتكلم . . . وتقول :

– هاك ما كان يعدني به خطيبي ، بصبيانيته الساذجة : سيكون لنا في الحال منزل ضائع ، كالكوخ ، في متاه الريف . وهو جاهز العدة وافي الاثاث . ولكنا أوينا اليه ، كأننا عائدان من سفر بعيد ، مساء زواجنا ، في مثل هـذه الساعة القريبة من الليل . ولكان صبية مجهولون ، مختبئون بين الاشجار ، حوالي الطرق والساحة ، يحتفون بنا صائحين : « لتعش العروس » ويا لهـا من حماقات ! أما توافقني ؟

وكان « مولن » يصغي اليها مرتبكا شديد الهواجس . ففي كل ذلك صدى لصوت سبق ان سمعه . وفي لهجة الفتاة ايضاً ، اذ تروي هذه القصة ، نبرة غامضة من الندم .

وخشيت ان يستشعر منها ايلاماً ، فانثنت عليه بحماسة وعذوبة وقالت :

— اما انت ، فسأعطيك كل ما عندي وما هـــو اثمن شيء لديّ . . . وستحرقُه .

وفيما اثبتت نظراتها فيه ، والقلق في ملامحها ، اخرجت من جيبها رزمة صغيرة من الرسائل ، رسائل خطيبها ، ودفعتها اليه .

ويا ويلتاه ! لقد عرف لفوره ذلك الخط المنمق . وكيف لم يفطن لذلك من قبل ! انه خط « فرانز » البوهيمي ، ذلك الخط الذي سبق له ان رآه على الورقة اليائسة المتروكة في غرفة القصر . . .

وها هما الآن يسيران على طريق ضيقة ، بين السنابل والاقاحي التي تضيئها مجانبة شمس الساعـــة الخامسة . وقد بلغ من ذهول « مولن » انه لم يدرك بعد مدى الهزيمة التي مني بها . وكان يقرأ لانها طلبت اليه ان يقرأ . وثمـــة عبارات صبيانية ، عاطفية مؤثرة . . . كهذه الواردة في الرسالة الاخيرة :

« آه ! لقد فقدت القلب الصغير . يا صغيرتي « ڤلانتين » ولا عذر ولا مغفرة . فما عساه يحل بنا الآن ؟ ولكني لست متطيراً . . . »

وكان «مولن» فيما يقرأ ويكاد يعميه الندم والغضب ، ساجي الوجه ، شاحبه ، والاختلاجات تضطرب تحت عينيه . وقلقت «ڤلانتين» ان تلقاه على هذه الحال فنظرت لترى الى اين انتهى بالقراءة وايّ امرٍ غاظه وساءه . وراحت تشرح له بسرعة :

ـ تلك حلية اهدانيها واستحلفني ان احتفظ بها ابداً . وهذه لعمري ، احدى بوادره الجنونية .

ولكنها اثارت بهذا الكـــلام حفيظة «مولن» وزادت في سخطه . فقال وقد وضع الرسائل في جيبه :

ـ جنونية ! مالك تردين هذه الكلمة ؟ ولِمَ لم تصدقيه ولم تثقي به قط ؟ لقد عرفته ، وهو اعجب فتى في العالم !

وبلغ منها الاضطراب حدًّا قصياً فقالت :

ـ لقد عرفته ؟ اعرفت «فرانز دي غاليه» ؟

ـ لقد كان افضل اصدقائي ، وأخا مغامراتي . وها اني استولي على خطيبته .

واستطرد يقول مهتاجاً :

ـ آه ! ايّ مساءة اسأتِ الينا ، انت التي ما اردت ان تصدّقي

شيئاً . انك السبب في كل ما حصل . وانت التي اضعت كل شيء! كل شيء !

وشاءت ان تكلمه ، وان تمسك بيده فدفعها بخشونة وصاح بها :

– اليك عني – دعيني .

فالتهب محياها وراحت تتمتم باكية :

– لا بأس ! فاذا كان الامر على ما تقول ، سأذهب وأعود الى « بورج » الى منزلنا بصحبة شقيقتي . واذا انت لم تعد لترجع بي ، فانك تعلم ان ابي معوز لا يستطيع ان يستبقيني لديه واذن ، سأنطلق ثانية الى « باريس » لأجوب الطرق كما حدث لي ذلـــك مرة ، وسأصبح فتاة ضالة ، انا التي طلقت حرفتي . . .

ومضت لتجمع حوائجها وتصعد في القطار ، فيما استمر « مولن » سائراً لا يلويَ على شيء ، حتى انه لم ينظر اليها ذاهبة .

وانقطعت اليوميات مرة اخرى .

وعقب ذلك مسودّات رسائل ، رسائل رجل متحير تائه . ان « مولن » بعد عودته الى « فيرته دانجيون » كان يكتب الى « فلانتين » ليؤكد لها ، ظاهراً ، عزمه على ألاّ يراها قط فيما بعد ،

بالاستناد الى اسباب معينة يوضحها ، ولعله كان يقصد في الواقع ، الى ان تجاوبه عن رسائله . وطلب اليها في احدى تلك الرسائل ما فاته ان يستعلمها عنه، لما كان فيه من هلع ، وهو هل انها تعرف موقع الدارة المنشودة . . . وتوسل اليها في رسالة اخرى ان تصالح « فرانز دي غاليه » فيأخذ على نفسه ان يفتش عنه ويتقصى خبره . . . ولا ريب ان تلك الرسائل التي وقعت على مسوداتها لم ترسل جميعها الى « ڤلانتين » وانه كتب اليها مرتين او ثلاثا دون ان يحظى بجواب ، وانه قضى هذه السحابة من الزمن في كفاح هائل رهيب وفي عزلة تامة . وان امله في لقاء « ايڤون دي غاليه » قد تلاشى فوهنت عزيمته . وتبينت من الصفحات التالية — وهي الاخيرة من يومياته — انه استأجر دراجة ، ذات صباح من مطلع العطلة ، ليذهب الى « بورج » ويزور الكاتدرائية .

وانطلق في منبثق النهار ، على الجادة الجميلة المستقيمة ، المنسابة في حواشي الغابات ، فيما كان يبتدع طوال الطريق الف حجة وحجة تبرر حضوره ، ولا تنال من إبائه ، تجاه التي سبق له ان طردها من امامه ، دون ان يبدو كأنه اقبل ليصالحها .

ان الصفحات الاخيرة التي استطعت رصفها ، تنطوي على خبر هذا السفر ، وهذه الغلطة الاخيرة . . .

٤٥

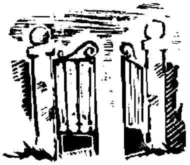

٢٥ آب – في الناحية الاخرى من «بورج» عند اطراف الدساكر الجديدة، تكشّف امامه بعد لأي منزل «فلانتين بلوندو». فعلى الباب امرأة – والدة ڤلانتين – بدت وكأنها تنتظر قدومه، انيسة الملامح، ذات بدانة في ثوبها الخلِق، مع انها جميلة بعد. وكانت تنظر اليه بفضول مقبلاً عليها. وعندما سألها «هل الآنستين بلوندو هنا» اعلمته برفق وعذوبة انهما رجعتا الى «باريس» منذ الخامس عشر من آب وأضافت تقول:

– لقد حظرتا عليّ ان ابوح بما اعلم عن مقرهما. بيد ان الرسائل التي ترد عليهما الى العنوان القديم تتبعهما الى حيث هما الآن.

وعاد ادراجه خلال الحديقة يجرّ دراجته بيده مستعرضاً هذه الخواطر :

– لقد مضت . . . وانقضى كل شيء على ما اردت . . . وانا الذي اكرهتها على هذا . لقد قالت « سأصبح ولا ريب فتاة ضالة » وأنا الذي طرحتها هنا ! انا الذي اضعت خطيبة « فرانز » .

وراح يردد بهمسات جنونية « نِعْم ما فعلت ! نعم ما فعلت ! بينما كان موقناً انه بئس ما فعل . وكاد ، قبل ان يصل الى الباب المشبك ، يتعثر بكلتا رجليه ، تحت انظار تلك المرأة ويقع على ركبتيه .

ولم يفتكر بالطعام ، بل توقف في احد المقاهي حيث شرع يدبج رسالة طويلة الى « فلانتين » لا لشيء الا ليصرخ صراخ الالم ، وينعتق من الصرخة اليائسة الآخذة بخناقه . وتعاقبت تحت قلمه هذه العبارات الى ما لا حد له : « هل استطعتِ ! . . . هل استطعتِ ! . . . هل استطعتِ ان ترتضي بهذا ! . . . هل استطعت ان تقضي على نفسك على هذه الصورة ! . . . »

وكان بالقرب منه ضباط يخمرون ، ويروي احدهم بجلبة وضجيج ، ما وقع له مع امرأة فيُسمع من حديثه بعض النتف : « قلت لها . . . لاشك انك تعرفينني . . . اني اجالس زوجك كل

مساء على طاولة اللعب ! » فيضحك الباقون ، ثم يستديرون برؤوسهم ويبصقون خلف المقاعد .

وينظر اليهم « مولن » شاحب الوجه ، مغبّر الملامح ، كأنه طالب صدقة ، فقد كان يتمثلهم ممسكين بـ « فلانتين » وهي تنتقل بينهم من حضن الى حضن .

وتطوّح ، فوق دراجته ، يجوس حول الكاتدرائية ويقول في نفسه هـــذا القول الغامض : « لعمري انني من اجل الكاتدرائية جئت » . وفي الساحة المقفرة الى حيث تنتهي الشوارع جميعها ، انتصبت امامه عظيمة البنيان ، غير حافلة بـــه . وثمة ازقة ضيقة الجنبات قذرة شبيهة بأمثالها التي تحيط بكنائس القرى . وهنا وهناك علامة بيت دعارة ، مصباح احمر . . . وشعر « مولن » بألمه يضيع في ذلك الحي الدنس الخليع ، اللائذ تحت زوافر الكاتدرائية شأنه في سابق الازمنة . وتملكته خشية قروي ، وكراهية لكنيسة المدينة تلك ، حيث نحتت المآثم جميعها في المخابىء ؛ تلك الكنيسة التي شُيّدت بين مثاوي الفجور ، وعزّ فيها الدواء لاطهر آلام الحب وأنقاها .

ومرت به عاهرتان ، تلف كل منهما قوام صاحبتها بيد ، وتنظران

اليه بقحة. وما ادري ما الذي دفع « مولن » الى ان يتبعها متمهلاً على دراجته ، اهو الاشمئزاز ، ام العبث ، اهي الرغبة في الانتقام من هواه ، ام في اتلاف هذا الهوى !

وكانت احداها ، وهي امرأة حقيرة ضفرت شعرها الاشقر الضئيل في قفاها على شكل عقدة رديئة ، ضربت له موعداً للساعة السادسة في حديقة المطرانية ، تلك الحديقة نفسها التي كان « فرانز » قد ضرب فيها موعداً للمسكينة « ڤلانتين » في سياق احدى رسائله.

لم يقل لا ، لعلمه انه يكون قد ترك المدينة في هذه الساعة . وبقيت هي مدة طويلة تومئ له ايماءات مبهمة من شباكها المنخفض في الزقاق المنحدر .

وكانت تدفعه لاستئناف المسير حاجة ملحة . وما استطاع ، قبل الذهاب ، مقاومة رغبته الحزينة في ان يمرّ امام بيت « ڤلانتين » مرة اخيرة . فحدق به بملء عينيه حتى تزوّد ما امكنه من الكآبة . وهو احد المنازل الواقعة في آخر المدينة ، اذ يتحوّل الشارع الى طريق . . . وفي الناحية المقابلة تنبسط ارض غير واضحة المعالم كأنها الفناء — وما من احد في النوافذ ، او في الساحة او في اي مكان

آخر . اللهم الآّ امرأة قذرة متبرجة تمرّ في محاذاة الحائط وتمسك بيدي صغيرين عليهما اسمال بالية .

في هذا المكان انقضت طفولة « فلانتين » وهنـا شرعت تنظر الى العالم بعينيها المطمئنتين البريئتين. وفيما وراء تلك النوافذ كانت تشتغل وتخيط . وفي هذا الشارع مرّ « فرانز » ليراها ويبتسم لها. والآن لا شيء ، لا شيء من كل هذا . . . وتطاولت العشية الحزينة و « مولن » لا يعرف من امر « فلانتين » إلا انها تائهة، هذه الامسية، في مكان ما ، تنظر بعين الذكرى الى هذه الساحة الكئيبة التي لن تعود اليها ابداً .

لقد كان سفره الطويل في طريق العودة ، ملاذه الاخير من ألمه ، وملهاته الاخيرة التي أكره عليها قبل ان ينغمس بكليته في ذلك الألم .

ومضى . ففي جوانب الطريق ، في الوادي ، منازل ريفية رغيدة تنتصب ، بين الشجر عند ضفاف المـــاء ، بقببها المقرّنة المكسوّة بالاخضرار . ولا ريب ان هنالك ، بين المروج، فتيات يقظات يتحدثن حديث الهوى. ويخيل اليك ان هناك ايضاً ارواحاً، ارواحاً جميلة . . .

على انه لم يكن لـ « مولن » قط في هذه الساعة غير حب وحيد، ذلك الحب الذي ما بلغ الكفاف من الارتواء بل صُفِع وعُنِّف بمزيد من القسوة . والفتاة التي كان على « مولن » ان يخصها دون سواها ، بالحفظ والحماية ، هي هي نفسها التي ساقها الى هلاكها .

وهناك سطور كتبت على عجل يستدلّ منها انه صمم على ان يجد « فلانتين » مهما كلف الامر ، قبل فوات الأوان . وفي زاوية احدى الصفحات تاريخ حملني على الاعتقاد انه تاريخ ذلك السفر البعيد الذي كانت والدة « مولن » تعدّ عدّتـــه حينما وصلت الى « لافيرته دانجيون » وقلبت الامور رأساً على عقب . كان « مولن » في المختارية المهجورة يدّون تذكاراته ومشروعاته في صباح يوم جميل من اواخر آب ، عندما دفعت الباب ونقلت اليه البشرى العظيمة التي لم يكن لينتظرها . فهزّته عندئذٍ مغامرته القديمة وجمدت عروقه دون ان يتجرأ على البوح بشيء ، وساورته نواخس الندم ، وتبكيت الضمير ، والالم ، فهي تارة مختنقة في صدره ، وتارة منتصرة عليه ، حتى كان يوم الزفاف ، وجاء نداء البوهيمي يذكره ، بطريقة مسرحية ، بقسمه الاول الذي اقسمه اذ هو في ريّق الفتوّة .

وعلى دفتر الفروض الشهرية هذا ، خربش ايضاً بعض الكلمات ،

عند مطلع الفجر، قبل ان يستأذن ويترك — للابد — «ايڤون دي غاليه» زوجته منذ الامس :

«اني ذاهب . وعليّ ان اقتفي اثر البوهيميّين اللذين حضرا امس الى غاب الصنوبر ، ثم انطلقا على دراجة نحو الشرق . ولن ارجع الى قرب «ايڤون» ما لم ارجع معي «فرانز» و«ڤلانتين» وأحلّهما في منزل «فرانز» متزوجين .

«ان هذه المخطوطة التي بدأت بها على صورة يوميات سرية ، وقد اصبحت وثيقة اعترافي . هي، ما لم أُعدْ ، ملك لصديقي فرانسوا سوريل» .

ويبدو انه دسّ هذا الدفتر بسرعة تحت الدفاتر الاخرى ، واقفل صندوقه الذي كان له من عهد التلمذة ، ثم توارى .

الخاتمة

وانقضى الزمن . فزال الامل في ان ارى رفيقي بعد ، فيما كانت الايام تنساب كئيبة في المدرسة القروية ، حزينة في المنزل

القفر . ولم يأتِ « فرانز » في الموعد الذي كنت قد عينته له . اما العمة « موينيل » فقد كانت تجهل منذ زمن بعيد، مقرّ « ڤلانتين » .

وما لبثت الطفلة، وقد تضافرت الجهود على انقاذها ، ان اصبحت البهجة الوحيدة في « السابلونيير » وفي نهاية ايلول اذ شارفت السنة الواحدة من عمرها، بدت على قسماتها تباشير الصباحة والعافية . فهي اذ تتنشب بقضبان الكراسي تدفعها امامها متمرنة على المشي دون معين ، غير متحرّزة من السقوط ، فتحدث جلبة توقظ الاصداء البكماء ، طويلاً ، في المنزل المهجور . وتراها لا تحتمل قبلة مني كلما امسكتها بين ذراعيّ . بل تتململ بفظاظة وفتون ، في وقت معاً ، وتدفع وجهي بيدها الصغيرة المفتوحة بينما هي تضحك مقهقهة . وكنت احسب انها ، بهذا المقدار من الجذل والفوران ، ستجلو غمامة الكمد الجاثمة على المنزل منذ مولدها . واقول في نفسي احياناً : « لا ريب في انها ستألفني وتصبح ولدي ، برغم هذا التوحش » . بيد ان العناية شاءت غير ذلك، هذه المرة ايضاً .

وذات صباح من اواخر ايلول صحوت باكراً جداً حتى اني سبقت في النهوض القروية التي تعنى بالطفلة الصغيرة . فقد كنت عازماً على الصيد في مياه « الشير » بصحبة رجلين من المحلة ، فضلاً

عن « جسمان دلوش » . فكثيراً ما تواعدت والقرويين في الضواحي على رحلات بعيدة للصيد المحرم ، كالصيد بالصنّارة ، ليلاً ، وقنص البزاة الممنوع . . . وعلى هذا المنوال ، كنا طوال الصيف ننطلق ايام العطلة منذ الفجر فـــلا نرجع إلاّ في الظهيرة . فيجد هؤلاء الرجال في هذا ، اغزر موارد الرزق ، وأجد فيه ملهاتي الوحيدة ، بل مغامرتي الوحيدة التي تذكرني بالمقاحم المــاضية . وانتهى بي الامر الى اني اصبحت ألتذ هذه الرحلات وهذه الوقفات الطويلة للصيد على ضفاف النهر او في مقاصب المستنقع .

كنت ذلك الصباح ، واقفاً عند الساعة الخامسة ، امام الدار ، تحت سقيفة مسندة الى الحائط الذي يفصل بـــين حديقتي « السابلونيير » والمزرعة ، أسرّح شباكي التي كنت ركمتها هنا الخميس الفائت .

ولم يكن النهار قـــد اكتمل طلوعه . فثمة فجر مؤتلق ، والسقيفة التي أسرّح ادواتي تحتها ما برح نصفها غائصاً في الظلام .

واذ كنت هناك صموتاً منشغلاً ، سمعت صرير الباب المشبّك ، وخطوة تصوّت على الحصى . وقلت في نفسي :

– ها هم جماعتي يستبقون الموعد، وانا الذي لم أتأهب بعد! . . .

بيد اني اجهل هذا الرجل الذي دخل الفناء . فهو ، على ما تميزته ، شاب متين البنية ملتحٍ يرتدي ثوب صياد . وعوضاً عن ان يأتيني في المكان الذي يعرف رفاقي انني فيه ابداً في مواعيد ملتقانا، يمم شطر باب المدخل . فقلت في نفسي ايضاً :

« لعله صديق لهم دعوه بغير معرفتي وأوفدوه للاستطلاع » .

وعالج الرجل مزلاج الباب برفق ودون ما تصويت . بيد اني كنت قد اقفلته حالمـا خرجت . وفعل الفعل نفسه عند مدخل المطبخ . ثم تردد لحظة ، وادار نحوي وجهه القلق تضيئه خيوط الصباح . وعندئذٍ فقط عرفت « مولن الكبير » .

فتلبثت مكاني ، هنيهة طويلة ، مرتاعاً يائساً ، وأُخذتُ فجأة بكل ما أيقظت فيّ هذه العودة من ألم . وكان قد توارى خلف البيت واستدار حوله ، ثم اقبل متحيراً .

فأقبلت عليه ودون ان اكلمه ، عانقته ناحباً . فأدرك للحال واقع الامر وقال بصوت عجل :

– أواه ، لقد ماتت اذن ؟

ولبث مكانه، منتصبا ابكم، جامداً، ومخيفاً، فأخذت بذراعه وجذبته برفق ناحية المنزل. وكان النهار قد طلع. ولكي يتهيأ لي ان انجز المهمة الأشد ايلاما، اصعدته للحال في السلم الذي ينتهي الى غرفة الميتة. وما دخل اليها حتى جثا على ركبتيه امام السرير وبقي طويلاً، دفين الرأس بين ذراعيه.

ثم نهض زائغ النظرات، يتمايح ولا يدري اين هو من المكان. وقدته بذراعه وفتحت الباب الذي ينفذ الى غرفة الصغيرة وكانت قد استيقظت من تلقاء نفسها، بينما كانت مربيتها في اسفل المنزل، واستوت في مهدها متعمدة. فلم نرَ الا وجهها يتلفت نحونا بدهش واستغراب. وقلت له:

– هاك ابنتك.

فاعترته رجفة ونظر اليّ.

ثم تناولها بين ذراعيه. وما وسعه ان يجتلي ملامحها بادىء ذي بدء لانه كان باكياً. وشاء ان يتحوّل شيئاً عن هذا الفيض من الحنان والدموع، فحول نحوي رأسه المنخفض فيما كان يشدّ اليه طفلته القاعدة على ساعده الأيمن وقال لي:

– لقد عدت بها . ذينك الآخرين . . . وباستطاعتك ان تذهب وتشاهدهما في منزلها .

والواقع ، اني في مطلع الصباح ، بينما كنت سائراً مستغرقاً في التأمل واكاد اكون فرحاً – نحو منزل « فرانز » الذي دلتني عليه من قبل « ايڤون دي غاليه » مقفراً موحشاً ، بدا لي ، على البعد ، شكل ربة منزل فتية ، ذات طوق ابيض ، تكنس عتبة بابها ويتطلع اليها بعجب وفضول، صغار الرعاة المتشحين بأثواب العيد، وهم في طريقهم الى الكنيسة . . .

وكانت الطفلة قد بدأت تتململ من طول ما شدّها « مولن » اليه . واذ كان حاني الرأس جانباً ، ليخفي ويوقف دموعه ، وهو ما زال على حاله من عدم النظر اليها ، صفعته صفعة شديدة بيدها الصغيرة على فمه الاشعر المبتلّ .

ورفع الوالد ابنته عالياً جداً ، هذه المرة ، وجعل يرقصها على طرف ذراعيه وينظر اليها بنـــوع من الضحك . فسُرَّت وراحت تُصفّق بكلتا يديها . . .

وكنت قد رجعت قليلاً الى الوراء ليتسع مدى نظري اليهما .

ومع اني كنت استشعر شيئاً من الخيبة، ابهجني ان ارى الطفلة قد اهتدت اخيراً الى الرفيق الذي تنتظره انتظاراً غامضاً . . . والبهجة الوحيدة التي تركها لي « مولن الكبير »، احسست احساساً بيّناً ، انه رجع ليستلبها مني .

وتمثلته منذ تلك الساعة ، يلفّ ابنته بردائه ، وقـــد هبط الليل ، ويسير بها نحو مغامرات جديدة .